أشهر قصص الجاسوسية

جواسيس حولوا مجرى التاريخ

درويش الجميل





الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

أشهر قصص الجاسوسية

جواسيس حولوا مجرى التاريخ

جواسيس حولوا مجرى التاريخ

أشهر قصص الجاسوسية

درويش الجميل



١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

الناشر
ذات السلاسل
للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت



الإدارة العامة
مجمع الأوقاف - برج ١٥
شقة ١٥ - الدور السابع

ص.ب: ١٢٠٤١ - الشامية - الكويت تلفون: ٢٤٦٦٢٢٥٥ / ٢٤٦٦٢٢٦٦

فهـــرس

الإهداء

الى زوجتي

درويش الجميل

مقدمــــــة

الجاسوسية قصة قديمة قدم التاريخ.

قصة الجواسيس الذين دسهم رمسيس الثاني في جيوش الحيثيين ينقلون إليه أسرار أسلحتهم، منقوشة على أعمدة معبد الكرنك..

اسكندر الأكبر اليوناني كان أول من شكل مكتباً خاصاً للجاسوسية، مهمته التسلل إلى أسرار قواده من خلال رسائلهم التي يرسلون بها من ميدان القتال إلى أهليهم باليونان ليعرف مدى ولائهم له...

عرافات «معبد دلف» لم يكنّ سوى جاسوسات مدربات على أيدي خبراء الساسة ومهرة الكهان، يستدرجن من يطلب منهم النبؤات ومعرفة ما يخفي الغيب، بالرقص والخمر، وما يدخل في دهاليز الرقص والخمر من فسق وفجور، ثم يبلّغن الكهنة رؤساء «الخلايا» بحصيلة اليوم من معلومات.

الحكيم الصيني «سون ـ تسو» أقدم أستاذ في فن الجاسوسية وعلوم جمع المعلومات يقول ناصحاً تلاميذه:

«إذا وهبت نفسك لهذه المهنة المقدسة، مهنة جمع المعلومات، فلا تضع ثقتك في أي شيء له روح. لا في إنسان، ولا في حيوان، لا في صديقك ولا في ولدك ولا في أخيك ولا في زوجتك ولا في عشيقتك، لا تثق في الأرباب ولا فيمن يقومون على خدمتهم في المعابد. ثق فقط فيمن يعرف الحالة الحقيقية لعدوك..»

أكان في استطاعة «متراديس» الأثيني أن يوقف الزحف الروماني لو لم يكن من أشهر خبراء جمع المعلومات في العالم القديم..

في العصور الوسطى كان الملوك أحياناً يقومون بما يعجز عنه الجاسوس المدرب. . «الفريد» ملك انجلترا، تنكر في هيئة شاعر متجول ذي لحية حمراء كثة، وحمل فيثارته وتسلل إلى معسكر أعدائه ليعرف أسرار جيوشهم. . .

لولا خبرة جواسيس «سير فرانسيس والسنجهام» الذين بثهم في كل موانىء أسبانيا، لما تمكنت بريطانيا من هزيمة الأسطول الأسباني الرهيب «الأرمادا». .

كاترين دي مديتش ملكة فرنسا حرصت عند تشييد قصر اللوفر في باريس على أن تدس في الجدران أنابيب خفية كي تتمكن من أن تسمع من خلالها في إحدى الغرف، ما يدور بين أفراد الحاشية. . فكانت فعلتها تلك وراء المثل الساري: «للجدران آذان». . .

لقد انتهى زمن الجاسوس التقليدي القديم. . الجاسوس ذي اللحية المستعارة والعباءة والخنجر. .

عصرنا الحالي يقدم جاسوساً جديداً من طراز فريد. . جاسوساً في جعبته إمكانات رهيبة لم تكن متاحة لزملاء المهنة القدامى. .

* ميكرفونات صغيرة سرية في حجم رأس الدبوس.
* كاميرات خفية مزروعة في الجلد.
* أجهزة إرسال واستقبال مدمجة في نسيج الثياب أو أربطة العنق بل في أدوات المائدة والمناشف. . .

ثم هذا الجاسوس المحوم بين أفلاك الله يجمع ما يشاء من معلومات عن أدق أسرار العدو. . . الأقمار الصناعية!!

وأشياء أخرى مروعة قد لا نكون على علم بها، ولكنها ستكشف عن أسرارها حتماً في قابل الأيام. . .

ثم ندعكم مع هذه الطائفة المختارة من جواسيس عصرنا. . .

ريتشارد سورج



البرقية التي أنقذت ستالين



البرقية التي أنقذت ستالين

تفوق في صناعته الخطرة تفوقاً جعله في أول قائمة زملائه. . زملاء الخنجر والعباءة والسم المدسوس، والحبر السري، والميكروفونات الدقيقة، وأجهزة الإرسال الخفية، وأصغر الكاميرات. . زملاء الصناعة التي قل أن ينجو ممارسها من الشنق أو الخنق أو الحرق. . أو طابور النار أو الكرسي الكهربائي. .

صناعة الجاسوسية.

تفوق على ماتاهاري، ودريفوس، ودي باتز، وفيلباي، وفوش. . . والقائمة طويلة. . . والصفحات التالية حافلة بأخبارهم. .

أطلقوا عليه عشرات الألقاب والكنيات:

ــ الأستاذ

ــ أخطر رجل في العالم.

ــ الرجل الذي أنقذ ستالين.

ــ الرجل الخفي.

ــ أشهر جاسوس على طول التاريخ.

ــ الرجل الذي لا يستعصى عليه سر. . .

أما هو فيقول عن نفسه:

ــ كل هذه مبالغات لا رصيد لها في سجل أعمالي. . بكل بساطة أنا رجل أومن بالشيوعية، وأعمل لصالحها بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، ولا

يشغلني مصيري لحظة واحدة. . قد أقتل في إحدى مغامراتي. قد تدس لي السم إحدى عشيقاتي. . قد تنفجر بي سيارتي أو غرفة نومي. . وقد أشنق. كل هذا محتمل ولا يشغلني.

وقد شنق.

أو هكذا يقول اليابانيون. . الروس يقولون غير هذا. يقولون:

ـ ريتشارد سورج لم يشنق يوم العاشر من مارس عام ١٩٤٥ كما يزعم اليابانيون. . إنه لا يزال حتى هذه الساعة يعيش آمنا في مكان ما من الكرة الأرضية. آمناً ثرياً. . وفي أتم صحة وعافية رغم سنه الكبير.

يقول السفير الألماني في طوكيو «هانز أوتو ميسنر»:

ـ في أواخر ديسمبر عام ١٩٤١ كنت في برلين أعالج من بعض جروح أصبت بها في مغامرة ضد الجواسيس السوفيت. . ذهبت أزور الأدميرال كاناريس في مقر قيادته أشكره على رعايته لي. . رأيته قد نشر على إحدى المناضد خارطة كبيرة للجبهة الروسية. . قال لي:

ـ هذه الدبابيس المنتشرة على طول الجبهة يا عزيزي ميسنر تؤكد أن موسكو ستسقط في أيدي قواتنا خلال ثلاثة أيام فقط.

قلت له في دهشة:

ـ ثلاثة أيام يا صاحب السعادة؟

قال كاناريس:

ـ طبعاً. كل شيء يعزى إلى عبقرية قوادنا على الجبهة السوفيتية يا عزيزي ميسنر. التطور الأخير يقول أن موسكو لن تستطيع الصمود. إنها محاصرة من ثلاث جهات. ونحن نعلم علماً لا يرقى إليه أي شك أن السوفييت قرروا أن يهجروا موسكو وربما يحرقوها كما فعلوا عندما حاصرها بونابرت. الوزراء الذين يشغلون مناصب حساسة لها اتصال وثيق بالحزب غادروها فعلاً منذ أكثر

من ثلاثة أسابيع بعيداً ناحية الشرق.

قلت له:

ـ بفرض أننا احتللنا موسكو يا صاحب السعادة. فإن هذا لا يعني أنهم سيستسلمون. النتائج غير مؤكدة وربما غير مؤثرة في الأحداث العسكرية.

فضحك كاناريس وقال:

ـ بفرض أننا احتللنا موسكو؟؟ يا عزيزي ميسنر، ستسقط موسكو في ثلاثة أيام وهذا مؤكد.. أما النتائج التي تقول أنت أنها غير مؤكدة فهي أخطر مما تتصور.. النتائج عديدة ولا حد لها. سقوط موسكو سيكون صدمة كبيرة للرأي العام العالمي.. وفي روسيا بالطبع على وجه الخصوص.. ثم أن أمريكا ستتردد ألف مرة في التدخل لصالح انجلترا، وستفتح تركيا الباب لقواتنا إلى الشرق الأوسط فيتم الاتصال بقوات روميل في شمال افريقيا.. ثم.. يا إلهي.. هذا معناه نهاية الحرب يا مسنر!!

من الناحية النظرية كان الأدميرال كاناريس على حق.. ولكن كل هذا كان يتوقف على سقوط موسكو. ولم تسقط موسكو.. لا بعدثلاثة أيام.. ولا بعد ألف يوم.. لم تسقط، بل هي التي مدت يدها ذات يوم وخنقت برلين. يقول السفير:

ـ بعد أسبوع من حديثي مع الأدميرال كاناريس، بدأنا نتراجع أمام موسكو.. ونزعت الدبابيس من الخرائط وغيرت أماكنها إلى الخلف.. وحين قابلت كاناريس بعد ذلك كان يقول في دهشة:

ـ لست أفهم.. لقد حشد الروس أمام قواتنا المهاجمة، فرقاً لا حصر لها من القوات الروسية المنقولة من الشرق الأقصى.. جردوا الجبهة الشرقية تماماً من القوات دون أن يشغلوا بالهم بالجيش الياباني المتحفز من زمن بعيد لاستعادة منشوريا منهم.. لقد جرت الأحداث كأن ستالين لا يخشى شيئاً من جانب

اليابانيين. هذا هو الذي ألحق بنا الهزيمة يا عزيزي ميسنر. .

وقد صدق كاناريس، لم يكن الروس يخشون جانب القوات اليابانية الكثيفة المتحفزة على حدود منشوريا. . هذه الثقة من أن اليابانيين لن يتحركوا هناك، هي التي دفعت ستالين إلى استدعاء كل القوات الروسية من منشوريا. . لهذا لم يستول الألمان على موسكو. . ويقول ميسنر:

ـ هذه الثقة حصل عليها ستالين من رجل واحد. . الرجل الذي يدعى ريتشارد سورج. ألماني مثلي. . ولكنه خان بلاده لينصر عليها الجيش السوفيتي. . هو الذي أعطى ستالين الضوء الأخضر، فسحب كل قواته من منشوريا ليدفع بها في جبهة موسكو وهو آمن من أي هجوم ياباني هناك. . إليه وحده يعزى النصر الروسي النهائي على جيوشنا واحتلال برلين في نهاية الأمر. . برقية واحدة كانت الفيصل بين النصر والهزيمة. . برقية أرسل بها ريتشارد سورج إلى ستالين يقول له فيها:

«لقد اتخذت الحكومة اليابانية قراراً نهائياً لا نقض له، بعدم مهاجمة روسيا تحت أي ظرف ومهما كانت الأسباب».

من هو ريتشارد سورج؟ وكيف توصل إلى هذا النبأ الذي أفقد ألمانيا النصر، ونقله إلى جانب ستالين؟

لن نجد من يحدثنا عنه حديث العارف بأبعاد هذه الشخصية العجيبة خير من صديقه السفير الألماني. . هانز أوتوميسنر:

ـ أبدأ بأن أقول أنه يصعب على أي إنسان ينوي سورج أن يضعه إلى قائمه أصدقائه، أن يقاوم سحر هذه الشخصية الفذة. يأخذك منه أول ما تراه طوله الفارع وقوامه الرشيق وابتسامته التي لا تفارق شفتيه مع قدرة فذة على كسب ودك في أول لقاء. . وهذا تماماً ما حدث لي معه. . في سبتمبر عام ١٩٣٣ كنت

سفيرا لألمانيا في طوكيو. . دخل على سورج بابتسامته اللطيفة وقال مرحا:

ـ صباح الخير يا سيدي السفير. اسمي ريتشارد سورج. دكتور في الآداب، المراسل الجديد في طوكيو لصحيفة «فرانكفورتر زيتونج».

قلت له وأنا أشد على يده:

ـ لقد سمعت عنك يا دكتور سورج. تفضل بالجلوس.

ناولني ملفاً وهو يقول:

ـ تكرم بمراجعة أوراقي.

وقلبت أوراق الملف ثم قلت:

ـ دكتور سورج. . أرى في أول الملف خطاب اعتمادك موقع عليه من اثنين، لا أحد يستطيع أن يرد لهما طلباً. رئيس تحرير فرانكفورتر زيتونج، وسعادة السفير الألماني في تركيا «فون بابن».

وابتسم سورج وقال:

ـ ومع هذا يا سعادة السفير أفضل أن تراجع بقية الأوراق فالذي لا أشك فيه أنك ستسأل السؤال المعروف «ما هو رقمك في الحزب النازي»؟ وعلى هذا السؤال أجيب بأنني لم ألتحق بعد بالحزب.

ـ هذا عجيب. وكيف رشحك فون بابن؟

ـ لقد قلت أنني لم ألتحق بعد بالحزب، وهذا لا يعني أنني لن أقدم طلباً لهذا الغرض. . فون بابن نفسه هو الذي سيتكفل بتأييدي.

ـ إذن ففي استطاعتنا أن نعتبرك عضواً في الحزب. . حسناً. ماذا تستطيع السفارة أن تؤدي لك من خدمات ياهر دكتور؟

ـ القاعدة أن أتعاون تعاوناً وثيقاً مع السفارة في الحصول على كل الأنباء الهامة للصحيفة.

ـ تستطيع أن تعتمد علي في هذا يا هر دكتور. . والآن. . هل حصلت على سكن مناسب أم تقيم في فندق؟

ـ في فندق حتى الآن. . ولكني أجيد التصرف في أمثال هذه الحالات. . لن ألبث أن أعثر على الشقة المناسبة وبأسرع مما تتصور. .

ويتابع السفير الألماني حديثه:

الملف الذي جاء به لا تشوبه شائبة. . في صحيفته السرية تجد هذه الكلمات:

«يعتمد عليه. . ذكي جداً. . محدث ممتاز. . ماضيه يؤكد ولاءه الشديد لألمانيا. . قبلت عضويته في الحزب النازي ولم يبلغ بذلك بعد. . .».

والعجيب أن جملة «ماضيه يؤكد ولاءه الشديد لألمانيا»، كانت خاطئة في كل حرف من حروفها. . أدركنا فيما بعد، وبعد فوات الأوان، أن ولاء سورج لم يكن إلا لروسيا السوفيتية. . حتى اليوم لا أدري كيف لم تحفر المخابرات النازية في ماضيه. . ولو حفرت لوجدت العجائب والغرائب التي تثير حوله شكوك أقل رجال المخابرات النازية ذكاء. . منها مثلاً:

ـ ولد ريتشارد سورج في مدينة «باكو» بروسيا.

ـ أبوه ألماني الجنسية وكان يعمل في شركة نفط القوقاز الروسية.

ـ أمه روسية، ورفضت باصرار التقدم لطلب الجنسية الألمانية بعد عودة الأب إلى برلين.

ـ بعد الحرب العالمية الأولى تلقى في روسيا دراسة مكثفة في الاقتصاد السياسي، وحصل على درجة علمية مرموقة عن دراسات متقدمة في نظرية ماركس.

ـ درس الطب في ألمانيا وصار عضواً في الحزب الشيوعي الألماني.

ـ تلقى دراسات مكثفة في أساليب تنظيم الخلايا الشيوعية في موسكو عام ١٩٢٢.

ـ حصل سراً على الجنسية السوفيتية بعد أن صار عضواً في «الكومنترن».
ـ سافر إلى شنغهاي، حيث نظم شبكة جاسوسية لحساب الاتحاد السوفيتي.
ـ عاد إلى موسكو حيث كلف بتنظيم شبكة جاسوسية مماثلة في طوكيو. .

كيف غفلت المخابرات النازية عن هذا الماضي المثير؟ سيظل هـذا سراً من أخطر أسرار ألمانيا النازية حتى يرفع عنه الستار ذات يوم. .

ثم كيف استطاع أن يحصل على وظيفة مراسل الصحيفة التي هي لسان حال الحزب النازي ويكلف من رئاستها بالعمل في طوكيو بالتعاون الوثيق اللصيق مع السفارة الألمانية؟ يقول السفير ميسنر في كتابه المثير عن سورج:

صدقت كل ما قال لي في مقابلاته التالية. . وكيف لا أصدق وعندي تقرير سري من الحزب النازي يؤكد أن في استطاعتي الاعتماد عليه دون تحفظ؟؟ وكيف لا أصدق وأنا أعرف أن الجستابو لا يوافق على قبول عضوية أي ألماني في الحزب النازي قبل أن يفحص ماضيه فحصاً دقيقاً، ويحفر في ذلك الماضي حفراً عميقاً بحثاً عن أي علاقة بالشيوعية!! فور وصوله طوكيو شرع حتى وهو لا يزال يقيم بأحد الفنادق في تنظيم شبكة الجاسوسية لحساب روسيا. . ولكن في حرص اشتهر به في الدوائر السوفيتية بينما كان يبدو لنا، وللمسئولين اليابانيين في طوكيو أيضاً، بمظهر المراسل الصحفي الذي لا يشغله إلا إمداد صحيفته بالأحداث الجارية في اليابان بعد أن يعرضها بنفسه على مدير الرقابة اليابانية الذي صار من أقرب الأصدقاء إليه. . كان مدير الرقابة هذا إذا جاء إلى السفارة يحدثني عنه في ود عجيب ويقول ضاحكاً:

ـ إنه أظرف وأرق ألماني عرفته يا سيدي السفير. . أرجوك لا تظن أن الألمان ليسوا ظرفاء ولكن أعذرني إذا قلت أن دكتور سورج طراز وحده في باب الظرف والرقة.

قلت له:

ـ هذه مجاملة لطيفة يا ميجور «ماتشي». .

قال:

ــ هـذه حقيقة. وآه منـه يا سيـدي في مجالس النسـاء!! يسحرهن تمـامـاً بكلماتـه وأسلوبه الفذ في إسعادهن.. يجعل السهرة متعة ما بعدها متعة..

ــ مع أني أعرف أن اليابانيات يفضلن من يبالغ في العناية بثيابه.. دكتور سـورج قليل العناية بذلك.. وقلّ أن يذهب إلى سهرة بربطة عنق.

ــ وأحياناً دون أن يحلق ذقنه. إنه يتصرف في أي مكان كأنه في بيته وهذا ما يحببه إلى قلب كل من يعرفه.. خاصة النساء يا عزيـزي.. خاصـة النساء.. ومن عجب أنه يستطيع أن يقطع علاقته بـأية صـديقة لـه دون أن يجرحهـا.. تظل مخلصة له رغم علمها بأنه يعيش قصة حب مع صديقة أخرى.

ــ يـا عزيـزي ميجور مـاتشي.. إذا كان في استـاطاعـة دكتـور سـورج أن يـأسر أصدقاءه الرجال.. فكيف لا يأسر صديقاته؟

وضحك المدير وهو يقول:

ــ إنه يرفض تماماً أن يبوح لي بسره..

كانت الجملة مفاجئة وسريعة. وكنت أعرف أن مدير الرقـابة اليـابانيـة لا يلقي الكلمات على عواهنها فسألته في حذر..

ــ أي سر يا ميجور؟

ــ سر تعلق النساء به ولو بعد دقائق قليلة من التعرف عليه..

ــ آه.. حين تعرف منه هذا السر يا ميجور لا تنس أن تخبرني به!.

لا أحد يشك في ريتشارد سورج.. الألماني الظريف الذي يمارس الصحافة بحب، ويستمتع بحياته في طوكيو كأنما لا يشغله في الحياة كلهـا غير ممارسة لعبـة التنس، ومصادقة الحسان.. حسان كل الجاليات الأجنبية في طوكيو. كـانت له حظوة خاصة عند اليابانيات.. ويستطرد السفير ميسنر في حديثه:

كانت هذه هي الصورة التي انطبعت في أذهان الجميع عن سورج. . بينما كان في حقيقة الأمر، يدير أخطر شبكة جاسوسية في اليابان كلها لحساب روسيا السوفيتية. . هذه الشبكة هي التي أمدت روسيا بأخطر أسرار اليابان خلال الحرب العالمية الثانية. . فسورج هو الذي أرسل من وكره هذه البرقية الخطيرة:

«تبلغ هذه البرقية إلى الرفيق ستالين على الفور» ستهاجم القوات الألمانية الأراضي الروسية يوم الثاني والعشرين من يونيو في الساعة الثالثة صباحاً».

لم يكن أحد في طوكيو يعرف هذا الموعد سواي. . ولم أدونه في مذكرتي الخاصة التي لم تكن قط تفارق جيبي. كيف عرف به سورج؟!

وهو الذي أرسل هذه البرقية البالغة الخطورة أيضاً.

«لدي ما يؤكد أن اليابانيين سيشنون هجوماً جوياً مفاجئاً كبيراً على قاعدة بيرل هاربور الأمريكية في المحيط الهادي».

ومن عجب أن ستالين لم يطلع حلفاءه الأمريكيين على هذه البرقية! وهو الذي أرسل أخطر برقية على طول التاريخ. البرقية التي غيرت من سير الحرب العالمية الثانية كلها ونقلت النصر من جانبنا إلى جانب الروس:

«لقد اتخذت الحكومة اليابانية قراراً نهائياً لا ينقض بعدم مهاجمة روسيا تحت أي ظرف ومهما كانت الأسباب».

على الفور نقل ستالين كل القوات الروسية في منشوريا إلى جبهة موسكو، فأنقذها من الوقوع في أيدينا وكانت هذه هي نقطة التحول في الحرب كلها. .

في أوج انتصاره، فاجأته «اللدغة» القاتلة. .

فاجأته من مأمنه. . من المرأة الوحيدة التي أحبها حقاً وصدقاً. .

☆ ☆ ☆ ☆

كانت القوات النازية تطبق على موسكو من ثلاث جهات. وأجمع المحللون العسكريون على ألا مهرب للمدافعين عنها. . وانتقل الوزراء السوفييت ذوو

المناصب الحساسة إلى ما وراء الأورال. . وفجأة جاءت برقية سورج فغيرت الأوضاع كلها. على الفور نقل ستالين جحافله من جبهة منشوريا في مواجهة القوات اليابانية، إلى جبهة موسكو، فحقق النصر.

وظل السفير النازي في طوكيو، الذي كان من أصدق أصدقاء سورج، يجهل أن صديقه المسالم الوديع صاحب البسمة الساحرة، كان يخون بلاده ألمانيا لصالح روسيا السوفيتية. يقول:

ـ كنت أثق ثقة كاملة في ريتشارد سورج. ولم تكن ثقتي من فراغ، فهو المراسل المعتمد للصحيفة الأولى في برلين «فرانكفورتر زيتوج» وهو عضو الحزب النازي المرموق، وهو الطفل المدلل لوزير الدعاية جوبلز، وبموجب قرار خاص من جوبلز صار سورج رئيس المخابرات في سفارة ألمانيا في طوكيو. . لهذا لم يخطر ببالي قط أنه كان يخون ثقتي وينقل كل ما يريد من أسرار السفارة إلى موسكو. . كانت كل مكاتبنا في متناول يده. يدخل السفارة وقتما يريد ويغادرها وقتما يشاء. . كل أسرارنا وكل علاقاتنا مع اليابان كانت في جيبه. . كان موضع ثقة الجميع وثقتي أنا على الخصوص بوصفي سفير ألمانيا في طوكيو. فلم تثر حول الخلية التي يرأسها في طوكيو أية شكوك. .

ونسأل السفير:

ـ ومتى ثارت حوله الشكوك الحقيقية يا سيد ميسنر؟

ـ مصادفة يا عزيزي. مصادفة. . كان سورج في منتهى الذكاء. . وعلى علاقة ممتازة بكل المسئولين اليابانيين في طوكيو. . وقد تعجب إذا قلت لك أنه اختار شقته، التي كان يتخذ من إحدى غرفها السرية مخبأ لجهاز الإرسال اللاسلكي، في بناية مجاورة لبناية المخابرات اليابانية في طوكيو، ومن المؤكد أنه أراد بهذا المبالغة في إبعاد الشكوك عنه. .

ـ إذن كيف أوقعته المصادفة؟

ـ كما قلت لك كان سورج تبع نساء . . كل ليلة مع يابانية جميلة . . لكنه وقع في شراك الحب في أواخر عام ١٩٤٠ . . أحب يابانية بالغة الرقة والكياسة والجمال تدعى «ايشي هاناكا» .

ـ ضمها إلى خليته الشيوعية؟

ـ كلا . أبقاها بعيدة عن عملياته ، لأنه أحبها في صدق ، وبادلته الحب ، وإن كانت هي سبب ضياعه في نهاية الأمر . . لم يكن يشركها في عمله ، لا كموصلة رسائل ولا كناقلة أخبار . . كانت ساقية في أحد المشارب في طوكيو . . قالت في الرسالة التي تركتها بعد انتحارها .

«كان سورج كريماً معي إلى أقصى حدود الكرم ، حين علم أنني أهوى الموسيقى ، أنفق جزءا كبيراً من دخله على دروسي الخصوصية في الموسيقى والغناء . اشترى لي بيانو من ألمانيا . . واشترى لي بيتاً صغيراً في ضواحي طوكيو . . ولم يكن يسمح لي قط بالتردد على شقته المجاورة للمخابرات اليابانية إلا في المرة الوحيدة السابقة على خيانتي له» .

في بداية عام ١٩٤٠ تداول وزير الدفاع الياباني مع مدير المخابرات اليابانية «أوجاكي كازوشيجي» في أمر بالغ الأهمية : تسرب بعض الأسرار الخطيرة إلى الأعداء :

ـ حتى متى يا سيدي؟ أليس من عمل المخابرات أن تمنع تسرب أسرارنا إلى الأعداء؟

قال مدير المخابرات للوزير :

ـ إلى الأعداء وإلى الأصدقاء أيضاً يا صاحب السعادة .

ـ فهل تعلم أو لا تعلم يا ترى أن روسيا قد أصبحت على علم بكل أسرارنا؟ إن بعض الوزراء لا يعرفون من أسرارنا ما تعرفه موسكو . . من أين تتسرب هذه الأسرار؟

ـ إننا نبذل كل جهودنا لكشف الخلايا الشيوعية في البلاد يا صاحب السعادة . .

ـ إذا كنت قد أعفيت أحداً من «الأجانب» المقيمين في طوكيو من الرقابة فقد أخطأت يا عزيزي .

ـ إننا لم نعف أحداً يا صاحب السعادة . كلهم تحت المراقبة اللصيقة .

ـ عندي معلومات أن من يدعى «ايتو ريتسو» على علاقة بفتاة تدعى «أما ـ سان» هل وضعتها تحت المراقبة؟

ـ ايتو ريتسو ليس أجنبياً يا صاحب السعادة .

ـ حصل على الجنسية اليابانية منذ ثلاث سنوات فقط . افحص ملفه . . ثم . . ثم أن علاقته بالفتاة «أما ـ سان» تثير الريبة .

ـ إني أعرف بهذه العلاقة يا صاحب السعادة . فأيتو ريتسو يملك أشهر مطعم للدجاج في طوكيو . . و«أما ـ سان» من أسرة «شوزا كايي» الشديدة الإخلاص لصاحب الجلالة الامبراطور .

ـ وهذا ما يثير ريبتي . . لقد ذكرت أما ـ سان لأخيها وهو من أصدق أصدقاء ولدي أن ايتو ريتسو متحمس جداً للروس . . هذه علامة غير مطمئنة . .

قال المدير :

ـ سنضعه تحت المراقبة يا صاحب السعادة من اليوم .

كان ايتو ريتسو أحد أعضاء الخلية الجاسوسية التي يرأسها سورج . . وأسفرت الرقابة الدقيقة عن ميول الفتى الشيوعية الواضحة . . وحتى دون أي تدخل من المخابرات اليابانية كانت صديقته اما ـ سان تنقل إلى أخيها عن غير قصد كل ما يدور بينها وبين صديقها ايتو ريتسو من أحاديث . . قالت لصاحبها ذات ليلة وهو يناقشها في الفرق بين النازية والشيوعية :

ـ هل معنى هذا يا ايتو أنك تتمنى أن ينتصر ستالين على هتلر في هذه الحرب؟

في حماس قال لها:
ـ بالطبع يا حبيبتي، إن معنى انتصار النازية هو استرقاق كل من ليس ألمانياً . .
أما روسيا . ! النظام الروسي يا إما هو الأمل . .

ـ ولكننا حلفاء للألمان وليس للروس يا إيتو!

ـ وهذا خطأ سياستنا يا إما . . وعلينا نحن المثقفين أن نعدل من هذه السياسة .

ـ كيف؟

ـ بالدعوة إلى محالفة روسيا والخروج من محور برلين روما . .

ـ ايتو . . بصراحة . . هل أنت شيوعي؟

وضحك ايتو:
ـ شيوعي؟ . . كلا بالطبع . . هل ينقص حبك لي لو كنت شيوعياً؟

ـ أنت تعرف أنني أحبك؟ ولكني أعتبر امبراطورنا هو رمز بلادنا وصاحب كلمتها، ونصف اليابانيين يعتبرونه في منزلة الآلهة المقدسة . . إذا اكتشفت أنك شيوعي يا ايتو، فسأنتحر .

ونقل ايتو إلى سورج ما دار بينه وبين «إما» فقال له:
ـ كن على حذر . لا تقطع علاقتك بها على الفور . . ولكن يجب أن تقلل من مرات اللقاء .

ـ هل تظن أن المخابرات اليابانية تراقبني يا سورج؟

وضحك سورج
ـ أظن؟ أنت مراقب منذ ثلاثة شهور .

ـ ولا تخبرني يا سورج؟؟

ـ لم أرد أن أفزعك . . كن حذراً وتصرف طبيعياً مع إما . . هل تحبها؟

ـ أجل . ولكن ليس إلى درجة تعريض أعمالنا للخطر .

ـ حسنا. دع لي التصرف في هذه المشكلة.

ونسأل السفير ميسنر:

ـ وكيف تصرف سورج في المشكلة يا سعادة السفير؟

ـ لم يكن سورج من الذين يستخدمون العنف في أعمالهم.. ولهذا فأنا لا أصدق ما قيل بعد موت سورج، من أنه هو الذي قتل إما ـ سن.

ـ وهل قُتلت الفتاة المسكينة؟؟

ـ أجل. وجدوها ميتة في شقتها ولم تستطع المخابرات أن تنسب الجريمة إلى صاحبها ايتو ريتسو.. اعتقادي أن ايتو ريتسو هو الذي قتلها أو أوعز بقتلها.. كان إخلاصه لعمله أشد من إخلاصه لحبه..

ـ وريتشارد سورج؟

ـ بالضرورة جاء ذكره في الحديث الذي لم ينقطع بين وزير الدفاع ومدير المخابرات الجديد الذي أفضى لرئيسه بريبته في سورج:

ـ ريتشارد سورج؟ إنك تضحكني يا عزيزي أوجاكس.

ـ كان يتردد بانتظام على مطعم ايتو ريتسو.. الآن لا يقترب منه.

ـ وهذا طبيعي.. فسورج رجل لا يحب أن يكون موضع شبهة. إنه من رجال السفارة الألمانية وصحفي مرموق ومن أصدقائه الحميمين عدد كبير من الوزراء والقادة ورجال السياسة في بلادنا، فلماذا يسيء إلى سمعته بالتردد على مطعم غدا صاحبه موضع رقابتنا الواضحة بعد أن فتشنا بيته مراراً؟!

ـ يا صاحب السعادة. لقد علمتني أن لا أحد فوق الشكوك. خاصة الأجانب. أعرف أن سورج صديق للجميع.. ولكن اسمح لي بمراقبته.

وقبل وزير الدفاع أن يفرض مدير المخابرات رقابة لصيقة على ريتشارد سورج وقال:

ـ كما تشاء ولكن بحق السماء لا تفسد علاقتنا برجال السفارة الألمانية. واذكر أنه من أعز أصدقاء السفير الألماني «ميسنر».

ونعود ونسأل السفير الألماني..

ـ ألم يفطن سورج إلى الرقابة يا سيدي السفير؟

قال السفير

ـ علمت فيما بعد أنه كان يعرف أن المخابرات اليابانية بدأت تدس له في أحاديث الجميلات اللاتي كان يقضي سهراته معهن، بعض الأخبار الخطيرة والأسرار التي تأمل المخابرات أن ينقلها إلى الجهة التي يعمل لحسابها. ولكن سورج فطن إلى اللعبة.. ورغم أنهم راقبوه على مدار الساعة، فقد كان أحرص من أن يعطيهم أي سبب يؤكد شكوكهم فيه.. فتشوا داره خلسة في غيابه وغياب خادمه الياباني.. دسوا له ميكروفونات صغيرة قرب تلفونه ومع هذا فلم يصلوا إلى شيء..

ـ هل أدرك بأنهم فتشوا داره أو دسوا له ميكروفوناً؟

ـ سيدي.. سورج أذكى جاسوس عرفته الدنيا كلها.. كان أذكى من كل رجال المخابرات اليابانية.. وبالطبع أذكى من مخابرات بلده ألمانيا.. خدع الجميع كما خدعني رغم الصداقة.. ولكنه لم يحاول أن يخدع ستالين. كان يحب ستالين ويؤمن بالشيوعية إيماناً كبيراً.. وطالما حاول ستالين أن يقنعه بالعودة نهائياً إلى موسكو ليتولى منصباً كبيراً، خاصة بعد أن حقق أعظم انتصاراته في عالم الجاسوسية.. ولكنه كان يريد أن يستمر في عمله إلى ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. حيث عجز مدير المخابرات اليابانية السيد أوجاكي كازوشيجي عن الإيقاع بسورج، لجأ إلى اللعبة الأزلية.. لعبة الاستعانة بالعشيقة.

ـ ايشي هاناكا؟

ـ أجل. في حرص وسرية شديدين قابلها أثناء عودتها إلى البيت الذي اشتراه لها سورج في ضواحي طوكيو. . أفضى إليها بريبته في صاحبها. قالت لا تصدق ما سمعت:

ـ مستحيل. ريتشارد سورج جاسوس؟ إنك لا تعرف ريتشارد يا سيدي.

قال لها مدير المخابرات:

ـ لهذا لجأت إليك. أريد أن أعرفه عن طريقك. حدثيني عنه.

ـ لماذا لا تحدثه بنفسك؟ لن يخفى عنك شيئاً. إنه مثال الصراحة والأمانة.

ـ إنه يخدعك. . وحين تنتهي مهمته في طوكيو، سيغادرها ويتركك.

وبكت ايشي وقالت:

ءء كلا. لقد وعدني بالزواج بعد الحرب.

ـ ووعدته باعتناق الشيوعية؟

ـ سيدي. . أرجوك. . إنك تتهمه بقسوة.

ـ لأنه يخونك بقسوة أشد.

ولم تصدق. صاحت:

ـ يخونني؟؟ مع من؟

ـ ألست يابانية؟ كيف لا يخونك وهو يخون بلادك؟

ـ سأنتحر لو اكتشفت أنه جاسوس.

ـ إذن ساعديني لأعرف الحقيقة. . على الأقل ليطمئن قلبك إلى أنك وهبته لمن يستحقه.

ـ أرجوك. . أرجوك. . لن أتجسس على ريتشارد. سأنتحر قبل أن أفعل هذا.

ـ هل ذهبت معه إلى شقته المجاورة لمبنى المخابرات في شارع «ازابو ـ كو» رقم ٣٠؟

ـ كلا.

ـ ولماذا؟

ـ قال إنها لا تليق بي.

ـ ألا يحتمل أن تجدي في هذه الشقة الدليل على خيانته لبلادك؟

ـ أرجوك. لا تطلب مني أن أتجسس على حبيبي.

ويقول لنا السفير الألماني:

هل اقتنعت ايشي هاناكا بمنطق مدير المخابرات؟ هل ساورتها الشكوك في أن حبيبها يأوي في تلك الشقة التي لم تدخلها قط عشيقة سرية أخرى؟ أم أن المصادفة وحدها هي التي حققت لمدير المخابرات رغبته؟

سألناه بدورنا:

ـ وما رأيك أنت؟

ـ لست أدري.. وأغلب الظن أنها المصادفة.. لعلها المرة الوحيدة التي خرج سورج عن أسلوبه الحذر.. أو لنقل أن لكل جواد كبوة، وأن كبوة سورج كانت هي القاضية.

ـ وكيف حدث ذلك؟

ـ في مساء الثالث عشر من أكتوبر عام ١٩٤١ كانت ايشي مع سورج في سيارته الرياضية الأنيقة.. مر مصادفة أمام المبنى الذي فيه الشقة.. أوقف السيارة وقال لها:

ـ ايشي عزيزتي.. إن لي شقة في هذه البناية. سأصعد لأرتدي ثياباً تناسب سهرتنا الليلة وأعود على الفور.

وانتابتها الغيرة:

ـ ريتشارد.. أريد أن أرى هذه الشقة.

ـ الآن؟

ـ أجل.

ـ أعدك أن نقضي بها الليلة كلها بعد عودتنا من المسرح.

ـ من يعيش معك في الشقة؟

ـ لا أحد.. الطباخ الياباني يتركها بعد الخامسة ثم يعود في الثامنة صباحاً ليعد لي الإفطار.. سأصعد لحظة وأعود.

واشتدت غيرتها واستبدت بها الهواجس وأصرت على طلبها:

ـ أريد أن أرى الشقة.. الآن يا ريتشارد.. من يدريني أن بها صديقة جديدة؟

وضحك سورج وقال لها:

ـ من أدخل هذه الفكرة الحمقاء إلى رأسك؟؟ إنني لا أحب سواك يا إيشي.. ليس في قلبي غيرك.. أنت تعرفين هذا.

ـ لن أطمئن حتى أرى الشقة.

ـ سترينها الليلة بطولها بعد عودتنا من المسرح.

ـ بعد أن تصعد وتطلب إليها أن تغادر الشقة الليلة؟!!

ـ ايشي؟ ماذا جرى لك؟! لماذا لم تعودي تثقي بي؟

ـ أعد إلي الثقة بأن تدعني أرى أنه ليس بالشقة صديقة جديدة..

وضحك سورج وقال لها:

ـ حسناً.. لنصعد سوياً..

ولم يكن في الشقة أحد بالطبع. ارتدى سورج ثياب السهرة وبعد أن استمتعا بوقت طيب في أحد المسارح أراد أن يذهب بها إلى بيت الضواحي.. فأصرت على الذهاب إلى شقته بشارع «إزابو ـ كو».. عادت إليها ثقتها في

صاحبها بعد ليلة حب حالمة . . ولكنها في الصباح عثرت تحت المخدة مصادفة على ورقة صغيرة مطوية . . كانت بالشفرة . . الغلطة الوحيدة التي ارتكبها سورج . . في الصباح حملتها إلى مدير المخابرات الذي قال لها :

ــ أنت وطنية مخلصة يا ايشي هاناكا . . سورج جاسوس سوفيتي . . أنا آسف . .

في العاشرة صباحاً وقبل القبض على سورج دق جرس التلفون في شقته :

ــ ألو . .

وسمع صوت ايشي ضعيفاً متقطعاً :

ــ ريتشارد. لقد خنتك يا حبيبي . . سيقبضون عليك اليوم . . حاول أن تهرب . . لقد تناولت سماً سريع المفعول . . وداعاً حبيبي . . .

وصاح سورج كالمصعوق فقد كان يحبها حقاً :

ــ ايشي . . ايشي . . ايشي . .

ونسأل السفير ميسنر :

ــ وقبضوا عليه يا سيدي السفير؟

ــ ولم يحاول الهرب . . كان في انتظارهم حين دقوا عليه باب الشقة . . قال ببساطة :

ــ وما الفائدة الآن وقد ماتت؟ كان في استطاعتي الالتجاء إلى السفارة الألمانية ولكني لا أريد . . لقد أديت واجبي تجاه روسيا على أي حال . . ولم يعد لي رغبة في الحياة بعد موت ايشي . .

أذكر أنني كنت أتحدث معه ذات يوم عن أسلوب اليابانيين في قتل الجواسيس . . فقال لي :

ــ هل تعرف كيف يقتلونهم يا عزيزي السفير؟ ببطء . . ببطء شديد . . دون تعجل . . يلفون سلكاً من الصلب حول الرقبة ثم يحكمون الضغط على

الحنجرة . . ببطء يا عزيزي . . ببطء ودون عجلة . . المهم أن يتعذب المحكوم عليه بالإعدام أطول فترة مستطاعة .

ونسأل السفير:

ـ أتظنهم فعلوا معه هذا؟

قال السفير بعد لحظات من الصمت الحزين :

ـ هذا هو السر الذي لم يصل أحد إلى كنهه حتى الآن . هناك من يقول أنه ظل في سجون اليابان إلى أن أعدم شنقاً في التاسع من مارس عام ١٩٤٥ ـ وهناك من يؤكد أن ستالين أصر على أن يفرج عنه، لقاء التساهل في شروط الصلح مع اليابان بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية، وأنه لا يزال يعيش حتى الآن في موسكو وفي أتم صحة وعافية رغم كبر سنه .

ترى هل يرفع الستار عن الحقيقة في يوم من الأيام؟!!

ماري توشيه





أمعك سيجارة؟!



أمعك سيجارة ؟!

ليس أشق من عمل الجواسيس في زمن الحرب غير عمل المكلفين بضبطهم وكشف الستار عنهم. من العجب أن فناناً كبيراً وكاتباً مرموقاً مثل «اندريه مورا» الذي عرف برقة أسلوبه ورشاقة جمله وفيض إحساسات قلبه، قد عمل يوماً في أثناء الحرب العالمية الأولى كعضو في المكتب الثاني المكلف باكتشاف جواسيس الألمان. .

بأسلوبه الفذ يحكي لنا اليوم تجربة شخصية وقعت في يوم من أيام ديسمبر عام ١٩١٨.

أخفاها طيلة حياته. لم ينشرها في أي كتاب من كتبه العديدة، ولم يشر إليها في إذاعاته الأسبوعية الشيقة حين كان يقدم برنامجه الطريف «العباءة والخنجر» ولكنه دونها في يومياته التي نشرت بعد موته. .

لنسمع ما يقول الكاتب المبدع أندريه مورا. .

التخلص من النوازع الشخصية هي الصفة الأولى التي يجب أن تتوفر فيمن يعمل في ميدان مقاومة الجاسوسية. النساء والرجال يختارون هذا العمل لأسباب متعددة متباينة. بعضهم يرغب في حياة المغامرة والعيش على حافة الهاوية. . وآخرون من أجل المال، وغيرهم بدوافع وطنية حقيقية.

أما من يعمل في ميدان مقاومتهم فليس له غير دافع واحد: خدمة وطنه كما

يخدمها الجندي في ميدان القتال. . أعتقد أن هذا كان دافعي حين التحقت بالمكتب الثاني. . في أول الأمر راق لهم أسلوبي في تحرير التقارير. . ولكنهم لم يلبثوا أن عهدوا إلي بالعمل الجدي في الميدان. . وميدان مقاومة الجاسوسية واسع لا حدود له. . في البحر وفي الحقول وفي الملاهي وحتى في بؤر الخنا والفساد.

اندمجت في عملي وأعطيته كل جهدي وحققت نتائج باهرة جعلتهم يفكرون في ترقيتي رئيساً مساعداً للمكتب الثاني. . ولكن جاء علي وقت أحسست أنني على وشك الانهيار العصبي. قال لي رئيس المكتب.

ـ أندريه. أنت في حاجة إلى إجازة. . لماذا لا تستريح شهراً؟

ـ أستريح ونحن في قلب الجحيم؟ ماذا دفعك إلى هذا القول؟ هل رأيتم مني تقصيراً؟ هل. . .

قاطعني في رفق:

ـ يا عزيزي أندريه. ها أنت ذا تستثار لما لا يثير. لست أعني إلا أنك غدوت سريع الغضب، تدخن في شراهة. . أما عن عملك، فأنت تعرف أنني رشحتك مساعداً لي. .

ـ لا أريد الوظيفة. . من قال أنني أريد أن أرأس هذا العمل اللعين الذي يحطم الأعصاب؟!

فضحك وقال:

ـ ها أنت ذا تثور مرة أخرى!! ألا تحب عملك؟!

ـ هل تشك في هذا؟

ـ كلا بالطبع. إذا كنت تحبه كما يعرف الجميع، فالراحة ألزم لك من كل شيء. . لا تعاند. كفى تدخيناً بحق السماء. . هذه هي السيجارة الخامسة منذ بدأنا الحديث.

هدأت قليلاً وقلت له:

ـ لا أنكر أنني متعب جداً.. لا أنكر أيضاً أنني أرتكب بعض الأخطاء الصغيرة.. النوم يجافيني ولم أعد أحسن التركيز..

ـ إذن فاستمع إلى نصيحتي وخذ إجازة لمدة شهر.. سيفعل بك هذا الشهر الأعاجيب، وستعود إلينا كما عهدناك رزيناً هادئاً. وقليل التدخين أيضاً!

ـ والعمل؟

قال مرحاً:

ـ عجيب! هل تظن أن أحداً في الوجود لا يحل محلك؟؟
قيصر كان يظن ظنك هذا ثم ذهب فلم تسقط روما. نابليون كان...

ـ حسناً.. حسناً.. سآخذ إجازة.. ولكن بالله أين أقضيها في هذا الجو القارس؟!

ـ نحن على أبواب عطلة رأس السنة.. اذهب إلى الجنوب واقض أياماً حلوة هانئة بعيدة عن العمل.. المهم ألا تفكر في العمل إطلاقاً. أقض الشهر في استرخاء كامل...

ـ اقترح لي مكاناً أذهب إليه.

ـ ما رأيك في قرية «كارمو» في الجنوب؟!

ـ لم أزرها من قبل.

ـ حسناً. ها قد جاءتك الفرصة لتعيش شهراً في جنة أحلام كاتب مثلك..
حقول بديعة ونهر جار وشمس.. الشمس حتى في ديسمبر يا عزيزي أندريه..

ـ سأكتب لك من هناك.

ـ لا.. لا تكتب.. لا تفعل غير النوم والتنزه في الغابة والتجديف في النهر

الهادىء. . ومن يدري، لعل القدر يسوق إليك فلاحة شابة تسعد أيامك هناك. . هه؟ من يدري!

ارتد إلي هدوء نفسي ما أن نزلت بقرية «كارمو». أعجبتني جداً بحاراتها المتعرجة وشمسها الخجول في ديسمبر، وأشجار الكافور التي تقف عند مداخلها كأنما تحميها من الأعادي. . استأجرت غرفة في أحد فنادقها القليلة التي شيدت على طراز القرون الوسطى، غير أنك تجد بها الطعام اللذيذ والخدمة النظيفة. . بعد ثلاثة أيام أحسست كأني تلميذ صغير غادر المدرسة في أجازته الصيفية. في يوم كنت أتناول طعام الإفطار في حديقة الفندق الصغير. . فرأيت على مائدة قربي فتاة رقيقة هادئة جعلت كل همها إلى طعامها، تتناوله في رفق وأناة ورشاقة توحي بأنها ليست من فلاحات القرية. . كنت عزباً. . وفي إجازة. . والشباب يحملني على ما أبعدني عنه العمل في المكتب الثاني. . جعلت أراقبها فتحمر وجنتاها وترتعش أهدابها. . تجرأت ورفعت كوبي أحييها مع بسمة رقيقة. . وناديت الخادم وسألته عنها فقال همساً:

ـ اسمها «ماري توشيه» جاءت منذ أيام معها حقيبة واحدة وغير متزوجة.

قلت له:

ـ أرجو أن تذهب إليها وتخبرها أنه يسعدني أن أدعوها على كأس من الشراب. . لا تلح عليها إذا رفضت. .

ورأيتها تبتسم للخادم وهو ينقل إليها رغبتي ولا تتكلم. . ولكن نظرتها الباسمة إلي كانت حافلة بالوعود الوردية. . في لحظة كنت بجوارها على مائدتها الصغيرة. بعد ساعة أحسست أني أعرف ماري من زمن بعيد. . وتكلمت عن نفسها دون حرج:

ـ لقد ضقت بالحياة في قريتي لأنها قريبة من ميدان القتال. اتفقت مع صاحبة لي على قضاء إجازة رأس السنة في «كارمو» ولكنها تخلفت عني. . من يدري. لعلها توافيني بعد أيام.

سألتها:

ـ وما قريتك يا آنسة ماري؟

ـ هوميركور في شرق فرنسا.

ـ أهي جميلة مثل كارمو؟

ـ إنها قريتي وعلى هذا فهل أجمل مكان في الدنيا يا سيدي.

قلت لها:

ـ اسمي اندريه مارشاك.. ولا أمانع في أن تناديني اندريه وهذا شرف لا يناله الكثيرون.

فضحكت ضحكة صافية ليس فيها تصنع وسألتني دون حرج:

ـ وأين تعمل يا اندريه؟

وكذبت:

ـ في وكالة هافاس للأنباء..

قالت:

ـ أما أنا فقد تركت المدرسة الثانوية ولا أحب أن أفسد أيامي بالعمل في المكاتب.. لست ثرية ولكن أبي مزارع ميسور الحال.. وعلى هذا.. فها أنذا!!

لست في حاجة إلى أن أقول أن الشباب حملنا إلى ما يحمل إليه الفتاة والفتى.. نزهات رقيقة ناعمة في الغابة. جولات في الغابة. جلسات في الأوقات المشمسة على شاطىء النهر القريب من القرية.. لمسات مختلسة ونظرات حالمة واعدة. ما أكثر ما استأجرنا قارباً وذهبنا به حتى الغابة البعيدة.. نتكلم في أي شيء، ونصغي على الخصوص إلى همس قلبينا الشابين.. أقضى معها النهار كله فهي رفيقتي في الوجبات الثلاث في حديقة الفندق بالنهار.. وفي قاعة قرب المدفئة في المساء.. نسيت الحرب وعملي في المكتب الثاني وتركت حياتي كلها

تهدهدها هذه الساحرة اللطيفة الجميلة على أنغام الحب السعيد . .

عدنا مرة من النهر مرحين وهي تتوارى من المطر تحت معطفي ويدها حول خصري وتقول مرحة ضاحكة :

ــ أفي غرفتك مدفئة؟

ــ بالطبع .

ــ وفي غرفتي مدفئة أيضاً. لقد مللت العشاء في القاعة . .

ــ ما رأيك في أن نتناوله الليلة في غرفتي؟

ــ وما عيب غرفتي؟

ــ رائع . . سأطلب إلى الخادم أن يقدم لنا العشاء في غرفتك . . اصعدي وسأوافيك بها بعد لحظات .

وأكلنا . . وقبلتها للمرة الأولى . . دفعتني في رفق مستسلم وقالت:

ــ أمعك سيجارة؟

قلت لها :

ــ ماذا جرى؟ كنت تعيبين على المدخنين!

ــ لا بأس بواحدة الآن . .

ــ نسيت أن أشتري . . سأذهب أحضر صندوقاً . .

قالت :

ــ لا . . لا . . ستجد علبة في حقيبة يدي على المدفئة . . سأدخل الحمام أرتب شعري . .

ودخلت الحمام . . ما أن فتحت حقيبة يدها بحثاً عن علبة السجائر حتى رأيت فيها خطاباً. العنوان باللغة الألمانية . موجه إلى الآنسة «ماري توشيه» . . فجأة راودتني الشكوك . . أيمكن أن تكون ماري ألمانية؟ ولماذا كذبت وقالت إنها

فرنسية من قرية هـوميركـور؟ خلسة أخـرجت الرسـالة من المـظروف. . وبسرعة قـرأت أول السطور. . بـالألمانيـة أيضاً. . ثم أحسست بحـركتها وهي تعـود من الحمام فأغلقت الحقيبة. لحظت سهومي فقالت:

ـ أنـدريه. . مـالك سـاهم هكـذا؟ وجهـك شـاحب؟ أتحس شيئـاً؟ اجلس يـا عزيزي. .

قلت لها:

ـ أنا آسف يا ماري. من المستحيل أن أبقى.

قالت في دهشة:

ـ ولماذا يا أندريه؟ ماذا حدث؟

قلت وأنا أتحاشى النظر إليها:

ـ أرجوك لا ترغميني على أن أوضح لك. يكفى أنني لن أقوم بـواجبي. سأغـادر هذه الغرفة لمدة ساعة فإذا وجدتك في الفندق حين أعود فسأضطر إلى القبض عليك.

فازدادت دهشة وقالت كالذاهلة:

ـ تقبض علي؟ أي مزحة هذه يا أندريه؟

ـ ليست هذه مزحة يا ماري. وأرجوك مرة أخرى ألا ترغميني على أن أقـول لك أكثر مما قلت.

قالت غاضبة هذه المرة:

ـ بل أنا أصر على أن توضح لي.

ـ هـل يكفي أن تعلمي أنني لست أعمل في وكـالة «هـافاس» لـلأنبـاء، بـل في المكتب الثاني لمقاومة الجاسوسية؟

قالت:

ـ أندريه. . ماذا فعلت حتى تتهمني؟

ـ دعينا لا نضيع الوقت. لقد كنت بالغة الرقة واللطف معي. . ولا أنكر أنني أحببتك أيضاً ووضعت مشاريع كثيرة بشأن مستقبلنا معاً. ولكن انتهى هذا كله الآن. . وداعاً يا ماري وأرجو ألا يلقيك القدر في طريقي مرة أخرى. . يكفي أنني أخون واجبي. . وداعاً.

ودون أن أنظر إليها نظرة أخرى خرجت وأغلقت الباب خلفي حين عدت بعد ساعة لم أجدها. رحلت دون أن تترك أي أثر. . باستثناء علبة السجائر وتحتها ورقة صغيرة كتبت عليها.

«إذا نسيتني يا أندريه فاعلم أنني لا أستطيع أن أنساك. وداعاً».

عدت إلى باريس وكأن قلبي حجر ثقيل ألقي في بئر عميق لا يزال يغوص فيه ويغوص. . .

لماذا كتب في قدري أن أحب جاسوسة ألمانية؟! لماذا كانت ماري رقيقة لطيفة ولم تحاول أبداً أن تجرني إلى الحديث في أي موضوع يمس الحرب من قريب أو بعيد. . لعل في هذا عزاء لي على أنني لم أقبض عليها. .

ومرت الأعوام. . واقتربت الحرب من نهايتها وقد رقيت إلى منصب رئيس المكتب الثاني وجعلوا مقر عملي عند «سيدان». . في يوم سمعت ضجة قرب باب مكتبي. . ثم دخل غرفتي ثلاثة من الجنود وقال واحد منهم:

ـ معذرة يا كابتن. . لقد ألقينا القبض على امرأة قرب «سيدان» تحاول استدراج أحد الضباط للحصول على معلومات عسكرية. إنها بالخارج مع الجنود. أتحب أن تستجوبها؟

قلت له:

ـ أجل. . أدخلوها.

ودخل الجنود وبينهم فتاة. . ماري توشيه!!! صاحبة أجمل أيامي في قرية «كارمو». . ها قد ألقتها المقادير في طريقي مرة أخرى. . ما أسوأ حظي وحظها؟

أي فارق بين تلك الأيام السعيدة في قرية كارمو وهذه اللحظة التي تقف فيها أمامي ماري بتهمة عقوبتها الرمي بالرصاص!! وسألت الجنود الذين قبضوا عليها عن الحادث فقال رئيسهم:

ـ كنت يا سيدي الكابتن في حانة «العصفور الأزرق» عند مشارف سيدان. وكانت هذه المرأة تحاول استدراج أحد ضباطنا للحصول على معلومات عسكرية. إدعى الضابط حين راودته الشكوك فيها، أنه مخمور حتى أدرك من أسئلتها أنها جاسوسة ألمانية فاتصل بنا فقبضنا عليها.. فتشناها ووجدنا معها هذه المفكرة الصغيرة..

كانت المفكرة تحوي دليل إدانتها الدامغ.. أرقام وأسماء الوحدات الفرنسية عند سيدان.. وقفت ماري أمامي رافعة الرأس وعلى شفتيها بسمة حزينة ولكنها متعالية.

قالت في صوت حزين:

ـ إنها الحرب يا كابتن.. كل شيء مقدر. وكل شيء جائز في الحرب، وفي الحب أيضاً!!

قلت لها وأنا أتحاشى النظر إليها:

ـ أتعرفين أيتها السيدة أن تهمتك لا عقوبة لها إلا الإعدام رمياً بالرصاص؟

ـ أعرف يا سيدي..

ـ أليس عندك ما تدافعين به عن نفسك؟

ـ ليس عندي غير ذكريات أيام ديسمبر ماض في قرية صغيرة حالمة.. كنت فيها صادقة مع نفسي ومع.. ومع الناس...

ـ لا أعرف أن هذا الدفاع ينقذك يا سيدتي من المصير المحتوم.

وتندى صوتها بالدمع وهي تقول:

ـ وأنا أيضاً لسوء الحظ أعرب ذلك . .

ـ خذوها إلى السجن الحربي . . ستقدم إلى المحاكمة العسكرية في الصباح .

وقضت المحكمة العسكرية على «ماري توشيه» بالإعدام . . عند العصر . . وقفت أمام فرقة النار في شجاعة رغم الدموع التي كست وجهها . سألوها عن رغبتها الأخيرة ، فقالت :

ـ لعلي في حاجة إلى سيجارة . . ترى هل يرضى الكابتن أندريه موروا أن يقدمها لي بيده . .

وأخبروني برغبتها . فخرجت إلى الساحة الحزينة . . وقدمت لها السيجارة بيد مرتعدة وأشعلتها . . همست :

ـ يكفيني منها نفس واحد . . لي رجاء يا أندريه . . احتفظ بباقي السيجارة ذكرى لمن أحبتك؟

قلت لها بصوت مرتعش النبرات :

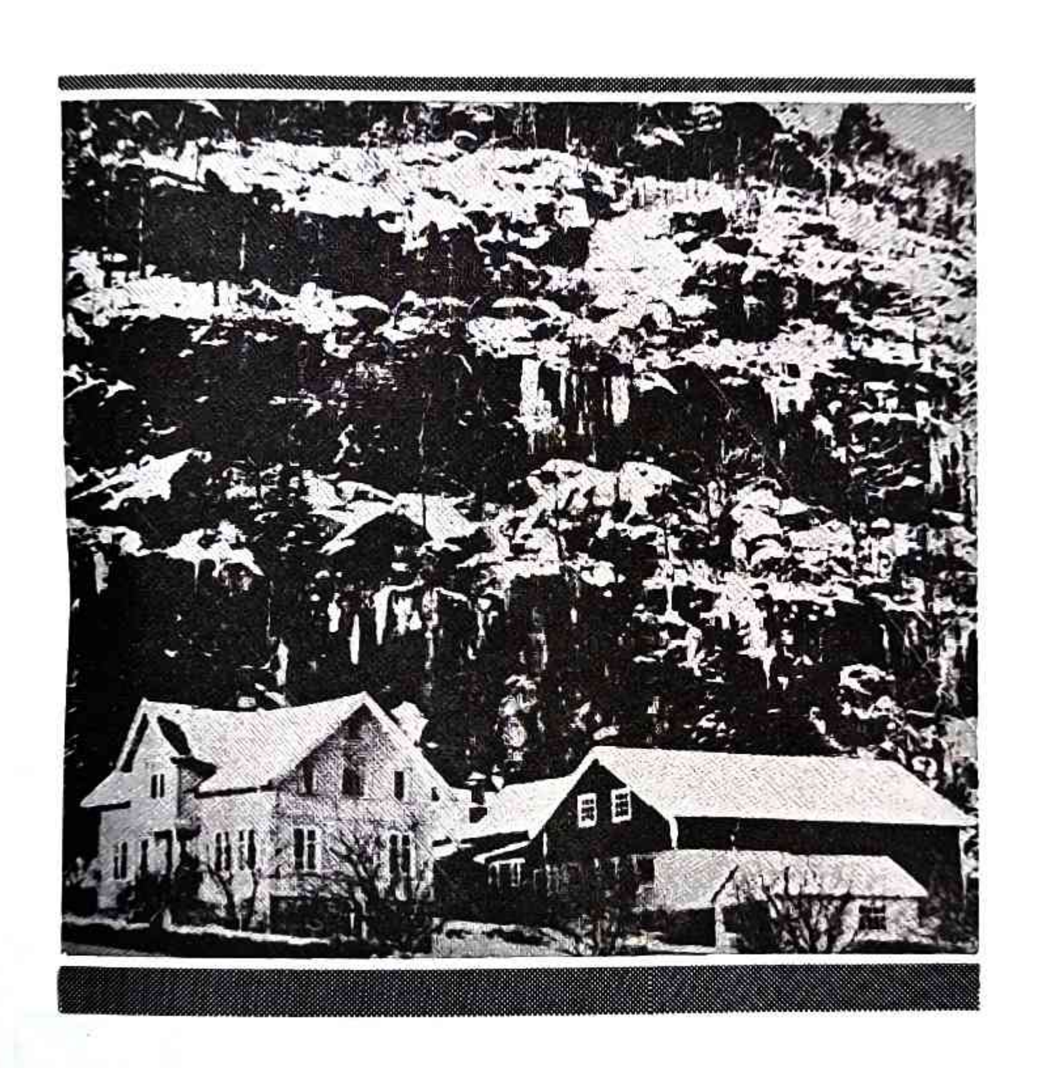
ـ سأفعل يا ماري . . وداعاً . . .

ما أكثر ما أفيق من نومي فزعاً . . حتى بعد أن صرت شيخاً في السبعين . . وصورة ماري توشيه تتمثل أمامي بقميصها الأزرق الذي أحببته عليها في تلك الأيام السعيدة في قرية «كارمو» !

جونفالد تومستاد



أغلى من الحياة



أغلى من الحياة

سلكه مؤرخو بلاده في عداد أبطال التحرير.

شاب نرويجي هادىء رقيق الكلمة. . اختار أصعب الطرق لتحرير بلاده.

لطخ ـ عن عمد ـ شرفه واسم أسرته ومستقبله، بعار الخيانة كي يتمكن من خديعة أعداء بلاده ويضرب بسهم وافر في تحريرها.

لنذكر الاسم وليذكره معنا كل محبي الحرية على طول دنيانا وعرضها.

جونفالد تومستاد.

مزرعة «تومستاد» في قرية هيل الواقعة في حضن سلسلة جبال «أوترسن» بالنرويج. . الفتى «جونفالد تومستاد» ابن الخامسة والعشرين يتفقد الأربعين فداناً التي ورثها من أسرته. . ثم يسرع إلى بيته يتقي الريح المثلجة في ليلة عيد الميلاد الخامس والعشرين من ديسمبر عام ١٩٤٠ ليجد في انتظاره صديقه القديم «أولي سفندسن»

وتبادلا تحية العيد ثم انتقل الحديث إلى الاحتلال الألماني لبلادهم العزيزة النرويج. . وفجأة قال «أولي»:

ــ توم. ألم تفكر في الانضمام إلى المقاومة السرية ضد الألمان؟

ــ جاء هذا إلى خاطري يا «أولي» مراراً. . ولكني قلت لنفسي «وماذا أستطيع أن أؤدي للمقاومة من بلدتي هذه البعيدة»!

ـ تستطيع أن تفعل الكثير. .

ـ كيف؟

ـ ألم تفاخرنا منذ سنوات بأنك ماهر جداً في الاتصالات اللاسلكية؟ ألم تصنع يوماً بأدوات بسيطة جهاز إرسال واستقبال؟

ـ هذا صحيح . . أيفيد هذا بشيء؟

ـ أجل.

ـ هنا في هذه المزرعة النائية؟

ـ في هذه المزرعة النائية على وجه الخصوص.

ـ وما هي مهمتي؟

ـ لن أتكلم حتى تقول نعم أو لا .

ـ نعم بالطبع. ولكن لي سؤال بالغ الأهمية.

ـ فقل.

ـ من الضروري أن تعتمد فرق المقاومة السرية على معاونة جدية من الحلفاء. . هل تحصلون على تلك المعاونة؟

ـ أجل. . إننا على اتصال دائم بلندن باللاسلكي وتصلنا شحنات الأسلحة والمفجرات بانتظام. ولكن وجود أجهزة الاتصال في المدن والقرى الكبيرة يعرضها دوماً للاكتشاف. . هل فهمت ما أعني يا توم؟

ـ أجل. تريد أن تقيم في مزرعتي مركزاً للاتصال اللاسلكي بلندن، أتولى أنا إدارته.

ـ أنت وحدك ولا أحد معك. . أنت معروف في المنطقة كلها بالرزانة وقلة الكلمة والعزلة والابتعاد عن السياسة. . إن هذا يبعد عنك الشبهات ولن

يفكـر الألمان بـأن في هذه المزرعة النـائية النـائمـة في حضن الجبـال، مـركـزاً للاتصال اللاسلكي بلندن.

ــ حسناً. موافق. وسأشرع من الغد في صناعة جهاز لاسلكي جديد. . .

ــ لا داعي لهذا. . الجهاز في سيـارتي. وما دمت قـد وافقت فيلزم أن نعمل عـلى الفور على وضعه في أحد مخازن الغلال بـالمزرعـة والبدء بتشغيله. . إنـه جهاز قوي وممتاز أمدتنا به لندن.

ــ لنخرج الجهاز من السيارة يا عزيزي «أولي»

بعد ساعة كان توم وصديقه «أولي» يتصلان بالمحطة الرئيسية في لندن.

ــ سأتسلل إلى مزرعتك يا عـزيزي تـوم كلما لزم الاتصـال بلندن وأيضـاً لأعرف التعليمات من القيادة أولاً بأول.

ــ ستجدني في انتظارك بكل ما تريد يا صديقي.

ومـرت شهور أربعـة، وتمكن الجتسـابـو من اكتشـاف عـديـد من مـراكـز الاتصال اللاسلكي التي أقامتها المقاومة السرية في بعض المناطق البالغة الحساسية من الناحية العسكرية. . وظل المركز الذي يتولى أمره الفتى الهادىء الرقيق القليل الكلمة جونفالد تومستاد، خافياً على ذئاب الجستـابو. . في يـوم اجتمع في مخـزن الغـلال حيث جهاز الـلاسلكي العتيـد، ثـلاثـة من رجـال المقـاومـة، بـزميلهم توم. . . كان الحديث هذه المرة أكثر خطورة. .

ــ لنـدن تطالبنـا بمعلومات أكـثر دقة كي تحسن تـوجيه ضربـاتها الجـوية للمـراكز العسكرية الحساسة تمهيداً لغزو يطهر بلادنا من دنس الاحتلال الألماني. .

ــ لقد وقع في قبضة الجستابو عدد كبير من رجالنا الذين يتسللون إلى معسكراتهم ومراكز تجمعهم. . ابن عمي «الفريد كـروفر» كـان يعمل في مصـانع السـلاح التي أقاموها عند «برجن» وكان يمدنا بالمعلومات المناسبة. . وسألهم توم:

ـ كان؟

ـ كان. قبضوا عليه منذ أسبوع وأعدموه رمياً بالرصاص.

ـ يجب أن يتطوع واحد من رجال المقاومة للالتحاق علناً بالفرقة المتعاونة مع الألمان. هذه هي الوسيلة الوحيدة للوصول إلى ما نريد من معلومات..

ـ من يرضى لنفسه بأن يقال عنه إنه «متعاون» مع أعداء بلاده؟

وقال أولي:

ـ إنها لوصمة عار.. ولكني على استعداد لأن أحمل هذا العار من أجل بلادي..

قال توم:

ـ إنك لا تصلح لهذا يا صديقي «أولي» لست حريصاً بما فيه الكفاية..

ـ سأبذل جهدي.

ـ وتعرض الجميع للموت؟ إن هؤلاء الشياطين يعذبون أسراهم حتى يقروا بكل شيء.. إذا انكشف أمرك لقلة حرصك فسيعذبونك عذاباً رهيباً.. إنك لا تعرف ما فعلوا بابن عمي ألفريد قبل أن يقتلوه رمياً بالرصاص..

وعاد توم يقول في إصرار:

ـ اعتقد أنني أصلح الجميع للقيام بهذه المهمة.

ـ توم.. هل تعرف خطورة ما تتعرض له؟

ـ أعرف.. ما أن ألتحق «بالفرقة المتعاونة مع الألمان» حتى يصمني أهالي النرويج بوصمة عار الخيانة. سينبذني الجميع، وسأغدو أبغض إليهم من الشيطان نفسه..

ـ وإذا اكتشف الألمان أمرك فهو العذاب الرهيب ثم الموت أمام طابور النار..

ـ إنني على استعداد لتقبل هذه التضحية من أجل بلادي. لست أدعي البطولة ولكني أعتقد أنني أصلحكم جميعاً لهذه المهمة.

وكان عميل الألمان الأول في النرويج هو رئيس وزارتها «كويسلنج» الذي صار اسمه في العالم كله رمزاً على الخيانة والعمالة للمحتل. . كون ذلك الخائن للحرية ولقومه فرقاً حملت اسمه وأطلقت على نفسها «الأبناء التقدميون» وهدفها الأول التمهيد للنظام النازي وتمكينه من مقدرات البلاد ومن استغلال الثروات الطبيعية في النرويج لصالح ألمانيا النازية. . بعد أيام من حديث «جونفالد تومستاد» مع أصدقائه نراه يدخل المقر العام لفرق «الأبناء التقدميين» ويبدي لوكيلها العام رغبته في الالتحاق بتلك الفرق. قيل له:

ـ وما يدفعك أيها الفتى إلى الالتحاق بفرقتنا؟

ـ إيماني الذي لا يتزعزع بأن مستقبل بلادنا العزيزة يرتبط ارتباطاً أبدياً بمستقبل ألمانيا النازية حليفتنا العظيمة.

ـ لعلك تعرف أننا لا نقبل في فرقنا كل من هب ودب. لا نريد في صفوفنا إلا المتحمسين لمبادئنا العظيمة التي شرحها للشعب أكثر من مرة في خطبه وكتبه ونشراته زعيمنا الرئيس كويسلنج.

ـ سيدي. . لقد قرأت أكثر هذه الكتب والنشرات ولا شيء مما تنبح به الإذاعات الإنجليزية يثنيني عن عزمي على الإلتحاق بفرق «الأبناء التقدمين».

ـ حسناً. أجب على الأسئلة المدونة في هذه الورقة ثم وقع بإمضائك على طلب الإنضمام. لا أعدك بشيء إذ يلزم إجراء أدق التحريات عما جاء في إجاباتك عن الأسئلة. . وبعدها سنخطرك بما يتم. أكتب عنوانك بوضوح.

بعد أيام صار «جونفالد تومستاد»، الفتى الوديع الرقيق ذو الكلمة القليلة، عضوا في الفرق البغيضة إلى قلب كل نرويجي حر. . ومع مرور الأيام أصبح أشد أعضاء تلك الفرق تعصباً لمبادىء كويسلنج وأعظمهم حماساً للتعاون النرويجي النازي. . ولم يعد يسمع في حله وترحاله من قريته إلى أقرب مدينة سوى

الإهانات ممن كانوا ينزلونه من أنفسهم من قبل منزلة الصديق والجار الطيب. . كانوا يقولون عنه:

ـ اللعنة على جونفالد تومستاد»، لقد صار نازياً أشد حماساً من هتلر نفسه.

فإذا سئل عن هذا العار الذي لطخ به ماضيه واسمه وشرفه وشرف قريته «هيل»، قال في غموض.

ـ لكل اعتقاده. . . وأنا أرى أنكم على خطأ كبير في ظنكم أن الحلفاء سيكسبون هذه الحرب، وأعتقد عن يقين أن مستقبل النرويج سيكون مع ألمانيا وليس مع انجلترا. وإذا كنتم ترون في عضويتي في فرق «الأبناء التقدميين» عاراً وخيانة، فإنكم أنتم في نظري الخونة والملطخون بالعار لمجرد الظن الحسن.

وصار من أقطاب فرق «الأبناء التقدميين». وأصبح من حقه التردد على مكاتب الجستابو. . ومرت تحت ناظريه عشرات الأسرار الخطيرة التي كان يسارع بنقلها إلى لندن عن طريق جهاز اللاسلكي الكامن في مخزن الغلال في ضيعته الهادئة الساكنة. . لم تتحرك نحوه شكوك الجستابو يوم أعدمت المقاومة السرية أحد عتاة المتعاونين مع النازي. . ولا يوم أصابت قنابل الطائرات الإنجليزية مصانع أنتاج «الماء الثقيل» إصابات مباشرة مؤثرة. . ولا يوم جرت محاولة اغتيال «كويسلنج» رئيس الوزراء الخائن وهو ذاهب لزيارة إحدى قطع الأسطول النازي الراسي في خليج «سكيجراك».

أما في يوم السابع والعشرين من مايو ١٩٤١ فقد ثارت شكوك الجستابو في كل نرويجي كيفما كانت هويته السياسية. . ففي ذلك اليوم أُغرقت البارجة الألمانية «بسمارك» في عرض البحر. . قال له صديقه «أولي» قلقاً:

ـ توم. هل أنت واثق من أن رسالتك اللاسلكية إلى لندن عن خروج البارجة بسمارك من ميناء «فارستد» لم تلتقطها المخابرات الألمانية؟

ـ اطمئن يا صديقي أولي. لو أنهم التقطوها لما خرجت البارجة بسمارك لتلقى

حتفها. . ولكانوا الآن يحيطون بهذا المخزن بحثاً عن جهاز الإرسال.

ـ كن حذراً. . صحيح أنك خدعت الجميع. . ولكن ماذا لو التقطوا أية رسالة لك بعد الآن؟ انهم يفتشون كل مكان دون تمييز بحثاً عن جهاز اللاسلكي الذي أفشى سر خروج بسمارك. . غرق تلك السفينة بمن كان عليها أصابهم بالهلع ففقدوا عقولهم تماماً.

ـ اطمئن يا عزيزي. . إذا ثارت شكوكهم في الجميع، فلن يشكوا في صديقهم المخلص «جونفالد تومستاد» العضو البارز في فرق «الأبناء التقدميين».

وسواء أكان «تومستاد» من فرق الأبناء التقدميين أو لم يكن فإن الجستابو، بعد غرق بسمارك وما أحدثته تلك الكارثة البحرية من ذعر في الموانىء النرويجية التي كانت تستخدم ملجأ للأسطول الألماني، شرع في تمشيط المدن الساحلية والقرى تمشيطاً دقيقاً بحثاً عن أجهزة اللاسلكي التي تنقل إلى الإنجليز أدق التحريات العسكرية الألمانية. . لهذا لم يكن غريباً أن يجد الفتى «جونفالد تومستاد» فصيلة من الجستابو تهبط قرية هيل وتفتش ضياعها وبيوتها ولا تعفي ضيعته من هذا التفتيش.

استقبل فرقة التفتيش في ضيعته بابتسامة مرحة مرحبة:

ـ أهلاً بكم أيها السادة في ضيعتي. . سأضع تحت تصرفكم كل إمكانات فرق «الأبناء التقدميين» لنصل بسرعة إلى أعداء البلاد.

ـ معذرة لاضطرارنا إلى تفتيش بيتك ومخازن الغلال عندك يا هر تومستاد. .

ـ تعتذرون عن أداء الواجب أيها السادة؟ إني أصر على أن تبدؤا ببتي. . تفضلوا. .

ودخلوا الدار الواقعة في حضن الجبل. .

واجهتهم في القاعة الكبيرة صورة هتلر في مقام الشرف من الحائط وتحتها صور أخرى «لكويسلنج» زعيم فرق «الأبناء التقدميين» وعلى المائدة الكبيرة علم

ألمانيا النازية. . وعلى حائط السلم المؤدي إلى الطابق الثاني صور جميع أعضاء الحزب النازي الألماني في إطارات أنيقة. . جورنج وهملر وريبنتروب. وقال قائد فرقة التفتيش مرحاً:

ـ إنك كما سمعت عنك يا هر تومستاد شديد الإخلاص للفوهرر. . هايل هتلر!!

في حماس صاح الفتى:

ـ هايل هتلر. سيدي الكولونيل. . إن أسعد ساعات حياتي هي تلك التي ارتديت فيها سترة «الأبناء التقدميين» المخلصين للنرويج وللفوهرر.

ـ حسناً. حسناً. . هذا يسعدنا دون شك. . هيا يا رجال. . ليس عملنا هو تفتيش دور المخلصين للحزب. أمامنا أعمال أخرى في بقية دور القرية. .

ـ كولونيل. . إنني أصر على تفتيش الدار ثم بقية الملاحق والمخازن وأجران الغلال. . من يدري. . ألا يحتمل أن يكون أحد هؤلاء الملاعين أعضاء المقاومة السرية قد أخفى فيها شيئاً؟

ـ إن هذه مهمتك منذ الآن يا هرتومستاد. . أنت مكلف من قبلي بالإبلاغ عن أية تحركات مشبوهة في القرية وما حولها. . إننا نثق بك يا هر تومستاد.

كان تومستاد يعرف بخبرته أن رجال الجستابو يقولون عادة ما لا يعنون، ويعنون ما لا يفصحون عنه حتى لأشد الناس إخلاصاً لهم. . لهذا كان يتوقع أن تعود فرقة التفتيش في أي وقت وعلى حين غرة. . يجب إذن أن يبعد أذهانهم عن قرية «هيل» وعن فرق المقاومة السرية فيها. .

قال له صديقه أولي سفندسن:

ـ توم. يجب أن تكون أكثر حرصاً. . مجرد إقدامهم على تفتيش دارك علامة سيئة. . لقد بدؤا يفقدون ثقتهم فيك.

قال له توم:

ـ أعرف يا عزيزي أولي.. ولهذا يجب أن أبالغ في إظهار ولائي لهم.. كما يجب تضليلهم وإبعاد ذئاب الجستابو عن المنطقة كلها.

ـ كيف؟

ـ سأستخرج جهاز اللاسلكي من مكمنه في مخزن الغلال ثم إذهب به في حقيبة خاصة إلى الجبال حيث أعمدة الكهرباء ذات الضغط المنخفض. سأتسلق أحد هذه الأعمدة وأصل جهازي بأسلاكه وعن طريقه أرسل سيلاً من الرسائل المضللة كأنها مرسلة من منطقة الجبال إلى المحطة الرئيسية للمقاومة السرية في لندن.. بهذا وحده يبتعد الجستابو عن منطقة هيل.

ـ إذن يجب أن تختار منطقة ليس بها مراكز للمقاومة يا توم حتى لا يقع رجالها في قبضة الجستابو إذا فتشوا بيوتهم..

ـ اطمئن يا عزيزي أولي.. أولي.. لي رجاء.

ـ ماذا؟

ـ قد يقبض علي في أية لحظة.. ومن المؤكد أن الألمان ساعتها لن يرحموني.. فأرجوك عندها أن تطلع أمي على الحقيقة كلها.. لا أحد إلا ثلاثة من أصدقائنا يعرفون بما أفعل من أجل بلادي..

وحمل جهازه في حقيبة وشرع يتسلق الجبال الثلجية المحيطة بالقرية ثم يتجاوزها حتى منطقة «سولاند» المقفرة. في حذر تسلق أحد أعمدة الضغط الخفيف ثم روع الجستابو بسيل من الرسائل الوهمية على مدى أربع وعشرين ساعة.. وحين عاد إلى قريته «هيل» كان رجال الجستابو قد غادروها إلى منطقة «سولاند» بعد أن حددوا مصدر تلك الرسائل. وجد أمه في انتظاره بالضيعة:

ـ توم.. لم أكن أريد أن أزورك أو أحدثك أو حتى أراك.. أنت تعرف لماذا؟

ـ أماه. إذا كنت تعنين عضويتي في جماعة «الأبناء التقدميين» فأرجو أن يطمئن قلبك إلى إخلاص ولدك لبلاده.

في غضب قالت الأم:

ـ إخلاص؟ تتكلم عن الإخلاص!! «يا جونفالد تومستاد» وأنت ضالع مع الألمان أعداء بلادك تعاونهم وتقف مزهوا بالسترة العسكرية النازية وهم يسوقون شبان ورجال القرى والمدن إلى الإعدام أو إلى مراكز السخرة؟! انظر إلى وجهي ثم تكلم بعد ذلك عن الإخلاص يا جونفالد تومستاد. لقد كرم الله أباك بأن أماته قبل أن يرى هذا العار الذي جلل هامتك.

ـ أماه.. المستقبل للألمان وليس للإنجليز.. ومع الألمان مستقبل بلادي. وعلى المرء أن يسبح مع التيار لا ضده.

ـ الأم لا تلعن ولدها قط.. فدعني أغادر هذا الدار قبل أن ينزلق لساني باللعنات..

في انفعال عاطفي قال الفتى لأمه الغاضبة:

ـ أماه.. هل.. هل رأيت ولدك خائناً من قبل؟

ـ هاأنذا أراه أمامي لأول مرة يخون بلاده.

ـ لا يا أماه.. إنني.. إنني.. يا إلهي.. لا أملك إلا أن أقول لك.

ـ تقول ماذا يا جونفالد؟

ـ أماه.. أنا لست مع الألمان.. إنه دور أؤديه للوصول إلى المعلومات.. إنه ثمن الحرية يا أماه أدفعه من شرفي ومستقبلي واسم أسرتي.. هل فهمت الآن؟

وألقت الأم نفسها بين ذراعي ولدها وهي تبكي قائلة:

ـ جونفالد يا ولدي المسكين. لقد أوشكت خيانتك أن تقتلني بعد أن أذللت رأسي وسط الناس.. الآن أدرك كل شيء.. جونفالد.. إنه ليسعدني حقاً

أن أكون أمك . .

أدركت الأم مدى تضحية ولدها وسكتت . . وحين عادت إلى قريتها وسألها الناس عما دار بينها وبين ولدها فقالت؟

ـ لم يعد جونفالد تومستاد ولدي . وإذا تكلمتم معي عنه فكأنما تتكلمون عن شخص غريب بالنسبةلي .

وعاد جهاز اللاسلكي الخطير في مخزن الغلال في ضيعة الفتى جونفالد تومستاد، يرسل بمعلوماته البالغة الخطورة يوماً بعد يوم . . وتدك الطائرات البريطانية الأهداف العسكرية الألمانية في النرويج المحتلة في دقة مثيرة . . ويصيح قائد الجستابو في النرويج في مساعده :

ـ هذه الطائرات اللعينة تعرف أهدافها كأنما تعمل وفق خرائط محددة . .

ـ يجب القضاء على الجواسيس المنتشرين في كل مكان .

ـ لا . ليس هذا عمل الجواسيس . . إن هذا عمل شخص يتمكن من الوصول إلى أدق أسرار الجيش الألماني وهو آمن . . مخازن البترول التي ضربت في دقة متناهية أول أمس كانت مدفونة في أعماق الجبال الثلجية ومحاطة بسرية كاملة . . كيف عرف الإنجليز بمكانها؟

وكون الألمان بالاشتراك مع فرق «الأبناء التقدميين» مجموعة من الجستابو مهمتها التسلل إلى مكامن المقاومة السرية . قالوا له :

ـ ملازم جونفالد . . إنك أشد «الأبناء التقدميين» إخلاصاً للنظام النرويجي النازي . . ولقد أبلغنا الفوهرر بما تبديه من إخلاص ولا أستبعد أن تحصل على وسام في عيد الميلاد القادم . . ولهذا فقد عهدنا إليك بقيادة مجموعة الجستابو التي ستقوم بالكشف عن الخونة المناهضين للنظام وعلى الخصوص معرفة مكامن المقاومة السرية وأجهزتها اللاسلكية التي تنقل بها أخبارنا إلى العدو . .

ـ إن هذا يشرفني يا سيدي الكولونيل . . سأبدأ في العمل على الفور . .

ـ أنا واثق لمعرفتك بالطرق الجبلية السرية من أنك ستنظف تلك المناطق

الوعرة من رجال المقاومة . .

ـ سأكون عند حسن ظنك يا سيدي .

على مدى شهور ستة وفرقة «جونفالد تومستاد» تعمل في المنطقة الجبلية ويكثر حصادها في دهاليز المبنى الرئيسي للجستابو في «أوسلو» ولم يكن جونفالد ينتقي «ضحاياه» إلا من الخونة الموالين فعلا للعدو الألماني وإن أخذوا في مجتمعهم صفة المخلصين الوطنيين . . وبقدر ما زادت ثقة الألمان به ، زاد بغض الأهالي له . . وكثر ثناء قائده عليه :

ـ نشط جداً هذا الفتى جونفالد . من كان يظن أن هؤلاء الرجال الذين كنا نعتقد بولائهم لنا ، يعملون ضدنا؟

وعبثاً حاول المقبوض عليهم إثبات ولائهم للألمان . . ولكن كيف وأجهزة اللاسلكي المضبوطة تشير إليهم بأصابع الإتهام إشارات قاتلة . . وارتفع نجم الفتى جونفالد في قيادات الجيش الألماني ومكاتب الجستابو ، ولم يكونوا يعلمون أن صاحبهم الهادىء الوديع القليل الكلمة الشديد الإخلاص للحزب النازي وراء كل ما يصيبهم من كوارث عسكرية في النرويج . .

وظل الجهاز اللاسلكي الخفي يعمل عمله الرهيب من مخبأه في ضيعة هيل . . وظلت الطائرات الإنجليزية تنتقي أهدافها بدقة بارعة . وقال له قائد الجستابو :

ـ ملازم تومستاد . . لا يزال الجواسيس الملاعين ينقلون أسرارنا إلى الإنجليز باللاسلكي . .

ـ إنني أوشك يا كولونيل على أن أضع يدي على خلية بالغة النشاط أعتقد أنها وراء الخيانات الأخيرة .

ـ من المؤسف يا تومستاد أننا سنخسر نشاطك هنا بعد أسابيع قليلة . .

في توجس قال توم :

ـ ولماذا يا كولونيل؟ هل تشكون في ولائي للحزب؟

ـ لا. . لا. . العكس هو الصحيح تماماً. . لقد قررت القيادة العسكرية في النرويج ترقيتك إلى رتبة الكابتن وإلحاقك بالفرق المحاربة في جبال «نارفيك». يقال أنك أعلم الناس بمسالك تلك الجبال. .

ـ في الفرق المحاربة؟ تعني أنني لن أعمل بعد ذلك في خدمة الجستابو؟

ـ هذه خسارة فادحة لنا، ومكسب كبير للجيش العامل. . استعد للرحيل إلى الجبهة بعد أسبوع يا عزيزي تومستاد.

وكان يجب أن يخرج من هذه الورطة بأي ثمن. . واستشار صديقة له، شريكة هي الأخرى في نشاط المقاومة السرية. «صوفي روفيك» وكان بينهما علاقة أقرب إلى الحب منها إلى الود بين الزملاء. قالت له:

ـ لا أرى إلا أن «تنزل» معنا تحت الأرض.

ـ وأفقد فرصة إرسال أدق الأسرار الألمانية في النرويج إلى الحلفاء؟! كلا. يجب أن نبحث عن حل. عن وسيلة أتخلص بها من الذهاب إلى الجبهة.

وقالت صوفي مرحة:

ـ إنك أليق الناس للخدمة العسكرية يا عزيزي توم. . صحة ورشاقة وقوة وشباب. . ووسامة أيضاً. لو أنك. .

قاطعها فجأة:

ـ صوفي. . لقد وجدتها. . وجدت الوسيلة.

ـ وما هي؟

ـ ستطلقين الرصاص على ذقني. . سأدخل المستشفى للعلاج ويقرر الأطباء أنني غير صالح للخدمة العسكرية.

ـ هل جننت يا توم؟ تشوه وجهك من أجل البقاء في صفوف الجستابو؟

ـ إنها الوسيلة الوحيدة.

وأبت «صوفي» أن تفعل ما طلبه إليها الفتى الذي تحبه. . ولكنها قبلت في النهاية أن تلقي به من مرتفع فيصاب ببعض الرضوض التي ينقل بسببها إلى المستشفى حيث يقرر «الأطباء المخلصون» أنه غير صالح للخدمة. . ولكنه لم يكد يفلت من هذه المصيدة حتى فغر الخطر الداهم فاه من جديد. . قال له رئيس الجستابو ذات يوم:

ـ تومستاد. . هل تعرف أننا على وشك الوصول إلى ذلك الجاسوس الذي عنّانا زمناً طويلاً. . الجاسوس صاحب جهاز اللاسلكي الخفي!

ـ حقاً؟ وكيف؟

ـ لقد وقع في أيدينا أحد رجال المقاومة السرية. . بعد أن تكفل به «رجالنا» الأشداء وأذاقوه جرعات من أسلوبنا الساخن في الاستجواب. . بدأ يتكلم.

ـ وما اسم ذلك الرجل؟

ـ يدعونه «أولي سفندسن». . هل تعرفه يا جونفالد؟ لقد امتقع وجهك فجأة!

ـ ذلك أنني لم أشف تماماً من الرضوض التي دخلت المستشفى بسببها. . هيه. وماذا قال ذلك الرجل؟

ـ لم يقل الكثير. إنه يتجلد ولا يكاد ينطق بكلمة إلا مع العذاب الشديد. . ولكنه يكرر أحياناً «توم». أتعني هذه الكلمة شيئاً يا كابتن جونفالد؟

ـ لا أظنها تعني شيئاً. . ماذا لو سمحت لي برؤية ذلك الرجل لعلي أستطيع الحصول منه على ما عجز عنه زملائي المحققون؟

وأخذوه إلى حيث سجنوا صديقه «أولي سنفندسن»، الذي ما أن رآه حتى صاح ليخدع الجستابو:

ـ جونفالد الخائن. . جونفالد عميل النازي القذر.

وقال رئيس الجستابو:

ـ لن تفوز من هذا الرجل الذي يكرهك بطائل يا كابتن جونفالد.

ـ من يدري.. سأحاول على أي حال.. دعونا وحدنا.

وبقي وحده مع صديقه «أولي سفندسن» الذي همس قائلاً:

ـ جونفالد.. لقد قبضوا على ثلاثة آخرين من زملائنا.. وإذا كنت أنا قد صمدت للتعذيب حتى الآن فلا تأمل أن يكون الثلاثة الآخرين أقوى مني.

ـ هل حصلوا منك على أية معلومات يا أولي؟

ـ لا أدري.. إنني أفقد رشدي من قسوة التعذيب.

ـ قالوا لي إنك كررت مراراً كلمة «تـوم» قد يربطوا هذا باسمي «تومستاد».

ـ وهذا ما يدفعني إلى أن أنصحك بالفرار.. اليوم قبل الغد..

ـ سأحاول أن أضللهم وأجد الوسيلة لتهريبك إلى انجلترا..

ـ هذا مستحيل.. أهرب أنت قبل فوات الأوان.

وعاد تومستاد إلى مقابلة رئيس الجستابو..

ـ هيه.. هل ذكر لك اللعين من هو «توم» الذي يكرر اسمه؟

ـ ليس هذا اسم شخص.. إنه يعني «تون» وليس «توم»..

ـ ربما، إنه يخلط كثيراً من شدة ما يلقى من عذاب.. ولكن ما معنى «تون»؟

ـ لقد رفض أن يتكلم، ولكني أدركت من بقية ما قال أنه يعني حقل في قرية «تونستاد» في سيرفال.

ـ يجب إذن تفتيش ذلك الحقل.

ـ سأتكفل بهذا في الغد..

لم يكن أمامه غير أربع وعشرين ساعة للفرار.. اتصل من مخزن الغلال في

ضيعته بإدارة المخابرات البريطانية في لندن لترسل له طائرة بحرية. . ثم سافر مع أربعة من رجال الجستابو إلى تونستاد. . وهي قرية شبه مهجورة على الساحل النرويجي. . هناك غافل من معه واختبأ في أنحاء الفيوردات المائية الخادعة في انتظار وصول الطائرة البحرية. .

وحين شاهد الطائرة تهبط على الماء قرب مخبأه خرج من بين الصخور ليحاول الوصول سباحة إلى القارب البخاري الذي انطلق من الطائرة لانتشاله ولكن رشاش الألمان كان أسرع منه. .

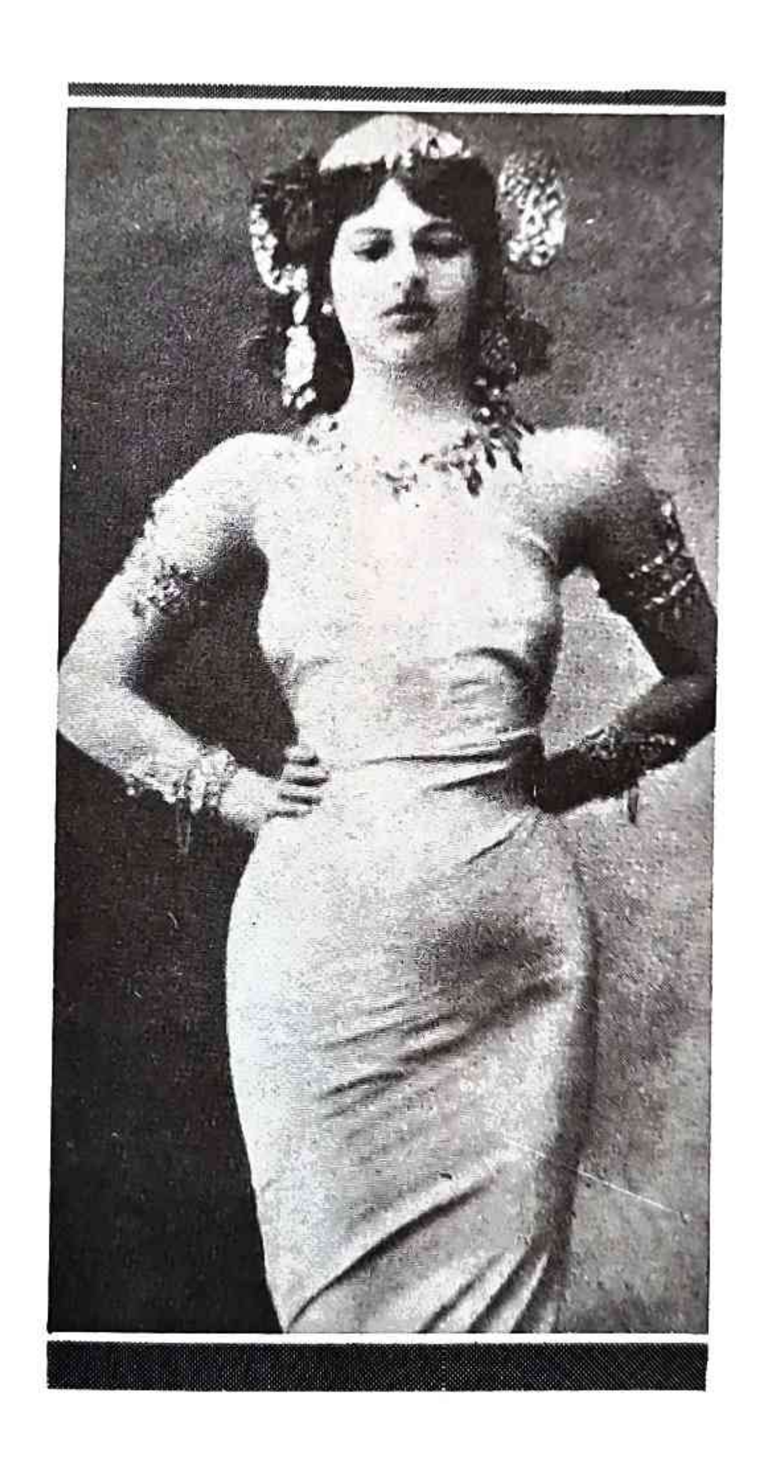
ولقي جونفالد تومستاد حتفه غرقاً.

انتشلوا هيكله العظمي بعد النصر. . ودفنوه في ساحة داره في قرية «هيل» وكتبوا على القبر:

«ضحى بما هو أغلى من الحياة من أجل وطنه».

ماتا هاري

عصفور الفجر



عصفور الفجر

مقابلة قدرية تلك التي جمعت بين راقصة شهيرة تدعى «ماتا هاري» وبين الكولونيل «جوبيه» رئيس المكتب الثاني الفرنسي الخاص بمكافحة الجاسوسية.. مقابلة مثيرة دفعت الراقصة دمها ثمناً لها..

في صباح يوم من أيام الشتاء عام ١٩١٦، كان الكابتن «لادو» مع رئيسه جوبيه في مقر المكتب الثاني بباريس.

ـ ماتا هاري؟ الراقصة التي لمعت على مسارح البيجال في فترة ما قبل الحرب؟ هل أنت واثق من أنها هي ماتا هاري يا كابتن لادور؟

ـ أجل يا كولونيل.

ـ وماذا تريد من إلحاحها في مقابلتي.

ـ تطلب إذناً بالسفر إلى فيتيل.

ـ هل قلت لها أن فيتيل في منطقة العمليات العسكرية؟

ـ بالطبع. ومع ذلك أصرت على المقابلة. هل أدخلها يا كولونيل؟

ـ أجلس يا كابتن لادو، فإني أريد أن أطابق ما عندك عنها من معلومات، على هذه التقارير الكثيرة التي يحفل بها ملفها في إدارتنا. هل تعرفها حق المعرفة يا لادو؟

وضحك الكابتن لادو وقال:

ـ أي لون من المعرفة تعني يا سيدي؟ لست من طراز من يعشقون راقصات البيجال.

ولكن جوبيه قال له جاداً:

ـ أعني هل تعرف تفاصيل حياتها السابقة على عملها كراقصة؟

ـ بالطبع.. دعني أسألك بدوري.. هل رأيتها يا كولونيل؟!

ـ هل تخشى أن أقع في غرامها كبقية الضباط الذين يرتمون تحت قدميها الصغيرتين؟ لا تخف.. أنا محصن ضد الجاسوسات.

ـ إذن فأنت على ثقة من أنها جاسوسة؟

ـ دعنا نعرف حقيقتها اليوم من المقابلة يا عزيزي لادو..

ولكن قبل أن تدخلها أريد أن أعرف ما عندك من معلومات عنها.

ـ إنها جميلة دون شك. ولا ريب أنها كانت ساحرة الجمال حين كانت في سن الشباب. إنها الآن في حوالي الأربعين، ومع هذا فلا تزال لمعة عينيها وما فيها من جاذبية طاغية، قادرة على إيقاع الكثيرين في غرامها. بشرتها رائعة. خليط من الورد واللبن.

هذه المرة ضحك جوبيه وهو يقول:

ـ لنبق في دائرة العمل يا عزيزي لادو، فلو سمعك أحد غيري لقال أنك من عشاقها القدامى. ما حقيقة سلوكها؟

ـ رغبتها الشديدة في أن تنسب إلى الأسر العريقة والماضي المجيد، يدفعها إلى الوقوع في الكذبات المثيرة للضحك.. فهي تزعم مثلاً أنها ابنة أحد كبار المزارعين الهولنديين، بينما لم يكن أبوها غير تاجر قبعات في هولنده.. وتزعم أيضاً أنها عاشت خمس سنوات في معبد هندي في مدينة «كاندا سواني» حيث درست الرقصات الهندية المقدسة..

ـ وما صحة هذه المزاعم؟

ـ من المؤكد أنها عاشت في سيلان خمسة أعوام مع زوجها الكابتن «ماك لويد»، ولكن ما من دليل يؤكد مزاعمها بأنها تتلمذت على راقصات المعابد الهندية.. راقصات المعابد الهندية يا كولونيل لا يرقصن عاريات.

ـ فماذا عن زوجها ماك لويد؟

ـ كان ضابطاً في الجيش الإنجليزي في جاوه. كان يسيء معاملتها جداً.. ربما بسبب ميلها المرضي إلى مغازلة الضباط الشبان.. وبالمناسبة يا سيدي.. إنها مغرمة جداً بالثياب العسكرية أكثر من غرامها بأصحاب هذه الثياب.

ـ ماذا وراء هذه الملاحظة يا لادو؟

ـ سنأتي إليها في حينها يا كولونيل. على أي حال يقال أنها طلقت من زوجها بسبب هذا الغرام العجيب للثياب العسكرية.. في يوم ضبطها زوجها مع أحد ضباط فرقته الشبان.. ضربها ضرباً مبرحاً.. وحين فتش دولاب ملابسها على أمل العثور على دليل آخر على خيانتها، وجد بالدولاب أكثر من سترة عسكرية بالأوسمة والنياشين..

وضحك جوبيه:

ـ كانت تجمع السترات العسكرية الخاصة بعشاقها؟؟

ـ يبدو هذا.. في ذلك اليوم ضربها ماك لويد بعصاه ضرباً مبرحاً. لم تبك. لم تعتذر.. بل قالت في تحد:

«لقد تزوجتك أيها التافه لأنك ضابط.. لم أكن أحسب أنك أخيب ضباط الجيش البريطاني في كل الميادين.. ميادين الحرب وميادين الحب.. لا عجب أن أبحث عن «ضابط حقيقي».. ضابط بأوسمة ونياشين تنبىء عن رجولته.. وهذه السترات التي أضعها في الصيوان أيها التافه تمثل انتصاراتي في طريق البحث عن «الأفضل والأجود»!

وضحك جوبيه وقال:

ـ يا لها من امرأة.. أين تقيم الآن؟

ـ في الفندق الكبير، في باريس.

ـ حيث تنصب شباكها حول ضباط الحلفاء؟ للحصول على المعلومات هذه المرة. من المؤسف أنني لا أملك دليلاً واحداً حقيقياً ضدها. من يدري لعلها تقدم لنا هذا الدليل في لحظة غرور.. دعها تدخل يا لادو..

ودخلت ماتا هاري.. وهذا كان اسمها الفني.. اسمها في شهادة الميلاد هو «مارجريت زيل». كانت في أبهى زينة. جلست أمام الكولونيل جوبيه دون استئذان.. سألها في هدوء:

ـ لماذا تريدين يا سيدتي الذهاب إلى فيتيل؟ لاشك أنك تعرفين أنها منطقة عسكرية؟

قالت ماتا هاري باسمة:

ـ أجل يا كولونيل. وإلا فما معنى أن أطلب الإذن منك بالسفر إليها؟

ـ وما هدفك من الذهاب إليها؟

ـ زيارة صديق عزيز.

ـ سيدة مارجريت زيل.. انك..

قاطعته باسمة بسمة السخرية والثقة بالنفس:

ـ أفضل أن تناديني باسمي الفني.. «ماتا هاري»

ـ حسناً. انك، ولا أخفي عنك ذلك، مدونة في ملفاتنا كعنصر خطر..

ـ سيدي.. إنني فرنسية مخلصة رغم أن أبي كان من كبار الملاك في هولنده.. كان من أصدقاء كل ملوك أوروبا و...

قاطعها جوبيه في برود:

ـ لنـدع قصة أمجـاد أسرتك يـا سيدتي إلى مـا بعد. . كنت أقـول أنك مـدونة في ملفاتنا كعنصر خطر.

قالت في دلال الغواني:

ـ من لها مثل جمالي يا سيدي لابد من أن تكون على هـذا القدر من الخـطورة على الرجال عشاق الجمال.

ـ سيدتي. أعني من العناصر الخطرة على سلامة الوطن. . إن علاقـاتك السـابقة بكبار ضباط الجيش الألماني المعادي لا تخفى علينا.

ـ سيدي. إنني لم أنكر أبداً أن صداقتي بولي عهد ألمانيا متينه ولصيقة. . ولم أنكر أيضاً أن من أصدقائي عدداً كبيراً من كبار السـاسة والإدارة في فـرنسا. . هـل لديك أسماء هؤلاء يا ترى؟ هل بالقائمـة اسم سفير فـرنسا في انجلترا؟! واسم قائد شرطة فرنسا كلها الجنرال جريبال؟

ـ أجيبي بوضوح يا سيدة مارجريت زيل. هل أنت جاسوسة ألمانية؟

وسكت لحظة ثم قال فجأة وهو يرقبها كما ترقب القطة الفأر:

ـ هل أنت جاسوسة ألمانية؟! هل تعملين لحساب المخابرات الألمانية؟

ـ إنك لست من الغباء بحيث تلقي هذا السؤال المذهل بلا هـدف. . ربما لـترى انفعالات وجهي من أثر المفاجأة. سيدي. إنك تبخس قدري كممثلة كبيرة.

ـ هل تنكرين أنك تدبرين هذه الأيام تهريب شحنة من «الأرز إلى الألمان»؟

ـ أرز؟ يا إلهي. . لم يبق إلا أن تبيع ماتا هاري الأرز؟

آه. . الآن أتذكر. . لاشك أنك تعني بهـذا ما حـدث مع الـوقح «هـود ميكر» على السفينة زيلاند. . هـل هذا هـو ما تعنيـه؟ إذن دعني أوضح لـك الصورة ياكولونيل. . هود ميكر هذا تاجر هولندي قابلته مصادفة على السفينـة زيلانـد التي تعمل بين روتردام وأسبانياً. يبدو أن هـذا الرجـل أراد أن يستغل معـرفتي باللغة الهـولنديـة ليتقرب إلي ويغـازلني في غفلة من الجالسـين معنا عـلى مائـدة

الطعام بالسفينة. . ذات يوم جاءني أحد معارفي ويدعى السيد كليندر، وقال لي:

ـ عزيزتي ماتاهاري. . ما مدى علاقتك بالسيد هود ميكر؟

قلت له في دهشة:

ـ علاقتي به؟ لا علاقة لي به على الإطلاق. كل ما في الأمر أنه يحاول أن يغازلني باللغة الهولندية من وراء ظهور الحاضرين. . كيف يمكن أن يخطر شيء كهذا في بالك يا عزيزي كليندر؟

فقال لي كليندر:

ـ لقد جاء إلى مقصورتي وقال إنه يتاجر في الأرز وأن لديه شحنة منه يريد أن يبيعها للألمان. وطلب إلي أن تكوني أنت واسطة عملية البيع، لصداقتك مع كبار الساسة والتجار في ألمانيا وقال إنه سيمنحك نسبة معقولة من الربح.

فضحكت وقلت له:

ـ إنني لا أمانع بالطبع في القيام بدور الوسيطة في عملية البيع لقاء نسبة معقولة من الربح، على ألا يعطى هذا للسيد كليندر أي حق في مغازلتي.

ـ هل أنقل إليه هذا؟

ـ ولم لا؟ ولكن ألا تعجب من التجائه إليك في هذا الأمر، وكان في استطاعته أن يحدثني رأساً. . وباللغة الهولندية التي يغازلني بها؟

فقال كليندر:

ـ لقد أثار هذا ريبتي فيه. . ولكني علمت فعلاً من ربان السفينة أن له في مخازنها شحنة كبيرة من الأرز. .

ـ حسناً. كما قلت لك. . سأبيع له الأرز إلى ألمانيا شريطة أن يكف عن مغازلتي. .

وسألها الكولونيل جوبيه رئيس مكتب مكافحة الجاسوسية.

ـ وبعث له شحنة الأرز إلى أصدقائك الألمان؟

فقالت ماتا هاري:

ـ كلا بالطبع.

ـ ولماذا؟

ـ لأنه استغل موافقتي على العمل معه في تجارة الأرز، وشرع يغازلني بطريقة أكثر جسارة.. ولما صددته في عنف، ذهب يدعي أنني استقبله كل ليلة في مقصورتي بالسفينة.. كان لابد من أن ألقنه درساً لا ينساه.. في وقت تناول الشاي في قاعة المطالعة بالسفينة، سألني كليندر همساً:

ـ كيف تسكتين يا ماتا هاري على إدعاءات هذا الوقح «هود ميكر».. أم.. أم لعلك فعلاً تستقبليه في مقصورتك؟

قلت له:

ـ سترى ما أفعل به الآن يا عزيزي كليندر.

وقلت بصوت عال سمعه كل من كان في القاعة:

ـ أيها السيدات والسادة.. يزعم هذا السيد الوقح هود ميكر أنني أستقبله في مقصورتي كل ليلة.. وقد أطمعه سكوتي عن تكذيب هذه الفرية فذهب يحكي ما أسماه «أسراري الفاضحة» في حبه.. حسناً إنني أيها السيد الوقح هود ميكر أدعوك أمام هؤلاء ـ الناس جميعاً أن تذكر علامة معينة في ظهري أخفيها بالياقة العالية التي تميز كل ثيابي.. هيه؟ هل لديك ما تقوله أيها الوقح؟

وسكت هود ميكر وأطرق في خجل.. وصاح كليندر.

ـ أيها السيدات والسادة.. إن سكوت السيد هود ميكر عن الإجابة لهو الدليل الحاسم على كذبه..

وتعالت أصوات الحاضرين:

ـ هذه وقاحة لا تغتفر!

ـ من حقك أن تقاضيه يا سيدة مارجريت!

ـ لو كنت مكانك لأطلقت عليه النار!

فقلت لهم:

ـ سأكتفي بأن يتقدم ويركع على ركبتيه أمامي ويعتذر عن كل كلمة كاذبة قالها في حقي.

وقال كليندر:

ـ تقدم يا هود ميكر واعتذر إلى السيدة..

ولكن هود ميكر لم يتحرك من مقعده.. فقلت:

ـ حسناً.. لا تريد أن تعتذر. سأرغمك على الاعتذار قسراً فسأذكر لهؤلاء السيدات والسادة، بعض الأسرار الحقيقية حول طبيعة شحنة الأرز التي تريد أن تبيعها للألمان..

مرة أخرى تلاغط الحاضرين وهم يرمقون هود ميكر في احتقار:

ـ عجباً.. ما أجبن هذا الرجل!

ـ أخيراً.. هاهو يذهب ويركع تحت قدميها ويطلب الصفح.

ـ من المؤكد أن شحنة الأرز تخفي أسلحة تحتها، وإلا لما ذهب يعتذر في خضوع..

وسألها جوبيه:

ـ أكانت شحنة الأرز تخفي أسلحة تحتها؟

ـ أجل. وكان من المفروض تهريبها إلى الألمان.

ـ وكيف عرفت بما تحت شحنة الأرز؟

ـ هو الذي ذكر لي ذلك بعد أن وعدني بزيادة نسبة عمولتي.

ـ ولماذا لم تبلغي ربان السفينة في الوقت المناسب؟

ـ كنا في مياه ألمانية يا سيدي. . ودليل براءتي من تهمة التهريب هي أنني أبلغت السلطات الإنجليزية بذلك عند مرور السفينة بميناء بورتسموث. . هل تجد هذا في ملفاتك عني يا كولونيل جوبيه؟ بالطبع كلا. كل ما في ملفاتك أنني أبيع الأرز إلى الألمان.

ـ حسناً نعود إلى سؤالنا الأول. لماذا تريدين الذهاب إلى فيتيل وهي منطقة عسكرية محظور دخولها إلا بإذن مني في وقت الحرب؟

ـ لأزور صديقي وأبقى بجانبه حتى يشفى ونتزوج.

ـ وما اسم صديقك هذا؟ أهو فرنسي؟

ـ كلا. بل روسي. . اسمه «فاديم ماسلوف» لقد أصيب في المعارك الأخيرة إصابة بشعة في عينيه. أعتقد أنه أصيب بالعمى. إنني أحبه وأريد أن أسافر إليه في مستشفى فيتيل لأبقى بجانبه حتى نتزوج.

ـ آنسة مارجريت زيل... أنا واثق من أنك تعملين لحساب المخابرات العسكرية الألمانية ولكن لا دليل عندي على هذا. . ومع ذلك. .

وسكت فسألته في حذر. . :

ـ ومع ذلك؟

ـ ومع ذلك فإن هذا لا يمنعني من أن أعرض عليك عرضاً في صالحك وفي صالحنا. . إني أعرض عليك أن تعملي جاسوسة لصالحنا ضد أصدقائك الألمان. . ماذا تقولين في هذا العرض؟

وضحكت ماتاهاري وقالت:

ـ إنك لازلت تصر على أنني صديقة للألمان!

ـ ألم تقولي من لحظة أنك صديقة لولي عهد ألمانيا ولعدد من كبار رجال الساسة

في برلين؟

ـ وهل يعني هذا أن أخون أصدقائي؟

ـ إنك تخونين فرنسا وقد قلت أنك تحبينها. . اسمعي يا آنسة مارجريت زيل. لا أريد منك أن تقرري هذا على الفور. فكري ثم عودي في وقت قريب.

ـ والتصريح في دخول فيتيل؟

ـ لن تكوني في حاجة إلى مثل هذا التصريح إذا قررت العمل معنا.

ـ حسناً، سأمر عليك بعد يومين.

ـ بديع. . ولكن اسمحي لي بأن أحذرك. لا تستشيري أحداً في هذا الأمر. . وعلى الخصوص لا تستشيري صديقك سفيرنا في لندن. . إنه هذه الأيام في باريس. . ومع هذا فلا أحسبك تجهلين ذلك.

وكان صديقها الفرنسي السفير في لندن هو أول من استشارته، فنصحها بالعمل لحساب المكتب الثاني بشرط أن تطلب مليوناً من الفرنكات على أقل تقدير. عادت بعد يومين إلى الكولونيل جوبيه. سألها:

ـ هيه؟ ماذا قررت؟

ـ قراري يتوقف على ما سوف تدفعون لي.

ـ من المؤكد أن الثمن غال.

ـ جداً.

ـ كم قدره في رأيك؟

ـ في رأيك أنت؟ كم أساوي؟

ـ الكثير. وأنا أتكلم كرئيس المكتب الثاني الذي يقدر مهارة جواسيسه، وليس كرجل يقدر جمال سيدة رائعة مثلك.

وضحكت في دلال، وقالت:

ـ أعرف أنني لن أستطيع أبداً غوايتك. لهذا دعنا نتكلم في الأمور المالية دون تحرج. إن ثمن الفشل كما تعرف هو رصاصة ألمانية في صدري.. وعلى هذا فيلزم أن يتساوى معه ثمن النجاح.. ما رأيك في مليون فرنك؟

ـ ما رأيك في ٢٥ ألف فرنك ثمناً لكل عملية على حدة؟

ـ أوافق مبدئياً.

ـ حسناً.. هل تحسنين استعمال الحبر السري؟

ـ كلا.

ـ سيدربك على هذا مساعدي الكابت لادو.

ـ وتصريح دخول فيتيل؟

ـ انك تصرين على هذا التصريح بطريقة تثير الشكوك.

ـ قلت لك أن حبيبي مريض هناك.

ـ ربما. ولكني واثق تماماً على أي حال من أنك جاسوسة بوجهين، وأنك تعملين أيضاً لحساب الألمان. بل أنا واثق من أنك في يوم ما ستخونين أحد الطرفين. نحن.. أو الألمان..

أدخلوها إلى مدينة فيتيل بلا حاجة إلى تصريح من المكتب الثاني حتى لا ينكشف أمرها كجاسوسة لحساب الجيش الفرنسي. قابلت صديقها الروسي في مستشفى الميدان ثم عادت إلى باريس في السادس عشر من سبتمبر عام ١٩١٧ - من لادو هذه المرة حصلت على أول مبلغ تقاضته من المكتب الثاني.. ويقول لادو في مذكراته التي نشرت بعد الحرب العالمية الأولى:

«لم تكن سعيدة بالمبلغ الذي حصلت عليه. قالت في حزن.

ـ ما نفع هذا المال إذا لم يستطع أن يعيد إلي حبيبي فاديم.






سألتها:

ـ هل تعنين أنه مات؟

ـ لا. ولكنهم يقولون إنه سيعيش ما بقي له من عمر أعمى.

ـ كأنك قررت أن تبحثي عن السعادة مع رجل آخر؟؟

ـ أبداً.. ما أن تنتهي هذه الحرب اللعينة حتى آخذه ونذهب إلى روسيا. سنتزوج وسأكون عينه التي يبصر بها..

ـ حتى يأتي ذلك الوقت لماذا لا تستمتعين بحياتك ومعك هذا القدر من المال؟

ـ دعنا من الأمور الشخصية يا عزيزي كابتن لادو.. ماذا تريدون مني على وجه التحديد؟

ـ نريد أن تسافري على الفور إلى لاهاي.. إنك تجيدين الهولندية، وأعتقد أنك ستحسنين التفاهم مع صاحب هذا العنوان.. إنه في هذه الورقة المطوية.. افتحيها إذا شئت..

ـ طبعاً سأفتحها وإلا فكيف أذهب إلى العنوان دون أن أقرأه..

وفتحت الورقة وتأملت ما فيها ثم قالت في صوت غاضب:

ـ ما هذا يا لادو؟ أف ٤٤!؟ ما معنى هذه اللعبة السخيفة؟

فقلت لها:

ـ أف ٤٤ هو عنوانك في لاهالي. أليس كذلك؟

قالت:

ـ كلا بالطبع.

ـ بل هو عنوان الشقة التي تستأجرها لك المخابرات الألمانية..

عادت تقول غاضبة:

ـ إنك ورئيسك لا تثقان بي، فلماذا لا تقدماني إلى المحاكمة ثم طابور الإعدام

بدل هذه اللعبة المقيتة؟

ـ لقد عقدنا معك اتفاقاً. . ويلزم أن تفي به على أي حال. لننسى أمر هذا العنوان إذن.

ـ لن ننساه حتى تطرد من رأسك هذه الشكوك.

ـ في استطاعتك وحدك بالإخلاص لنا أن تطردها. .

ـ أؤكد لك أنني معكم قلباً وقالباً. وهذا لا يمنع من الإبقاء على علاقاتي مع أصدقائي الألمان كي أحصل لكم على ما تريدون. .

ـ حسناً. أنا أوافق على هذا.

ـ والآن. ماذا تريدون من وراء ذهابي إلى لاهاي؟

ـ في لاهاي عدد كبير من الجواسيس الألمان والأسبان والهولنديين. نريد الأسماء.

ـ لا أعد بهذا. . لقد وعدت بأن أنقل إليكم معلومات ذات صفة عسكرية أو سياسية. . ولكني لست بائعة رؤوس.

ـ حسنا. سنكلف سواك بهذه المهمة. أنا الآن على ثقة من أن هذا الجمال لا يمكن أن ينطوي على شر.

وانفرجت أساريرها وقالت مرحة:

ـ أهذا غزل يا كابتن لادو؟

ـ وما الفائدة وهناك الروسي فاديم؟

ـ إنك لا تقل عنه وسامة يا عزيزي لادو. . ولكني أحبه هو. . أنا آسفة.

ويستمر لادو في مذكراته:

«لم يكن في نيتي أبداً أن أقيم معها أي لون من العلاقات العاطفية. ولكني أحسست بأنها شديدة الولع بالاستماع إلى كلمات الغزل الرقيقة، وخشيت أن يوقعها هذا الوقع بإطراء جمالها ورشاقة قوامها وسحر عينيها، في براثن جاسوس

ألماني شاب يعرف كيف يغرق أنوثتها في طوفان رجولته، ويدفعها إلى خيانتنا. . لذلك أمرت بعض جواسيسنا في لاهاي بمراقبتها رقابة لصيقة. . »

حين بلغت لاهاي قالت لنفسها:

«أي ضير في الاستمتاع بصحبة أصدقائي السياسيين الألمان؟ من يدري لعل عندهم ما يمكن أن أنقله إلى لادو في باريس».

من خلال الأحاديث العابرة مع أصدقائها الألمان في لاهاي، عرفت أن من يدعى «فون كال» هو المسئول عن جميع العمليات العسكرية البحرية في القطاع الهولندي. أرسلت إليه على عنوانه رقم ٢٣ شارع كاستيلانا. .

«سيدي الكابتن. أود أن أقابلك لأتحدث إليك. برجاء تحديد اليوم والساعة. . ماتا هاري».

كان «فون كال» قد سمع بماتا هاري، وبراعتها في الرقص الهندي المثير. . وكانت هي من جانبها قد تحرت عنه وعلمت بمغامراته القديمة مع راقصات برلين قبل الحرب. . أملت في أن تكون قد وقعت على الصيد الثمين. . ولم يلبث أن جاءها الرد المشجع على عنوانها بالفندق الذي نزلت به:

«سيدتي. لم يسبق لي شرف التعرف بك. ومع هذا فيسعدني أن أستقبلك بمسكني غداً في الثالثة عصراً. «فون كال».

بعد لحظات من المقابلة. . اللحظات التي ظل فون كال يتأمل فيها زائرته الجميلة ذات النظرات الساحرة، والكلمات ذات الرنين الموسيقي الخافت. . والواعد أيضاً. . بعد تلك اللحظات ذاب الجليد في قلب فون كال. قال لها في رقة عذبة:

ـ ليس من عادتي يا سيدتي استقبال أية سيدة غريبة، لاحتمال أن يكون الأعداء الإنجليز أو الفرنسيين قد أرسلوها للتجسس علي. . ولكن من المؤكد أن من لها هذا الجمال وهذه الرقة لن تفعل هذا قط. . لا. . من المؤكد أن مثلك لا

يفعل هذا.

قالت له مرحة وهي ترفع عن كتفيها الجميلتين الغلالة الشفافة:

ــ ولماذا تظن ذلك يا كابتن فون كال؟

ــ السبب بسيط. فلو أنك جاسوسة لعلمت أنني رقيت منذ شهر إلى رتبة العقيد. ولا يمكن لمخابرات الإنجليز أو الفرنسيين أن يقعوا في خطأ كهذا..

ــ صحيح. أعتذر لك يا عزيزي إذا كنت قد أرسلت رسالتي برتبتك القديمة.

ــ ترى ماذا وراء هذه الزيارة السعيدة يا سيدتي؟

ــ إنني يا عزيزتي من هواة الرحلات البحرية في الزوارق.. ولكني لم أستطع ممارسة هوايتي هنا. قالوا لي أن هذا ممنوع تماماً بسبب العمليات الحربية.. ولكني لا أرى هنا أية عمليات.. في استطاعتك يا عزيزي أن تمنحني التصريح للتجول بزورقي في الميناء..

ــ هذا مستحيل لسوء الحظ يا سيدتي.. ولكن من المصادفات الحسنة أن لي ڤيلا صغيرة على الشاطىء الرملي البعيد عن الميناء.. إذا وجدنا الفرصة المناسبة فقد نمارس هذه الهواية وأمسك بيدها وقال:

ــ هناك على الشاطىء البعيد.. معاً بالطبع.

وقع الصيد في الشباك.. شغف «فون كال» بماتا هاري حباً. وحل الحب عقدة لسانه في ساعات الصفاء في الڤيلا القصية على الشاطىء. سألها ذات ليلة:

ــ لشد ما أنا متعب يا ماتا هاري.. إنهم يلقون علي بكل متاعبهم.

قالت تدلله كأنه طفل محبوب:

ــ ومن هؤلاء الذين يلقون بمتاعبهم على عزيزي اللطيف «كالي» المحبوب؟

ــ الرئاسة يا عزيزتي. يكلفونني هذه الأيام بمهمة إنزال الألمان والأتراك من الغواصات على شاطىء افريقيا الشمالي.. قرب الدار البيضاء.

ـ وهل تجد صعوبة في هذا يا عزيزي؟

ـ الصعوبة في اضطراري إلى البعد عنك . .

ـ يا صديقي المحبوب . . الواجب قبل كل شيء . . ليتني أستطيع أن أكون معك في كل مكان . . أو أن أستطيع أن أعاونك . . دعنا نرى ما تقابله من مصاعب في هذه العملية . . متى ستتم عملية الإنزال؟

ـ في شيء من الحذر قال فون كال :

ـ دعينا من هذا يا ماتا هاري . لا يجب أن تشغل الجميلات رؤوسهن الصغيرة الأنيقة بهذه المتاعب الدموية . .

ـ ولكني أستطيع فعلاً أن . . .

فقاطعها في شيء من الشدة :

ـ أرجوك . لا أريد الحديث في هذا الموضوع .

ـ كما تشاء يا حبيبي . . إنما أردت أن أعاون حبيبي الصغير المتعب .

وأرسلت بما حصلت عليه من معلومات إلى المكتب الثاني في باريس . . وجاءها الرد عن طريق الملحق العسكري الفرنسي في مدريد :

«لا تقطعي صلتك بفون كال مهما كانت الأسباب . نريد معلومات أدق عن حملة الغواصات إلى شمال افريقية» .

في خلوة أخرى بالفيلا مع فون كال عادت إلى طرق الموضوع :

ـ هيه . ترى ماذا فعل الله بغواصات شمال افريقية؟

وكان فون كال تلك الليلة ميالاً إلى الثرثرة فقال دون حذر :

ـ اللعنة على الرئاسة . . تكلفني بما لا يدخل في طوق غيري من رجالها . . لقد أمرضوني بأوامرهم . . إنني مريض فعلاً يا ماتا هاري .

قالت تدلله :

ـ يا مسكين. الصداع مرة أخرى؟ . . وفي الصيف؟! ثق من أنني أقدر متاعبك في إنزال الجنود من الغواصات على الشواطىء المعادية . . هل نجحت خطتك؟! من المؤكد أنها نجحت.

ـ أتريدين أن تعرفي ما حدث حقاً؟

ـ بالطبع يا عزيزي. اريد ان اسعد، لعلمي أنك من أبرع من يقوم بأمثال هذه العمليات.

ـ حسناً . . تعالي قرب النافذة لأرى وجهك الجميل وهو يتضرج بالحمرة . . تعالي.

ـ لا أفهم ما تعني.

وأخذها من يدها في رقة متناهية حتى النافذة ونظر إلى وجهها وقال:

ـ الآن يمكنني أن أرى لون وجنتيك الجميلتين، حين أقول لك أنني لست غبياً كما تظنين يا ماتا هاري . .

أذهلتها المفاجأة . . وصارت يدها في يده كقطعة من الثلج . . قالت في اضطراب.

ـ ماذا تعني يا كالي؟

قال فون كالي:

ـ أعني أن لدي ما يثبت أنك نقلت كل ما سمعت مني عن حملة الغواصات على شمال افريقية إلى المكتب الثاني في باريس . . ماتاهاري . . لماذا خنت حبي لك؟!

تماسكت وقالت ضاحكة:

ـ ما هذا الهراء يا كال؟ هل يأتي إلى ذهنك حقاً أن ماتاهاري . . حبيبتك المخلصة تفعل هذا بك؟؟ إنك تمزح دون شك.

قال فون كال:

ـ إذن فكيف عرف الفرنسيون بأمر الحملة؟

ـ وكيف عرفت أنهم عرفوا؟

ـ تزايد نشاطهم في منطقة شمال المغرب بشكل غير عادي.. كما شوهدت غواصات إنجليزية عند المضيق..

ـ من المحتمل أن يكونوا قد عرفوا ذلك عن طريق آخر.

ـ لا يعرف بسر هذه الحملة سواي. وقد تكلمت عنها معك بغباء..

ـ ماذا أفعل كي تصدقني يا كال؟ أنا على استعداد لأن ألقي بنفسي على الفور من هذه النافذة لأتحطم على الصخور، إذا كنت مصراً على إتهامي بخيانتك..

وحاولت أن توهمه أنها ستلقي بنفسها حقاً من من النافذة فأمسك بها يمنعها فقالت باكية في انفعال كاذب:

ـ أرجوك.. دع ذراعي.. سأقتل نفسي.. لا أحتمل إهانة كهذه أبداً..

صاح بها وهو يحتضنها:

ـ لا تفعلي يا مجنونة.. من المحتمل أن يكون السر تسرب بطريق آخر.. من المحتمل أن يكون الفرنسيون أو الإنجليز قد التقطوا رسالة لاسلكية بين القيادة وبين الغواصات الألمانية. إنهم يعرفون الشفرة الألمانية كما نعرف نحن شفرتهم..

ـ ربما. ولكن هذا سيعني دائماً أنك تشك في.. أرجوك دعنا ننهي هذه العلاقة التي سممتها شكوكك. إما أن تبتعد عني وإلى الأبد، وإما ألقيت بنفسي من هذه النافذة.

وتوسل إليها فون كال:

ـ وحبي لك يا ماتاهاري؟! إنني لا أستطيع أن أعيش بدونك. ولو انتحرت

لقتلت نفسي بعدك. أرجوك. عيشي من أجلي.

قالت ماتاهاري عن ذلك الحادث فيما بعد:

ـ استطعت أن أخدعه. ومبالغة مني في خداعه، رفضت أن أستقبله في الڤيلا على طول شهر كامل. ومن المؤكد أن الكولونيل جوبيه ومساعده الكابتن دولا، قد ظنا أنني بعتهما لفون كال.. ولكني في الحقيقة كنت ألعب لعبتي حتى لا تعاود الشكوك في أمري العقيد فون كال.. كنت أراه مصدراً رائعاً لكل ما أريد من معلومات عسكرية سرية.. حين أدخلته من جديد إلى دائرة رضاي، لم يعد يخفي عني شيئاً. بالطبع لم يتخل تماماً عن حذر الضباط الألمان، ولكني كنت أعرف كيف أحصل منه على ما أريد في ساعات الصفاء.. فأرسله إلى «لادو» عن طريق جاسوس له يقيم في لاهاي..

هذا ما تقوله ماتاهاري.. أما لادو فقد كان له رأي آخر.. يقول:

ـ بطريق أو بآخر استطاع العقيد فون كال أن «يجند» ماتا هاري لتعمل لحساب المخابرات الألمانية. من المؤكد أنها لم تقع في حبه. ومن المؤكد أيضاً أنها كانت لا تزال وفيّة لصاحبها الروسي الأعمى فاديم.. ولا ندري كيف جندها فون كال.. ربما فعل ذلك بتهديدها بقتل فاديم.. حتى اليوم لم يتكشف لنا هذا السر.. بتصريح المرور السري الذي كنا قد زودناها به كانت تنتقل في مناطق العمليات العسكرية الفرنسية.. بل كانت تصل إلى باريس في زيارات مفاجئة ثم تغادرها فجأة أيضاً دون أن تتصل بنا.. كان لابد من القبض عليها بعد أن نحصل على أدلة خيانتها.. حين جاءت إلى باريس في الخامس عشر من يناير عام ١٩١٧ وأرسلت إلي بوصولها لم أتصل بها في الشقة التي أقامت بها في شارع الشانزلزيه.. ولما طال انتظارها أرسلت إلي:

«أهذا كل ما تريدونه مني؟ لقد تعهدت لكم بأن أمدكم بكل ما تحتاجونه من معلومات سرية ولم أتدخل قط في عملكم بالأسئلة.. كل ما أريده الآن هو أن أحصل على أجري. وهذا مطلب شرعي.. ادفعوا لي حقوقي ثم دعوني

أذهب إلى الشيطان».

كان عزم الكولونيل جوبيه قد استقر على إلقاء القبض على ماتا هاري. . يوم الثالث عشر من فبراير عام ١٩١٧ توجه الكابتن بريوليه قائد شرطة باريس إلى شقة ماتاهاري في الشانزلزية ومعه أربعة من رجاله. ذهلت حين قال لها أنه جاء للقبض عليها:

ـ ماذا؟ تقبض عليّ؟ بأي تهمة يا سيدي؟ هل معك أمر من النيابة؟

ـ أجل. هاهو. .

وأراها أمر القاضي. قرأته في صمت ثم قالت:

ـ يا إلهي. . وبأي تهمة يا سيدي؟! أرجوك. . دعني أتصل بالكابتن لادو.

ـ اتصلي به عن طريق محاميك يا سيدتي. .

ـ هذا جنون. . ما تهمتي بحق السماء؟

ـ التجسس لحساب العدو في وقت الحرب.

واصطنعت الدهشة:

ـ لحساب العدو؟ تعني أنني أتجسس لحساب الألمان؟ ما هذا الخلط يا سيدي؟ وضح لي الأمر أرجوك. .

قال لها بريوليه:

ـ سيدتي. من حقك الحصول على ما تريدين من إيضاحات عن طريق محاميك ولكن بعد وصولك إلى السجن.

صاحت في انفعال شديد:

ـ السجن؟ تقول السجن؟ يا إلهي. . لم يبق إلا أن تسجن ماتا هاري!

وسجنت ماتا هاري. . بالزنزانة رقم ١٢ في سجن سان لازار.

فتشوا شقتها في دقة بالغة، مزقوا حقائبها بحثاً عن الجيوب السرية والأحبار التي يستخدمها الجواسيس عادة.. ما وجدوه معها كان فرنسي الصنع.. ثم فتشوها تفتيشاً ذاتياً بواسطة إحدى ضابطات الشرطة.. وجدوا عليها ورقة مطوية تحوي عنوانات بعض كبار الضباط الألمان في برلين.. وحين شهد لادو التحقيق المبدئي معها، قالت له:

ـ لادو. قل لهؤلاء السادة أن هذه الأحبار السرية هي التي زودتموني بها في أول عملي معكم.. كلها من صنع فرنسا أيها السادة.. لادو.. لماذا لا تقل لهم هذا؟!

قال لها لادو ساخراً:

ـ هل أقول لهم أيضاً أنك كنت تبعثين بأسرار الجيش الفرنسي إلى أصدقائك الألمان المذكورة أسماؤهم وعنواناتهم في الورقة التي ضبطت معك؟

ـ أنتم أعطيتموني هذه الأسماء والعنوانات.. كيف بحق السماء كان في استطاعتي أن أرسل لكم ما تريدون من أسرار الجيش الألماني دون أن أتصل بهؤلا الضباط؟

ـ لدينا دلائل كثيرة على أنك نقلت إليهم أسرارنا.. آسف.. سيستمر التحقيق معك حتى تعترفي بكل شيء.

ـ لن أعترف بشيء، لأنه ليس هناك ما أعترف به.

ـ الاعتراف أفضل بالنسبة لك. عندها فقط قد تحصلين على حكم مخفف.

ـ لا دليل عندكم على الخيانة المزعومة.

ـ بل عندنا أدلة كثيرة.. أدلة دامغة.

ـ ما هي؟ قدمها للمحققين يا لادو..

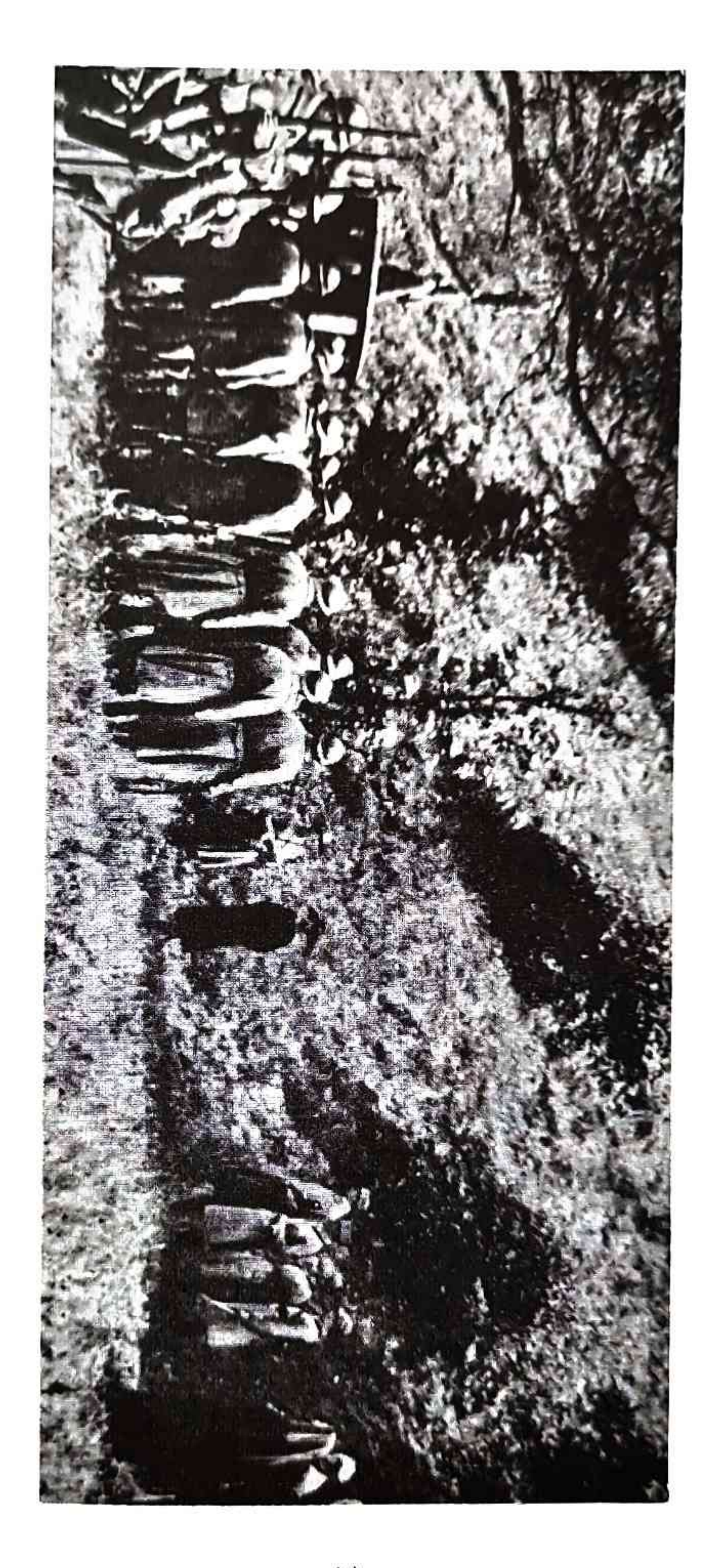
ـ سنقدمها في الوقت المناسب.

ولسبب خفي تركوها في السجن دون تحقيق آخر. كان من الممكن أن تظل في سجنها تستمتع بحياتها في ظل ظروف مناسبة ثم تخرج بعد الحرب بلا محاكمة. . وقد كان هذا رأي بعض كبار الساسة الفرنسيين ومن بينهم رئيس الجمهورية في ذلك الوقت. . ولكن محاميها «إدوارد كلونيه» تصرف بشيء من الحماقة. أرسل إلى رئيس المكتب الثاني مذكرة قال فيها:

«سيدي الكولونيل. اسمح لي بالاحتجاج بشدة على إبقاء موكلتي في السجن دون تحقيق. . وأطلب أن تعاود اللجنة عملها على الفور أو أن يصدر قرار بالإفراج المؤقت عن ماتا هاري إلى أن يتم التحقيق أو المحاكمة. إنكم تتهمونها بتهمة ليس لديكم عليها أي دليل، وليس من العدل الإبقاء على الوضع الحالي لموكلتي أطول من هذا. لقد وجهت إليها وزارة الحرب تهماً بالغة الخطورة، وأنا أطالب هذه الوزارة بأن تقدم على الفور ما لديها من أدلة على صحة هذه التهم إلى قاضي الإحالة أو تطلب منه الإفراج عنها، فمن الظلم والقسوة أن يستمر موقفها الحالي إلى ما لا نهاية. وتفضل يا سيدي الكولونيل بقبول احترامي وتقديري». المحامي إدوارد كلونيه عن المتهمة مارجريت زيل المشهورة باسم ماتا هاري«.

لماذا لم تقدم وزارة الحرب عن طريق المكتب الثاني ما لديها من دلائل دامغة كما قال لادو عن خيانة ماتا هاري؟ يقول لادو:

ـ لقد استطعنا أن نلتقط ثمان برقيات أرسلتها ماتا هاري من باريس بجهاز لاسلكي لم نستطع لسوء الحظ العثور عليه، أرسلتها إلى صديقها العقيد فون كال في برلين. وقد وقعت في أيدينا هذه الرسائل البرقية بسبب معرفتنا بالشفرة التي يستخدمها الألمان، وبفضل أجهزة الاستماع البالغة القوة التي ركبت مؤخراً فوق قمة برج إيفيل. لم نكن نريد أن نقدم هذه البرقيات كدليل الإدانة إلى قاضي الإحالة حتى لا يعرف الألمان أننا حصلنا على مفتاح الشفرة السرية الألمانية فيقوموا بتغييرها.



ولم تستجب وزارة الحرب لطلب المحامي واستمرت في تجاهلها للمتهمة نزيلة سجن لازار، بأمل أن يكف المحامي الأخرق عن طلب إعادة التحقيق. . ولكن كلونيه عاد يمطر وزارة الحرب في الحاج بمذكراته التي يطلب فيها الإسراع بالتحقيق والمحاكمة. . واضطر وزير الحرب إلى أن يبعث إلى ماتا هاري في السجن بأحد رجاله ليدخل إلى قلبها الخوف من الإلحاح على المحاكمة. قال لها مندوب وزارة الحرب:

ـ سيدتي. اسمي «بوشاردون». أرسلني السيد وزير الحرب لأتحدث إليك في غيبة محاميك الأستاذ كلونيه.

قالت له:

ـ سأستمع إليك يا سيد بوشاردون إذا كان هذا سيؤدي في النهاية إلى الإفراج عني.

ـ إن لدينا يا سيدتي أدلة دامغة على صحة التهمة الموجهة إليك وإنني. .

قاطعته ماتاهاري ضاحكة:

ـ ها أنت ذا تكرر ما يقوله الكابتن لادو. .

ـ أكرره ومعي دليل الاتهام أو لنقل الدليل رقم واحد فلدينا منه ثمانية. هذا يا سيدتي نص البرقية السرية التي أرسلها إليك العقيد فون كال في شقتك بالشانزلزيه يوم الثالث عشر من ديسمبر عام ١٩١٦. . دعيني أقرها لك. . .

«إلى ملحقنا العسكري في السفارة الألمانية بمدريد» وصلت ماتاهاري إلى باريس منذ أيام. لا يزال المكتب الثاني على ظنه بأنها تعمل لحسابه ضدنا. اتصلت ببعض رجالنا في باريس وعلى الخصوص بالعميل هـ ٢١، وأخبرته بأن لديها معلومات جديدة عن العمليات قرب فردان. حتى الآن لا تراود المكتب الثاني الشكوك فيها. ولكن مكتب الجاسوسية المضادة في لندن على وشك أن يرسل إلى المكتب الثاني الفرنسي بملف عنها. سنحاول أن نعرف ما

في هذا الملف. أرسل إليها عن طريق العميل هـ ٢١ مبلغ عشرة آلاف فرنك. إنها في أشد الحاجة إلى المال». ما رأيك في هذه البرقية؟

سكتت لحظة ثم قالت:

ـ محاولة حقيرة من فون كال للإيقاع بي.

ـ لدينا رسائل برقية أخرى منك إلى فون كال تطالبين فيها بإلحاح أن يرسل إليك عشرين ألف فرنك.. وتهددين فيها بإعطاء المكتب الثاني معلومات عن نشاط عملاء الألمان في باريس.

اصفر وجهها هذه المرة وتلعثمت وهي تقول:

ـ هراء.. كلها مدسوسة علي.. إن باريس مليئة بالجواسيس الألمان ومن المحتمل أن يكون أحدهم قد اتخذ اسمي ستاراً لعملياته.. إنكم لا تستطيعون أن تنسبوا هذه البرقيات إلي.

ـ فيما لدينا من برقيات أرسلت بها إلى فون كال، تفصيلات دقيقة لنشاطك في لاهاي، واتصالاتك بعملاء الألمان في أسبانيا.. هل تعرفين مثلاً السيدة «أنالتجين»؟

ـ كلا.

ـ ولكنها تعرفك جيداً يا سيدتي.. لقد وقعت في أيدينا واعترفت أنك كنت توجهينها في كل خطوات نشاطها ضد فرنسا وانجلترا في هولنده..

ـ لا أعرف أحدا باسم أنالتجين؟

ـ فماذا عن جان كرامر؟

صاحت غاضبة:

ـ سيدي.. ماذا تريد مني على وجه التحديد؟

ـ لا أعد بشيء.. ولكن السيد وزير الحرب يقترح أن ينتهي الاتهام بالنسبة لك

بعـد اعترافـك اعترافـاً مفصلاً بكـل شيء. إن هذا يسهـل مهمتنا في محـاصرة عملاء ألمانيا في فرنسا وانجلترا.

سكتت لحظة تتأمل الموقف ثم قالت ببطء:

ـ وأخرج من السجن ليغتالني الألمان؟

ـ لا.. ستبقين في السجن بلا محاكمة إلى أن تنتهي الحرب فتخرجين حرة.

ـ حسناً.. أريد أن أسمع هذا من وزير الحرب نفسه.

ـ سأنقل إليه رغبتك يا سيدتي.

وكان من الممكن أن يوافق وزير الحربيـة على مقـابلة ماتـاهاري في السجن مقـابلة خفية لا يعلم بهـا أحد.. ولكن اتجـاه الريـح لسوء حظ مـاتاهـاري تغير فجأة.. يقول لادو عن هذا:

ـ لم يكن يمنعنا من تقديمها للمحاكمة بما لدينا من أدلة سوى خشيتنـا من أن يغير الألمان مفتاح كتاب الشفرة الخاص بهم.. من سوء حظ ماتاهـاري أنهم لسبب لا ندريه قاموا فجأة بتغيير هذا المفتاح.. عندها لم يعد عندنا ما يمنـع من تقديم ماتاهاري إلى المحاكمة والمطالبة بإعدامها.

كـانت تلك أيام الهـزائم الفرنسيـة.. والحاجـة ماسـة إلى كباش فـداء.. وكانت ماتاهاري أحـد هذه الكبـاش.. يوم الحـادي عشر من يونيـو عام ١٩١٧ صدر الحكم عليها بالإعدام رمياً بالرصاص.. ونفذ الحكم يوم الخامس عشر من سبتمبر من نفس العام.

ويحكي محاميها عن لحظاتها الأخيرة قائلا:

ـ قابلت ماتاهاري الموت في شجاعة مهيبة.. كـانت نائمـة يوم دخلت زنـزانتها هيئة التنفيذ.

ـ استيقظي يا آنسة فقد حان موعد التنفيذ.

استيقظت ونظرت حولها ثم قالت في شجاعة:

ـ بهذه السرعة؟ وماذا عن الالتماس الذي قدمته؟

ـ لقد رفض السيد رئيس الجمهورية التماسك. . كوني شجاعة يا آنسة. .

ـ كيف يرفضه؟ مستحيل. . كيف يرفض التماساً واضحاً كل الوضوح؟ أستاذ بورجيه. . لماذا رفض رئيس الجمهورية الالتماس. . لقد قلت لي أنه سيعدل الحكم.

فقلت لها:

ـ أنا آسف يا آنسة.

ـ أشكرك على حضورك على أي حال. .

واقترب منها طبيب السجن وهمس في أذنيها. .

ـ مارجريت. . هناك حل مؤقت إذا شئت. . إذا كنت «حاملاً» فإن المادة ٢٧ من قانون العقوبات تنص على تأجيل التنفيذ.

قلت لها مؤيداً وجهة نظر مدير السجن:

ـ مارجريت. . دعيه يفحصك. . أرجوك. . هذه هي فرصتنا الأخيرة. .

قالت في إصرار غاضب:

ـ لا. . لا. . أنا لست حاملاً. لا أريد أن ألجأ إلى هذه الألاعيب. . لا ضرورة للفحص. . سأكون مستعدة بعد لحظات. .

وارتدت ثيابها وراء الحاجز الخشبي تساعدها في ذلك إحدى الراهبات. . ولما استعجلها مأمور التنفيذ قالت في مرح شجاع:

ـ سيدي. . إنني أريد أن أعانق الموت وأنا في أبهى حالة. .

قال لها المأمور:

ـ حسناً. ولكن أرجو ألا تطول زينتك يا آنسة.

ـ دقائق قليلة وينتهي كل شيء.. بالمناسبة. أيمكن أن تصحبني الراهبة اللطيفة الأخت ماري حتى ساحة التنفيذ؟

ـ لا يا آنسة.. حتى عربة السجن ربما.. هذا آخر المسموح به..

وأنهت زينتها.. وجلست لتكتب ثلاث رسائل أسلمتها إلي وهي تقول لي:

ـ أرجو أن تصل إلى أصحابها بعد إعدامي.. عدني بذلك يا أستاذ بورجيه..

ـ أعدك يا آنسة..

ـ آه.. نسيت.. هناك شيء آخر أود كتابته.. أعطني ورقة من فضلك.

وأسرع مأمور السجن نحوها وهو يقول

ـ لماذا؟ هل ستكتبين اعترافاتك؟

فردته في شيء من الغضب والاستنكار:

ـ اعترافاتي؟ ليس هناك ما يثقل ضميري يا سيدي حتى اعترف به.. سيتبين لكم فيها بعد أنكم أعدمتم بريئة.

في غابة «فنسين» في فجر الخامس عشر من سبتمبر عام ١٩١٧ ربطوها في رفق إلى إحدى الأشجار..

كان عصفور الفجر يزقزق ويحوم حول الشجرة التي وقفت أمامها قالت:

ـ عصفور الفجر.. هذا هو اسمي. «ماتا هاري».. يسمونه هكذا في جاوه.. ماتاهاري.. عصفور الفجر.. وأرادوا أن يعصبوا عينيها. قالت:

ـ لا.. إنني لست جبانة يا سيدي..

وصاح المأمور:

ـ أطلقوا النار.

وهوت ماتاهاري إلى الأرض.. واقترب منها الطبيب ليتأكد من موتها..

وحين أعلنه لضابط التنفيذ قال لي ذلك الضابط :

ــ من سيستلم الجثة؟

قلت له :

ــ سمعت أن زوجهـا الأول حضر بعض جلسات المحكمـة فهل يقبـل أن يتسلم الجثة؟

ــ لقد كلتمه في هذا فرفض .

ــ إذن .

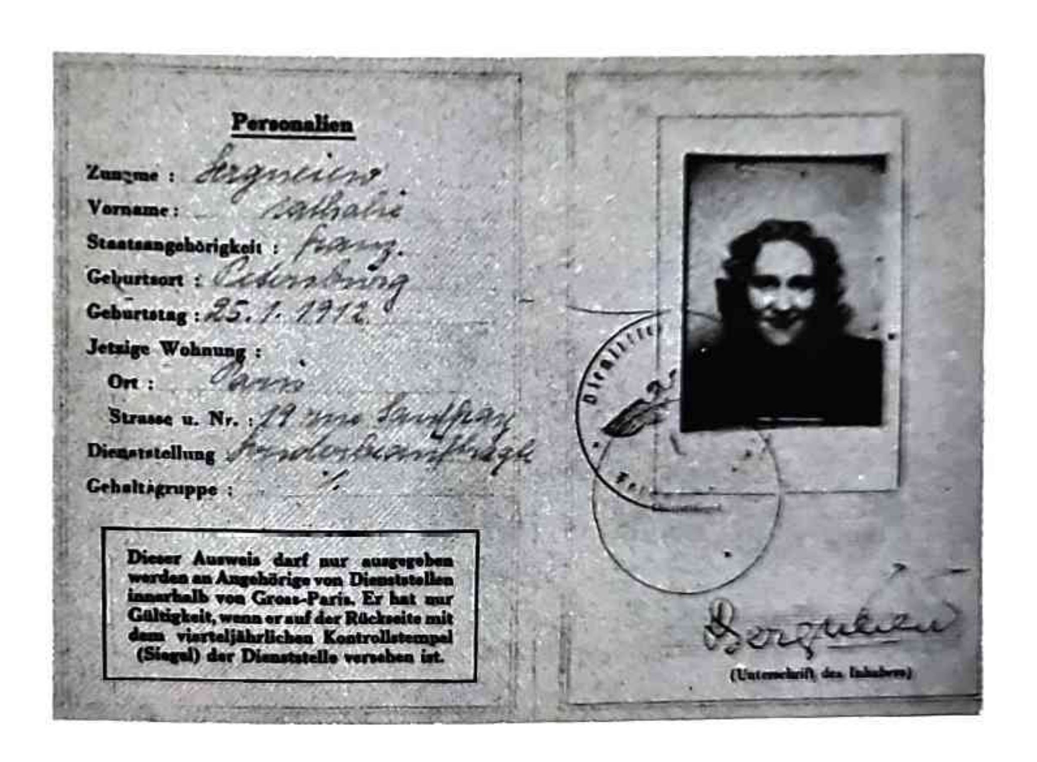
ــ إلى مقابر الحكومة إذن .

ووضعـوا جثة مـاتاهـاري في صندوق وحمله الـرجال إلى عـربة منتـظرة . . جلس عــلى الصندوق رجــان خشنـان . . وزقــزق العصفـور مــرة أخـرى . . ماتاهاري . . ثم طار أمام الجواد الذي يجر العربة كأنما يقوده إلى المقابر . .

ليلى كرانمر



الخدعة الكبرى



Personalien

Zuname :

Vorname :

Staatsangehörigkeit : franz.

Geburtsort :

Geburtstag : 25. 1. 1912.

Jetzige Wohnung :

Ort : Paris

Strasse u. Nr. :

Dienststellung

Gehaltsgruppe : ./.

Dieser Ausweis darf nur ausgegeben werden an Angehörige von Dienststellen innerhalb von Gross-Paris. Er hat nur Gültigkeit, wenn er auf der Rückseite mit dem vierteljährlichen Kontrollstempel (Siegel) der Dienststelle versehen ist.

(Unterschrift des Inhabers)

الخدعة الكبرى

مارس عام ١٩٤٤

أين؟ ومتى؟؟

منذ بداية مارس عام ١٩٤٤ وهذان السؤلان يسربلان هتلر بحيرة قاتلة. .
ليس هتلر وحدة. بل قائد جيوشه العام رونشتد في مقره الأسمنتي تحت الأرض.
يقول في حيرة:

ـ أنا على استعداد لأن أدفع مليون مارك لأي جاسوس يأتيني بالإجابات الصحيحة على السؤالين.

روميل قائد الجبهة الغربية يدفع أكثر من مليون مارك.

ـ أجل. أدفع خمس سنوات من عمري.

متى؟ وأين؟

متى يهاجم الحلفاء أوروبا؟

هل سيهاجمون في الربيع؟ أم سينتظرون إلى الصيف؟

وأين سيكون الهجوم؟

عند سواحل نورماندي؟

عند صخور كاليه؟

يقول رونشتد:

ـ بل في منطقة برنتاني في فرنسا.

ويقول روميل:
ـ لا بل في النرويج . . .

سنة حاسمة في تاريخ البشرية كلها.

كان هتلر يعرف ذلك جيداً ويجهد عبقريته كي تميل كفة الميزان في تلك السنة الحاسمة لصالحه. يقول:

ـ أمامي خياران لا ثالث لهما. الأول أن يهاجمني الحلفاء من الغرب في الربيع وليس في الصيف. وعند نورماندي وليس من عند غيرها من نقط حائط الأطلنطي. فالجيش الروسي يتقدم بسرعة لينقل الحرب على الجبهة الشرقية إلى ألمانيا نفسها. ولا أستطيع أن أوقف تقدمه إلا إذا سحبت دباباتي وطائراتي من الجبهة الغربية. . وبسرعة أيضاً فإن الهجوم الأمريكي الإنجليزي إذا تأخر إلى الصيف فسيكون الصمود أمام الروس مستحيلاً . .

أما الخيار الثاني فهو أن ينجح العلماء الألمان في صنع القنبلة النووية. . عندها لن أحفل بأي هجوم من الشرق أو الغرب. . المهم الآن أن أعرف متى يبدأ الهجوم. . وأين!!

ستار رهيب من السرية ضربه الحلفاء على إجابات هذين السؤالين. . لم يفلح جاسوس ألماني واحد في النفاذ إلى ما وراء ذلك الستار. . وفجأة يقول «الجنرال كليمان» رئيس المخابرات الألمانية للفوهرر الألماني:

ـ عندي الجاسوس المناسب يا فوهرر.

ـ من هو يا جنرال كليمان.

ـ امرأة تدعى ليلى كرانمر.

ـ هل سبق لك استخدامها في إدارتك؟

ـ كلا يافوهرر. إنني حتى لم أتصل بها. . ولكني أعرف أنها تستطيع أن تؤدي المهمة.

ـ حسناً. افعل ما تراه مناسباً. ولكن اذكر أنك مسئول أمامي شخصياً إذا لم أعرف الإجابات الصحيحة خلال شهر واحد. .

قبل أن يتصل الجنرال كليمان بمن تدعى ليلى كرانمر. . دعنا نقرأ بيانات البطاقة الشخصية لهذه الجاسوسة التي تعتبر أشهر وأخطر من عمل في مجال الجاسوسية الرهيب خلال الحرب العالمية الثانية. .

تقول البيانات:

ـ الاسم: ليلى كرانمر.

ـ الجنسية: فرنسية.

ـ السن: خمسة وعشرون عاماً.

ـ الحالة الاجتماعية: غير متزوجة.

ـ العمل: صاحبة ملهى ليلي في بيروت.

ويبقى سؤال هام: لماذا قرر الجنرال كليمان أنها أصلح الجواسيس للحصول على إجابات السؤالين الهامين: متى، وأين؟

يقول كليمان في مذكراته:

كنت في بيروت في يونيو عام ١٩٤٠. . على مائدتي في الملهى الليلي الذي تملكه «ليلى» جلست انتظر أحد جواسيسنا. . وفجأة دخل شاب يرتعد اضطراباً ويصرخ:

ـ لقد استسلمت فرنسا. . يا لها من هزيمة!! يا لها من نكبة!!

ويسود الهرج ويتوقف الرقص ويكف العازفون ويتركون آلاتهم ويلتفون حول الشاب المذعور يسألونه:

ـ أهذا معقول؟

ـ وأين الجيش الإنجليزي؟

ـ لقد توقعت الهزيمة أيها السادة فلم الأسف؟

وتصيح صاحبة الملهى:

ـ لماذا سكتت الموسيقى؟ هل صدقتم هذاالفتى الأحمق؟

ويعود الموسيقيون إلى آلاتهم ويتخاصر الراقصون والراقصات ويقول الشاب لصاحبة الملهى:

ـ صدقيني يا ليلى. صدقيني. لقد استسلمت فرنسا..

ـ كف عن هذا أيها الجبان. بلادنا لا تهزم أيضاً.

وتصفعه في عنف.

ـ وهذه الصفعة لتتعلم ألا تسيء إلى بلادك بالأخبار الكاذبة..

صفعته ليلى صفعة قاسية.. ثم عادت إلى عملها بين موائد رواد الملهى وفي عينيها دموع تترقرق.. من يرى تلك الدموع يظن أنها ثمار سوداء لحزن طاغ سربلها بعار استسلام جيوش بلادها.. ولكني بخبرتي في استشفاف الإنفعالات الحقيقية من الزائفة، أدركت أنها سعيدة جداً في داخلها لهزيمة فرنسا واستسلام جيوشها لقواتنا الألمانية.. وأخذت أتساءل: «لماذا وجواز سفرها يقول أنها فرنسية؟ اسمها ليلى كرانمر.. فهل كان أبوها كارنمر هذا ألماني الجنسية حسب ما يوحي به الاسم؟ أهي جاسوسة إنجليزية؟ ولماذا تلك المظاهر العلنية الرخيصة أمام رواد ملهى ليلى يؤمه ضباط الجيش الفرنسي والإنجليزي؟»

وقررت أن أستجلي حقيقة هذه الفتاة.. إنها ليست جميلة. تقاطيعها من النمط العادي الذي تلقى أمثاله بكثرة في الملاهي الليلية. ولكن ذكاءها الشديد يعطيها جاذبية غير عادية.. ثم أنها لا تتساهل مع من يحاول تجاوز حدود المداعبة المألوفة في تلك الأماكن الصاخبة.. في تلك الليلة كنت ضيفها الوحيد في شقتها الأنيقة. قلت لها قرب الفجر:

ـ ليتني أبقى معك العمر كله يا ليلى.

قالت:

ـ هل أفهم من هذا أنك تعرض علي الزواج؟

ـ الزواج؟ لا ياعزيزتي. أنا رجل لا أصلح لهذا.. عملي يعني الموت في أي لحظة.

ـ جاسوس؟

ـ أخطر من الجاسوس.

ـ ماذا إذن.

ـ ضابط مفرقعات في الجيش الإنجليزي.. عملي أن أنزع فتيل أي قنبلة سقطت ولم تنفجر. أي حركة خاطئة من أصابعي معناها رحلة سريعة إلى العالم الآخر. هل يصلح رجل كهذا للزواج منك يا ليلى؟

ـ ولم لا؟ إذا أحببتك حباً صادقاً فلن تفلت من قيودي الزوجية..

ـ حتى يحدث هذا يا ليلى فلست أري ما يمنع أن نسعد سوياً إلى أن تقضي الحرب على الأخضر واليابس ونحن معها!

ـ بشرط ألا تطلب إلي إغلاق هذا الملهى.

ـ ولم لا؟

ـ سأفعل هذا حين أحبك حباً صادقاً كما قلت لك.. ولكن ليس قبل ذلك..

وتم الاتفاق.. وكما قالت ليلى فيما بعد:

ـ العجيب أن كليمان كان لا يعرف أخطر نقطتين في الموضوع.. الأولى أنني أحببته حقاً من أول لقاء.. والثانية أنني كنت أعرف أنه يعمل في إدارة المخابرات الألمانية.

واعترفت له في ساعة ضعفها بحبها العارم.. ثم برغبتها في العمل تحت رئاسته في التجسس لحساب الألمان.

ـ لقد صدقت يا فريتز حين خمنت أن أبي ألماني الجنسية. ولكني أخفيت ذلك عن الجميع وإلا لما حصلت على رخصة الملهى الليلي من الإدارة الفرنسية ولكني أبغضها وأبغض كل ما يمس فرنسا من قريب أو من بعيد لأن أمي قتلت أبي بالسم لتتزوج بواب البيت الشاب.

قال لها كليمان:

ـ هل تدركين عواقب العمل في هذا الميدان الذي لا يرحم يا ليلى؟

ـ من أجلك أفعل أي شيء.. إنني أجيد خمس لغات بالإضافة إلى الفرنسية.

ـ هل تعرفين أنني قد أتخلى عنك إذا وقعت في أيدي الأعداء؟

ـ أعرف.. هذا واجبك تجاه وطنك..

ـ سيلزم أن تحصلي على تدريب شاق وعنيف على أعمال الجاسوسية.. هل أنت مستعدة لذلك؟

ـ سأتحمل كل المشاق إذا كنت أنت الذي ستدربني.

ـ حسناً. سنبدأ من الغد يا ليلى..

في بيروت، وفي دهاليز الملهى الليلى الذي تملكه الفتاة العاشقة المغامرة بدأ التدريب الشاق العنيف على أعمال الجاسوسية. على طول عامين كاملين.. بالهمسات العاطفية الواعدة، دربها كليمان على كل ما يحتاج إليه جاسوس سيلقى به في أخطر أوكار المعلومات السرية العسكرية المعادية.. قراءة الشفرات المختلفة وحل ألغازها. تعديل الشفرة بما يناسب الموقف، استخدام الحبر السري حتى في حالة عدم وجوده. قال لها كليمان:

ـ الدموع البشرية هي أخطر حبر سري في الوجود.. ولكن استخدامها يحتاج إلى مهارة خاصة. والآن لنرى مكونات دموعك الكيميائية..

من أجل فريتز كليمان تحملت الفتاة العاشقة كل المشاق بما في ذلك

استخدام دموع عينيها كحبر سري للاتصال بقيادتها الألمانية الجديدة. . وقضت الليالي تدرس ما لم تكن تتصور أنها ستدرسه في يوم من الأيام: الاقتصاد السياسي والجغرافيا السياسية، والاستراتيجية العسكرية، وجميع قوانين الحرب، ورتب كل العاملين في المواقع العسكرية المختلفة، وشارات وعلامات جميع الأسلحة من أصغر قارب لخفر السواحل إلى أقل سيارة مصفحة مروراً بالدبابات والمدافع والغواصات والطائرات.

وفي ربيع عام ١٩٤٣ غدت جاهزة لكل الاحتمالات. قال لها كليمان:

ـ لقد أعددنا لك أوراقاً لن يتمكن أعتى ضابط مخابرات إنجليزي من اكتشاف تزويرها. اسمك من اليوم «ماري ستوبر»، عاملة على الآلة الكاتبة في مكتب تاجر العاديات إدوارد كارسون.

سألته:

ـ ومن هو كارسون هذا؟ جاسوس ألماني في خدمتنا؟

وضحك وقال:

ـ ماذا تظنين؟ حذار أن تستسلمي لحبه. إنه شديد الجاذبية وقدرته في هذا المجال هو سر نجاحه مع زوجات الضباط الإنجليز.

ـ إذا كنت تغار يا فريتز فلماذا لا تذهب معي إلى انجلترا لتراقب سلوكي؟

ويضحك وهو يقول لها:

ـ عندي من سيتكفل بهذا دون أية تعليمات مني. زوجة إدوارد كارسون!

فتقول مرحة:

ـ وله زوجة أيضاً، يا لخيبة أملي!

ـ وشديدة الغيرة. . ولكنها من أذكى وأمهر عملائنا. .

قالت في غيرة:

ـ هل أنت الذي دربتها كما دربتني؟

ـ كلا . . اطمئني من هذه الناحية فلم أحب أحد سواك .

ـ متى نتزوج يا كليمان؟ إنني فعلت وسأفعل كل ما تريد كي أسمع الكلمة التي أتوق إليها . . متى يا كليمان؟

ـ فور أن تنتهي هذه الحرب المجنونة . لا أريد أن تعيشي بعدي أرملة حزينة .

وسافرت ليلى كرانمر إلى انجلترا . وبدأت أعجب وأخطر مغامرة جاسوسية في تاريخ الحرب العالمية الثانيه وهدفها العثور على إجابة السؤالين المحيرين :
ـ متى ؟ وأين ؟

☆ ☆ ☆ ☆

متى يهاجم الحلفاء القلعة الأوروبية؟

وأين يكون الهجوم؟

تعليمات كليمان لصاحبته التي شغفت به حباً ، واضحة وصريحة :

ـ أوراقك بالغة التزوير فلا تخشي أن يكتشف حقيقة أمرك أحد بشرط أن تتبعي تعليماتي بمنتهى الدقة . لا تحاولي اتخاذ أي مبادرة غير محسوبة من جانبك قبل استشارتي . لا تتصلي بي مهما بلغت دقة الموقف . أنا الذي سأتصل بك في الوقت المناسب . ستعملين كسكرتيرة في مكتب إدوارد كارسون . كوني قليلة الكلمة معه ومع زوجته . إن عمله لحسابنا لا يعني أنه لن ينقلب في أية لحظة جاسوساً علينا .

في جفاف وبرود استقبلها إدوارد كارسون في بيته . قال لها :

ـ ستقيمين معنا في هذا البيت ولكن لا تتوقعي أية معاملة خاصة . عليك أن تعدي طعامك بنفسك . لا سهر بعد الثامنة ، ولا استقبال لأي صديق أو صديقة .

ـ ليس لي من يهمني أمره غير الجنرال كليمان .

قال في جفاء محذراً:

ـ ولا أسماء أيضاً من فضلك.

ـ وأين سيكون عملي الجديد؟

ـ ينحصر عملك في متابعة وصول شحنات البيض التي نوردها إلى الجيش، حتى مبنى خفر السواحل وتسلم فواتير التوريد من الضابط المختص.

ـ واضح من أنك لم تختر لي مبنى خفر السواحل عبثاً؟

ـ المؤكد أن القبو الكبير لهذا المبنى هو المركز السري للعمليات العسكرية ضد الرايخ الألماني. لا تحاولي التسلل إلى أية غرفة من غرف المبنى. لكل شيء وقته.

ـ إنني لم آت إلى هنا كي..

فقاطعها كارسون:

ـ هذه هي التعليمات فلا تناقشي.

رغم أن تعليمات كليمان كانت تمنعها من اتخاذ أية مبادرة غير محسوبة، فقد شجعتها محاولات ضباط المبنى التقرب إليها على التجول في دهاليزه والتسكع مع المعجبين في الردهات الخالية.. وإرهاف الأذنين لكل كلمة قد تعاون في الوصول إلى إجابة السؤالين الخالدين: أين؟ ومتى؟

وفي إحدى الأمسيات عادت إلى دار كارسون ومعها ضابط إنجليزي شاب.. أجلسته في غرفة الجلوس ودخلت المطبخ تعد له فنجاناً من الشاي.. تبعها كارسون:

قال في همس غاضب:

ـ أيتها الغبية.. لقد حذرتك من إقامة أية علاقة من أي نوع مع الضباط الإنجليز. إن هذا يضعنا تلقائياً في موضع الشبهات.

قابلت غضبه بغضب مماثل :

ـ متى إذن وكيف أؤدي عملي الذي جئت من أجله؟

لا تلمني من فضلك، فقد سئمت تحذيراتك السخيفة . . ومن الغد سأبحث لي عن مسكن خاص.

ـ إنك بهذا تخالفين تعليمات القيادة .

ـ إنني أتلقى تعليماتي من شخص واحد وأنت تعرف من هو. .

ـ حسناً. سأتصل بعد خروج ضابطك هذا بالشخص «الواحد» الذي تعترفين بتعليماته.

في لهفة قالت ليلى :

ـ أهو هنا؟ فريتز في لندن؟

ـ أيتها التعسة . . ألم أحذرك من ذكر الأسماء؟ لن يكون القبض عليك وإعدامك مفاجأة لأحد في برلين مع هذا التهور والغباء!

في اليوم التالي وصلتها تعليمات واضحة بالراديو من كليمان :

ـ إنك تتصرفين بتهور. سيحصل لك كارسون على تأشيرة لدخول البرتغال. بسبب حياد البرتغال أستطيع أن أقابلك في السادس من نوفمبر في لشبونة.

كانت تريد قبل لقاء حبيب القلب أن تجمع بعض المعلومات الهامة كهدية الشوق الظمآن. في اندفاع وتهور تسللت إلى الدرج المؤدي إلى القبو الكبير وأيقنت من تلك الزيارة السريعة أن كل خطط الغزو المنتظر تصنع في ذلك القبو . وحين قابلت حبيبها كليمان في أحد فنادق لشبونة ، حكت له عما فعلت فسألها:

ـ ولماذا تؤكدين أن كل شيء في ذلك القبو في مبنى خفر السواحل؟

ـ لأنهم لا يسمحون لأحد بالاقتراب من الدرج المؤدي إليه. لا أحد يهبط

لتنظيف حجرات ذلك القبو. لا أحد.

ـ هل يؤمه كبار الضباط؟

ـ هذا ما لا أعرفه حتى الآن. ولكني سوف أعرف.

ـ لا يا ليلى. . لا تحاولي ذلك الآن.

ـ لقد أرسلتني إلى لندن لهذا فكيف تمنعني الآن.

ـ لأن المخابرات الإنجليزية في أوج نشاطها هذه الأيام. أكثر من عشرين عميلاً من رجالنا وقعوا في قبضة المخابرات الإنجليزية وأعدموهم. آخر القرارات السرية التي أصدرها تشرشل تقضي بوضع أجهزة تصنت في جميع السفارات الأجنبية في لندن. عربات التصنت قسمت المدينة إلى عشرة أقسام يتم المرور عليها بأدق الأجهزة على مدار الساعة. لهذا السبب قررنا استدعاء كارسون وزوجته. إنه من فرط حرصه على عدم الاتصال بجيرانه قد بدأ يثير ريبة المخابرات الإنجليزية.

ـ يا إلهي. كيف تعرف كل هذا يا فريتز وأنت في برلين؟

ـ هذا عملي يا حبيبتي. . والآن دعينا من العمل. عندي لك خبر سيسرك.

ـ رقاك هتلر إلى رتبة أعلى؟ ماريشال؟

ـ كلا. . كلا. . أهم من الرتبة. .

ـ ماذا؟

ـ لقد عزمت على أن أتزوجك.

ـ أمعقول هذا؟

في مرح قال كليمان:

ـ أقبلي بسرعة قبل أن أعدل عن رأيي. .


?
AUX CHEVAUX MAIGRE
VONT LES MOUCHES.

قالت في لهفة:

ـ لنذهب الآن إلى أقرب كنيسة.

سكتت لحظة ثم قالت في دهشة:

ـ فريتز، لماذا تحمست فجأة لفكرة الزواج؟

ـ لأني سأعيدك إلى برلين.. لن أدعك تعملين في ميدان الجاسوسية. إنه أخطر ما تتصورين يا ليلى. ولا أريد أن أفقدك..

ـ لا يا فريز. لقد وعدت هلتر بأن تأتيه بالإجابات كلها. لا تضيع مستقبلك من أجلي.. سنبقي مشروعنا اللطيف إلى ما بعد انتهاء هذه الحرب المسعورة.

ـ ليلى.. لقد كنت لا تكفين عن مطالبتي بالزواج!! ماذا جرى؟! أهناك رجل آخر؟ ضابط بريطاني وسيم مثلاً؟

ـ لا أحد سواك يا حبيبي. دعني أعود إلى لندن. في أقل من شهر سأحصل لك على كل ما تريد..، بعدها سأدعك تحملني إلى أقرب كنيسة..

ودعها في الصباح وتركها في الفندق إلى أن يقترب موعد طائرتها.. في الحادية عشرة خرجت إلى الشارع.. عند الناصية أشارت إلى سائق إحدى سيارات الأجرة. قالت له:

ـ المطار من فضلك..

ما أن ركبت السيارة حتى فوجئت بمن دخل من الباب الآخر وأغلقه خلفه ووضع فوهة المسدس في ضلوعها.. صاحت:

ـ من أنت وماذا تريد؟

قال الرجل:

ـ كفي عن الكلام إذا أردت أن تعيشي بقية اليوم..

ـ ماذا تريد؟

ـ ستعرفين بعد قليل.

ـ إني ذاهبة إلى المطار. .

ـ وأنا لست ذاهباً إلى المطار. . ولا أنت أيضاً.

أخذها السائق ومن كان في المقعد الخلفي بالسيارة، إلى حارة مهجورة وأدخلاها بيتاً قديماً من بيوت حي الفقراء شرقي لشبونة. . قيداها ثم تركاها دون طعام أو شراب يومين كاملين. في مساء اليوم الثالث جاءها رجل السيارة.

ـ والآن أريد كل الإجابات دون مواربة. . لماذا جئت إلى لشبونة من لندن؟

ـ لاستيراد كميات من البيض. . اقرأ الأوراق التي معي. . كلها واضحة و. . . .

ـ لماذا إذن قابلت في فندق «حدوة الحصان» الجنرال كليمان؟ لست في حاجة إلى أن أقول لك من هو كليمان. أنت تعرفين بالطبع. .

ـ ما هذا التخريف؟ لا أعرف أحداً بهذا الاسم.

ـ حسناً. دعيني أكون صريحاً معك. . إننا، أعني المخابرات الإنجليزية، نراقبك منذ شهرين. . إنك جاسوسة ألمانية وإذا لم تعملي معنا فلا مفر من نقلك إلى لندن. . الباقي معروف. .

ـ لماذا بحق السماء إذن لا تدعني أسافر إلى لندن بالطائرة؟ هناك تستطيع أن تفعل بي ما تشاء. . أما الآن فإني جائعة ومتعبة ولم أعد أحتمل هذه السخافات التي تتكلم عنها.

عبثاً حاول الرجل أن يحصل منها على اعتراف صريح أو ضمني بعملها في الجاسوسية الألمانية. . وعبثاً حاول ضمها إلى المخابرات الإنجليزية رغم الإغراءات المذهلة التي عرضها عليها. . وأخيراً اضطر إلى الإفراج عنها فعادت إلى لندن بالطائرة. . بعد وصولها بساعات اتصلت لاسلكياً بكليمان. قال لها:

ـ معـذرة حبيبتي لما فعله بـك رجـالي. كـان لابـد من أن أخضـع لضغط رجـال مكتبي الـذين ظنـوا أنـك انقلبت علينـا وعملـت لحسـاب الانجلـيز. أكـرر أسفي. ثقتي بك الآن مطلقة..

صاحت في الجهاز:

ـ ماذا؟ إذن فهم رجالك الذين فعلوا بي ما فعلوا!!؟

قال:

ـ رغم أنفي يا ليلى.. تلك كانت أوامر القيادة لاختبارك الاختبار النهائي.

رغم غضبها فقد أرادت أن تثبت لحبيب القلب أن الخيانة لم ولن تخـطر لها على بال.. ما مر شهـر حتى كانت قـد تمكنت فعلاً من التسلل إلى القبـو الرهيب والحصول على بعض الإجابات الغـامضة.. في بيت إدوارد كـارسون وفي الغـرفة المصمتة التي اعتادت أن تبعث منها رسائلها الشفرية إلى كليمان في برلين، جلست أمام الجهاز ومعها كارسون..

ـ من ليلى كرانمر إلى س.س. من ليلى كرانمر إلى س.س. س.س. يستمع..

ـ معلومات اليوم بالغة الخطر.. لقد..

ثم توقفت عن الإرسال وصاحت في رعب وهي تضع كفيها على عينيها:

ـ كارسون.. كارسون؟

ـ ماذا هناك يا ليلى؟ لماذا وضعت كفك على عينيك؟

ـ كارسون.. لست أرى شيئاً. لا أرى شيئاً.. أظلمت الدنيا أمامي فجأة.

ـ ذلك لأن العتمة تسود الغرفة.

ـ لا.. لا.. لقد.. لقد فقدت البصر. لم أعد أرى أي شيء.. يا إلهي.. لماذا يحدث لي هذا؟ لماذا؟

وكان لابد أن يتابع كارسون الإرسال:

ـ من كارسون إلى س. س.

ـ لماذا توقفتم عن الإرسال؟ ماذا حدث؟

ـ شيء أصاب ليلى في بصرها. سنتوقف الآن. نتصل بكم غداً. .

وحملت إلى المستشفى. وقال الأطباء أنها تعرضت لصدمة عصبية مفاجئة. ولكنهم لم يعطوها أملاً كبيراً في الشفاء. . وعاد كارسون ليتصل بحذر شديد بكليمان:

ـ من كارسون إلى س. س. ليلى مريضة بالمستشفى. طلبت أن أبعث إليكم بالآتي: **الهجوم المنتظر سيقع في سبتمبر القادم عند منطقة كاليه سأتصل بكم غدا في نفس الموعد.**

ولكنه لم يتصل بكليمان لا في الغد ولا بعد الغد. وعلم كليمان أن المخابرات الإنجليزية قد قبضت عليه وعلى ليلى كرانمر رغم أنها فقدت بصرها تماماً. ذهب كليمان إلى الدكتور جوبلز وزير الإعلام في الرايخ الألماني:

ـ يجب أن نفعل المستحيل لإنقاذ ليلى كرانمر. لا نملك أن نفقدها. . أرجوك دكتور جوبلز. أنت الوحيد الذي تملك إقناع الفوهرر بهذا؟

قال جوبلز:

ـ جنرال كليمان. لقد أدت ليلى كرانمر دورها. لماذا نعرض الجهاز كله لمخاطر لزوم لها؟

ـ ليفوضني الفوهرر في هذا وأتعهد بحياتي ألا يتعرض جهاز المخابرات الألمانية لأي خطر.

ـ أتحبها إلى هذا الحد؟

ـ أجل. . أجل. . ثم. . ثم أن من حقها بعد كل ما فعلت من أجل ألمانيا أن ننقذها من الإعدام. .

ـ وكيف ننقذها يا عزيزي كليمان؟

ـ لدينا في السجون كثير من عملاء المخابرات الإنجليزية. لنعطهم ثلاثة يختارونهم كما يشاؤون مقابل ليلى كرانمر. . أرجوك.

ـ حسناً. . سأحاول إقناع الفوهرر. . ولكني بصراحة أعرف إجابته سلفاً. . الرفض.

ورفض هتلر كما توقع جوبلز إجراء أي تبادل للجواسيس الإنجليز مقابل الإفراج عن ليلى كرانمر. لماذا كل هذه الضجة من أجل جاسوسة أدت دورها بالأجر المتعارف عليه؟ ورغم هذا فقد عصى كليمان هتلر وأجرى اتصالات على أكبر قدر من السرية مع المخابرات الإنجليزية بهدف إنقاذ حبيبة القلب. ولكن الرد الحاسم أصابه بذهول رهيب:

ـ لقد أعدمت ليلى كرانمر منذ ثلاثة أيام جنباً إلى جنب مع إدوارد كارسون ولم يشفع لها أنها لم تسترد بصرها.

وأخذ هتلر على ضوء ما وصلت إليه ليلى كرانمر قبل إعدامها، يعد عدته لصد الهجوم المتوقع في الخريف عند كاليه.

ولكن الضربة جاءت قبل ذلك بأربعة شهور. . وفي غير المكان الذي ذكرته ليلى. . أخذه الهجوم على غرة وعلى غير استعداد يوم السادس من يونيو عام ١٩٤٤. . وعند نورماندي وليس عند كاليه.

ثم كانت المفاجأة الكبرى حين قدم فريتز كليمان للمحاكمة في نورمبرج كمجرم حرب. في القاعة التفت مذعوراً كأنما شكه مسمار محمي. . رأى ليلى كرانمر تجلس مرحة في مقاعد الصحفيين. لم تكن تبتسم له بسمتها التي سحرته زمناً. . ولم تكن عمياء. . لم ير في عينيها ذلك الحب العميق الذي كان يراه دائماً. . ليس فيهما الآن غير البغض والكراهية والمقت. قالت في شهادتها:

ـ لقد كنت أعمل قبل أن ألقاه في خدمة مخابرات الحلفاء. منذ أول زيارة له

للملهى الليلي الذي كنت أملكه في بيروت وأنا أترصد له. . بينما ظن التعس أنه استطاع أن يأسرني ويخلب لبي بوسامته. . كنت أريد أن أخدع زعيمه بأي ثمن فتحملت إلحاحه علي بحبه البغيض. وتوقعت أن يكتشف سري في أي لحظة. . ولكنه كان من الغفلة بحيث عمى عن رؤية ما في أعماقي من كراهية له. . حمداً لله على أن هتلر صدق ما نقلته إليه عن موعد ومكان هجوم الحلفاء.

إذا كانت ليلى كرانمر قد أجابت بأسلوبها على السؤالين الهامين الذين شغلا الجهاز العسكري النازي كله. أين؟ ومتى؟

فلا أحد ـ حتى الآن على الأقل ـ أجاب على هذا السؤال:

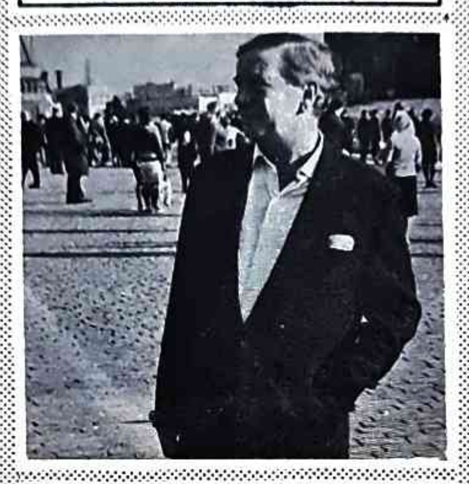
ــ من الذي قتل ليلى كرانمر خنقاً في شقتها الأنيقة بلندن ليلة الثامن من مارس عام ١٩٥٠.

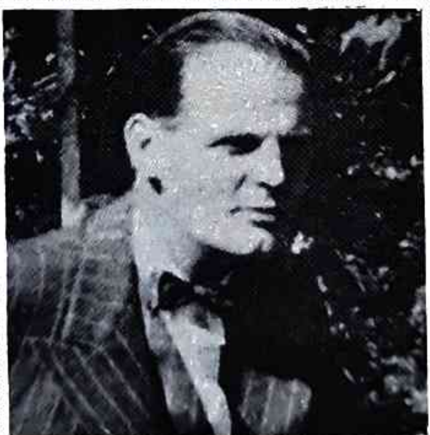
☆ ☆ ☆ ☆

هارولد فيلباي

دونالد ماكلين

وليم بيرجس







حاميها ...

حراميها!



كيم مع لورد بالفور



زوجة دونالد ماكلين واطفالها

حاميها...
حراميها!

قصة يمكن أن ترسم أحداثها ريشة الروائية أجاثا كريستي أو قلم سيمونيون أو همنجواي..

ولكن أن تتحقق على أرض الواقع!؟؟

مستحيل!

ولكن المستحيل تحقق ذات يوم!

إنجليزي على قدر رفيع من الثقافة وتاريخ طويل من التجربة.. من تلاميذ كامبريدج القدامى.. ثري مرموق وعضو في أكبر أندية لندن الرياضية والاجتماعية.. ويجلس على قمة جهاز المخابرات البريطاني..

ومع هذا فقد ظل لسنوات طوال عميلاً للمخابرات السوفيتية!

كيف تحقق هذا «المستحيل»؟

قصا بالغة الإثارة.. ومع هذا فليس فيها ذرة من خيال..

ولنر أحداثها من البداية..

البداية كانت عام ١٩٢٩..

ولكن العالم لم يدر بها إلا صباح السابع من يونيو عام ١٩٥١... الصحف اللندنية تنشر في ذلك الصباح المشمس البديع بعناوين كبيرة تشغل الصفحات الأولى كلها:

ـ اختفاء اثنان من كبار موظفي وزارة الخارجية.

ـ موظف كبير يشغل منصباً بالغ الأهمية ومن «أكبر» المتخصصين في عمله الخطير، يفر إلى موسكو عن طريق باريس.

ـ مراقبة جميع المطارات والموانىء البريطانية تحسباً لفرار موظف آخر يشغل أخطر المناصب في المخابرات الإنجليزية.

ـ إليكم أسماء الموظفين الثلاثة الذين التجئوا إلى موسكو: هارولد رسل فيلباي، دونالد ماكلين ووليم جي بيرجس.

في ذلك اليوم المشرق البديع من أيام الربيع اللندني انفجرت قنبلة التجس الشهيرة.. قصة كيم فيلباي وزميليه..

أبطال القصة كما رأينا ثلاثة..

هاهو أولهم يقدم لنا نفسه ويعطينا فكرة عن زميليه:

ـ يمكنك يا عزيزي أن تدعوني «كيم» Kim

هذا هو الاسم الذي كنت أنادي به في كل مكان. أما زميلاي فهما..

نقاطعه:

ـ معذرة يا سيد كيم فيلباي.. همنا اليوم إليك وحدك. وقد نفرغ لزميليك إذا اتسع الوقت.

قال:

ـ لا بأس بهذا. ولكن الصورة العامة لن تكتمل أمامك إلا بوجودهما.. لهذا لا مفر من أن تتعرف عليهما أيضاً.

ـ لنبدأ بك على أي حال.. لماذا أطلقت على نفسك كيم؟ الذي أعرفه أن «كيم» اسم شخصية رئيسية في إحدى روايات «كبلنج».

ـ أجل. كان أبي من أشد المعجبين بالروائي الإنجليزي كبلنج، وهو الذي

اختار لي اسم بطل الرواية «كيم». وقد تمسكت بالاسم رغم أنني لم أكن على اتفاق مع أبي في أشياء كثيرة!!

ـ كنت تبغض أباك؟ هذا ما قاله أحد الصحفيين!!

ـ لم أكن أبغضه.. ولكني أيضاً لم أكن أحبه. كان ذا ميول استعمارية.. ولقد لعب دوراً غير نظيف في بلادكم العربية في أثناء الحرب العالمية الأولى، وكون ثروة ملوثة بدماء الأحرار..

ـ لقد ورثت هذه الثروة واستمتعت بها يا سيد كيم رغم هذا!

قال دون أدنى خجل:

ـ لا أنكر هذا، ولا أرى في ذلك أي عيب.. في المرحلة الأولى من عمري على أي حال.. التحقت بجامعة كامبريدج في أكتوبر من عام ١٩٢٩. كنت تلميذاً طيعاً أشارك في النشاطات الرياضية وأصادق الكثيرين من الفتيان والفتيات.. كنت نموذجاً لتلميذ كامبريدج، إلى أن جاء في العام التالي أول أصدقائي الحقيقيين «وليم بيرجس». زارني في غرفتي بالجامعة وقال مرحا:

ـ إذن فأنت كيم فيلباي؟ من حسن حظي أنهم خصصوا لي الغرفة المجاورة لغرفتك.. كف بحق السماء عن تدخين هذا الغليون فلست أطيق رائحة الطباق العفنة..

قلت له:

ـ وأنت كما علمت «وليم جي بيرجس» ابن وزير العدل السابق في وزارة الأحرار!

ـ تماماً.. هل أنت رئيس جواسيس كامبريدج؟؟ كيف علمت هذا عني!؟

قلت لا أخفي السخرية به:

ـ سمعتك تفخر بهذا في المطعم أمس.. كانت سعادتك أكثر حين أطرى التلاميذ وسامتك ولون عينيك! أي إنسان أنت!! رجل أم فتاة؟!

ويقول لا يأبه بما في صوتي من سخرية بسلوكه المريب:

ـ يا عزيزي. لا عيب في أن يكون الفتى وسيماً جميلاً، ساحر العينين أنيق المظهر.. المهم.. أريد أن أكون صديقك الحميم وليس مجرد زميلك في الكلية.

ـ إن هذا يسعدني.. خاصة إذا كففت عن التباهي بوسامتك ومركز أبيك السابق.

ضحك وقال:

ـ اللعنة على أبي.. إني أكرهه.. أحسب أنك تكره أباك أنت الآخر.. إن هذا يذكرني بقول شكسبير «دلوني على رجل واحد لا يبغض أباه» دعنا من الآباء.. إنهم سخفاء..

ـ لن تجد من يوافقنا هنا على هذا الرأي..

ـ لا يهم.. المهم أنك أنت توافقني.. بل أعتقد أنك أيضاً تشاركني آرائي السياسية!

ـ هل أنت فوضوي؟

ـ أنا أومن بالمبادىء الماركسية..

ـ وأنا لا أكرهها.. ولكن إذا تحركت حكوماتنا لتفعل شيئاً للطبقات الكادحة فسوف أعلن فشل الماركسية في بلادي.. البطالة تتفشى في كل المدن.. الأزمة الاقتصادية تأخذ بخناق الجميع.. الجوع يحكم انجلترا يا بيرجس..

ـ إذن يجب أن نعمل شيئاً! ولكن ما هو؟ دعنا نفكر..

قلنا لكيم فيلباي:

ـ صداقة مفاجئة عاصفة يا سيد كيم.. فيم فكرتما؟ وماذا فعلتما؟ قال لك صديقك «**يجب أن نعمل شيئاً**» فهل وافقته على الخروج من دائرة التفكير إلى دائرة العمل؟

قال كيم:

ـ أجل. نظمنا مسيرة للتلاميذ انضم إليها فقراء لندن.

ـ من المؤكد أنك فصلت مع زميلك من كامبريدج!

ـ كلا يا سيدي. لم تكن الحكومة تخشى التسربات الشيوعية.. ولكنها لم تكن تدري أن الخلايا قد بدأت تتكون في أماكن كثيرة.. أعتقد أنني أول من أسس خلية شيوعية في كامبريدج.. صارت لنا صحيفة خاصة تحمل عنواناً مدرسياً «صوت الطلبة»..

ـ ومن كان يمولها؟! السفارة الروسية في لندن؟

ـ كلا يا سيدي. السفارة الروسية لم تشأ أن تتدخل لتؤيد ثلة من التلاميذ لا أمان لهم.. ولكن صدقني، لقد كنا نحصل على التأييد المادي من بعض المنظمات الصهيونية في لندن بل من خزانة لورد روتشيلد الصهيوني الكبير..

قلنا في سخرية:

ـ بالطبع كان كل همكم هو تحسين أحوال الفقراء في انجلترا؟

قال:

ـ هذا كان همي أنا.. أما زميلي وصديقي «بيرجس» فقد صارحني دون حرج ودون خوف أيضاً، قائلاً وهو يضحك في مرحه الذي اعتدته منه:

ـ أتعرف يا كيم!! إنني أود أن أكون جاسوساً!

ولم أفزع من المفاجأة. كنت كالذي ينتظرها فسألته:

ـ جاسوس لمن؟

قال:

ـ للاتحاد السوفيتي بالطبع.

ـ هل اتصل بك أحد منهم؟

ـ أبداً. . ولكن المنطق يقول أن هذا هـو المصير. . فلماذا نعـاند القـدر؟ أنا عـلى استعداد لأن أنقل إلى المخابرات الروسية أية معلومات تستـطيع الإفـادة منها. لماذا لا تشاركني هذا المصير يا كيم؟

وعدنا نسأل الرجل الذي لعب دوراً بالغ الخطر في حرب الجواسيس:

ـ وكيف كانت استجابتك لهذا الرأي الغريب من زميلك وصديقك بيرجس؟

قال كيم:

ـ صدقني إذا قلت لك أنني استجبت إليه على الفـور. . كنا نعتقـد أن لنا رسـالة قدرية وأن من الجبن التقاعس عن أدائها!

ـ أنت ترى إذن أن التجسس على بلادك لحساب دولة أخرى رسالة قدرية؟

ـ لكل رأيه يا سيدي!

ـ الكفـر بالله رأي هـو الآخر يـا سيدي. . ولكنـه رأي إبليس. . وكيف بـدأتم العمل كجاسوسين؟

ـ بدأنا بأول بيان ذي صيغة اشتراكية صدر عن طلبة جامعـة كامـبريدج قلنـا فيه من بين ما قلنا:

«إننا نرفض تأدية الخدمة العسكرية لأن الحكومة تصر على عدم تحسـين أحوال الأهالي، نرفض القتال من أجل ملك يـرى حال الفقـراء ولا يحاول أن يفعـل شيئـاً من أجلهم. . ومن أجل حكـومة تـرفض قوانـين الإصلاح للدفـاع عن مصالح الوزراء والسادة اللوردات أصحاب الضياع»!

ـ من المؤكد أنهم قبضوا عليكم بعد صدور هذا البيان!

ـ كلا. . كانت هذه كلمات هينة لينة بجانب ما كان يقوله «موزلي» رئيس الحزب النازي البريطاني. .

ـ وأيكم كان زعيم الخلية؟ أنت أم بيرجس؟

ـ أنا . . ولهذا حين أراد صديقنا الثالث «دونالد ماكلين» أن ينضم إلى الخلية لجأ إلي وحدي . جاءني ذلت ليلة في غرفتي وفاجأني بقوله :

ـ يا زميلي العزيز. إني أعرف أنك زعيم الخلية هنا . ودون لف ودوران أقول لك أنني ماركسي دماً ولحماً وأريد أن أنضم إليكم . . من المؤكد أنك تريد أن تعرف خلفياتي . حسناً . إليك هذا الكتاب . لقد نشرته في لندن عن . . ومع هذا أقرأ العنوان فهو خير تعبير عما في الداخل .

وقرأت عنوان الكتاب . كان مثيراً حقاً :

«أسرع وأنجح الوسائل في حل مشكلة الفقر البريطانية»!

قال لي ماكلين وهو يناولنا كتيباً صغيراً :

ـ الكتاب شرح للتطبيق العملي لنظريات ماركس حسب ظروف بلادنا . . هذا الكتيب أيضاً . . به ثلاث مقالات عن ضرورة إلغاء حكم الإعدام .

سألته :

ـ ما اسمك يا صديقي؟

ـ دونالد ماكلين . . لست أريد فقط أن أكون عضواً في الخلية . . بل أريد أن أكون صديقك وصديق وليم بيرجس الوسيم!

قلنا للجاسوس الشهير كيم فيلباي :

ـ من عجب أنكم أنتم الثلاثة بلغتم فيها بعد أخطر المناصب في أخطر الأجهزة . . أنت في رئاسة مكافحة الجاسوسية . . وبيرجس وماكلين في وزارة الخارجية . . كيف حدث هذا ولكم هذا الماضي العجيب؟

قال :

ـ دعني أبدأ بنفسي يا سيدي . بعد أن غادرت الكلية . . وكان ذلك عام ١٩٣٤ سافرت إلى فيينا «للنزهة» . .

ـ للنزهة أو للاتصال بالخلايا الشيوعية الأخرى؟

ـ صدقني إذا قلت لك أنني لم أتصل حتى تلك الزيارة بأي مخلوق يتبع المخابرات السوفيتية أو يعمل لحسابها . . ومن جانبهم لم يحاول أحد الاتصال بي . . ولكن الزيارة لعبت دوراً كبيراً حاسماً في حياتي فقد تعرفت على فتاة صهيونية تدعى ليتز Litz . أحببتها وأحبتني وأشركتني في نشاطها . . ثم قدمتني لأول مرة لأحد المسئولين في مكتب المخابرات السوفيتية في النمسا . .

ـ من ذلك الوقت صرت «عميلاً» رسمياً للمخابرات السوفيتية؟

ـ أنا وليتز . . كانت ليتز هي التي تقوم بالاتصالات كلها في أول الأمر ثم تنقل إلي التعليمات . قالت لي ذات يوم :

ـ كيم . مهمتك محددة واضحة المعالم فلا تخذلهم .

سألتها :

ـ وما هي تلك المهمة يا ليتز؟

ـ أن تتسلل إلى قلب مراكز المعلومات البريطانية .

ـ ليتز! هذا مستحيل تقريباً . مراكز المعلومات البريطانية!

ضحكت ليتز وقالت :

ـ لا تفزع يا كيم . المسألة أبسط مما تتصور . إنك متخرج حديثاً من كامبريدج، وحين تعود إلى لندن ستبحث عن وظيفة كالعادة . . حسناً . لتكن تلك الوظيفة في مركز من مراكز المعلومات . . وما أكثرها . .

ـ لن يضعوني في أية وظيفة في تلك المراكز وسجلي القديم يقول بوضوح «إن لي ميولاً ماركسية»!

قالت ليتز:

ـ لا أحد يستعجل الأمور . . العمل المباشر السريع غير مطلوب على الإطلاق . . كل ما هو مطلوب منك أن تخلق الظروف المناسبة التي تهيىء لك الوصول إلى

وظيفة في أحد هذه المراكز. . عنصر الزمن غير هام. . خذ كل ما تريد من سنوات. كن صبوراً. . وبعيد النظرة. . اعمل في دأب ولكن في صبر وحذر. . وكما قلت لك. . لا أحد يستعجل الأمور!

قلنا له:

ـ كان لهذه الصهيونية تأثير كبير عليك يا سيد كيم!

قال كيم:

ـ تأثير السحر. . تزوجتها في فيينا وعادت معي لتباشر نشاطها الصهيوني على الخصوص في لندن.

ـ وأنت؟ ما هي الوظيفة التي فكرت في الالتحاق بها؟

ـ تقدمت إلى وظيفة «مذيع محرر» في الإذاعة البريطانية. . (بي بي سي) ومع مرور الأيام صرت من أشهر المذيعين، وأكثرهم تحريراً للتعليقات السياسية على الأنباء. . في تلك السنوات السابقة على الحرب كانت هيئة الإذاعة البريطانية مركزاً بالغ الأهمية من مراكز المعلومات. . بدأت من عام ١٩٣٧ أنقل إلى الروس كل ما أراه ذا خطر من المعلومات التي تضمها ملفات الإذاعة. . ذات يوم دخل علي مكتبي صديقي القديم بيرجس وقال وهو يضحك ضحكته المجلجلة.

ـ لقد صرت عميلاً صريحاً في الكومنترن يا صديقي. . قبلني. . هنئني! وأنت؟ لماذا لا تدعني أرد لك الجميل؟

حذرته همساً:

ـ هل جننت يا بيرجس؟ لو بلغ صوتك إلى رؤسائي حوكمنا سوياً!

قال لا يبالي:

ـ ولماذا نحاكم أيها الأبله؟! العلاقات بين روسيا وبريطانيا سمن وعسل!



فيلباي في موسكو



فيلباي قبل فراره

ـ ولكن كيف قبلوا عضويتك وأنت بلا عمل حكومي تقريباً!؟

ـ إذن فأنت لا تدري؟!

ـ أدري ماذا؟

ـ لقد ألحقوني بعمل بالغ الأهمية. أنا الآن موظف في وزارة الخارجية البريطانية.. وأين؟ في مكتب «**الدعاية والرقابة**» ولقد تسلمت عملي منذ شهر.. كيف لم تعلم؟

ـ كنت في شغل لأني سأذهب إلى اسبانيا مندوباً عن الإذاعة لتغطية إنهاء الحرب الأسبانية..

ـ أما أنا فعملي في مكتب الدعاية والرقابة يمكنني من إمداد «أصدقائنا» بأدق المعلومات.. تصور.. حتى أسماء الجواسيس الإنجليز العاملين في روسيا، أبلغتها إلى أصدقائنا!! وبعد هذا تقول «كيف قبلوا عضويتي؟».

سألته:

ـ وصديقنا ماكلين!؟ ترى هل وجد له عملاً مماثلاً؟

قال بيرجس:

ـ ماكلين عين في وظيفة إدارية في سفارة بريطانيا في باريس.. التحق هو الآخر بالكومنترن! يا إلهي.. الآن وقد أصبح في إمكاننا أن نؤدي خدمة حقيقية لأصدقائنا في موسكو، يلزم أن نحتفل بهذا التوفيق.. سمعت أن لك زوجة جميلة..؟ عسى ألا تكون متزمتة.. أنت تعرف ما أعني.

ـ إنها صهيونية يا عزيزي!

ضحك بيرجس وقال:

ـ حقاً! إذن فلن أخشى تزمتها.. المهم أن تكون أنت أيضاً واسع الأفق!

واستتلى فيلباي قائلاً لنا:

ـ كما قلت لك يا سيدي، استطعت من موقعي في الإذاعة البريطانية الـ بي. بي. سي.، كمذيع محرر أن أمد أصدقائي السوفييت بما أحصل عليه من الملفات السرية من معلومات، وكان عملي من شقين:

الأول وهو الذي لا يدري عنه أحد من زملائي أو رؤسائي شيئاً وينحصر في تصوير المستندات السرية من ملفات القسم السياسي في الإذاعة وإرساله إلى أصدقائنا.. والثاني وهو ظاهرياً يتعارض تماماً مع الشق الأول..

ـ كيف يا سيد كيم؟

ـ كنت بعد أن حزت ثقة رؤسائي، أقوم بكتابة التعليق على الأنباء، وأحمل في ذلك التعليق حملة شعواء على الإتحاد السوفييتي مما يبعد عني الشكوك تماماً.

ـ سنعود إلى هذه النقطة بالذات يا سيد كيم بعد لحظة.. ولكني أحب الآن أن أسألك عن مدى تأثير زوجتك الصهيونية «ليتز» على هذا النشاط المزدوج؟

ـ سيدي. ليتز لم يكن يهمها إلا مسألة واحدة.. وهي كيف تفيد الصهيونية العالمية من نشاطي ونشاط زميلي بيرجس وماكلين.. كانت تطالبني هي الأخرى بأن أمدها بما في الملفات السرية بالإذاعة عن نشاطات رجال السياسة الإنجليز في القضية الفلسطينية. وأعتقد أنها لم تقم علاقتها الآثمة من خلف ظهري مع صديقي بيرجس إلا ليمدها بدوره بما في ملفات وزارة الخارجية البريطانية بعد أن صار موظفاً مرموقاً بها.

ـ إذن فقد صرتم أنتم الأصدقاء الثلاثة في مراكز تسمح لكم بإمداد المخابرات السوفيتية بما أؤتمنتم عليه؟

ـ تماما يا سيدي.

ـ ومتى ثارت الشكوك حولك يا سيد كيم؟

ـ لم تثر حولي أية شكوك!

ـ كيف وفي خلفيتك ما يثير كل الشكوك؟ لقد كنت في جامعة كمبريدج رئيس خلية اشتراكية متطرفة. . ونظمت أكثر من مظاهرة، وحرضت في منشورات كثيرة على الإضراب! وكل هذا كان في ملفك.

قال كيم:

ـ لقد غطى حماسي في مهاجمة الشيوعية في تعليقاتي الإذاعية على كل ما كان في ماضي القريب من شوائب من هذا اللون. . صرت معروفاً بين زملائي ورؤسائي بأنني من «اليمين المتطرف»! ولهذا كنت أول من رُشح لمهمة بالغة الخطورة في أسبانيا. . قال لي سير بالفور:

ـ لن تتمكن يا عزيزي فيلباي من أن تصطحب زوجتك ليتز في هذه المهمة. . فيجب أن تعرف من الآن ودون مواربة أنك قد لا تعود حياً من أسبانيا، فالحرب الأهلية على أشدها. وإذا وقعت في أيدي الفيالق الضالعة مع الشيوعية فستعدم على الفور.

قلت له:

ـ أعرف يا سير بالفور.

ـ وربما تعدم أيضاً إذا لم ترق تعليقاتك التي سترسل بها إلينا، للجنرال فرانكو!

فضحكت وقلت له:

ـ أي أنني ميت في الحالين؟! مرة أمام طابور النار اليساري. . وأخرى أمام طوبور النار اليميني!

ولم يضحك الوزير الداهية وقال:

ـ نريد معلومات صادقة وتعليقات محايدة. . أنت تعرف يا فيلباي أننا على علاقة طيبة بكل القوى المتحاربة هناك. . بما في ذلك الجناح الألماني أيضاً. . لا نريد إغضاب أحد. . .

وسألنا كيم فيلباي:

ـ وكيف استطعت خلال هذه الحرب العجيبة أن تحفظ توازنك على الحبل يا سيد فيلباي؟

قال كيم :

ـ من البدهي أنني لم أكن أخشى طابور النار الشيوعي. قرب «قرطبة» وقعت في أيدي كتيبة تتبع ميليشيات الجنرال فرانكو. . وكانت في جيبي أوراق بالغة الخطورة كنت أنوي تسليمها لعميل سوفيتي. ولكني تمكنت قبل أن يقوموا بتفتيشي من «أكل» الوريقات ورقة بعد أخرى. . نجوت ولم أكد. كانت مقالاتي وتعليقاتي كلها في صالح فرانكو مما أكسبني ثقة الرجل وحبه. . بل إنني كنت المراسل الأجنبي الوحيد الذي ركب معه سيارته المصفحة وهو يدخل مدينة برشلونة في يناير عام ١٩٣٩ .

ـ أعتقد يا سيد كيم فيلباي أن مساعدتك لأصدقائك السوفييت حتى ذلك الوقت لم تكن ذات أهمية قصوى. . لعل بيرجس وماكلين أديا خدمات أجل من هذا وأخطر.

قال كيم :

ـ صدقت يا سيدي. . ولكن بعد قيام الحرب العالمية الأولى تمكنت بفضل «نفوذ» زوجتي ليتزد عند سير بالفور أن أدخل «القلعة» التي تقت إلى دخولها زمناً طويلاً. . **قلعة المخابرات البريطانية. !**

ـ كان يرأسها سير بالفور هذا؟

ـ أجل. كان يرأسها بفرعيها. . شرح لي خبايا العمل في قلعة المخابرات في زيارة خاصة لبيتي. قال ونحن على مائدة الطعام :

ـ شفت يا كيم. . من أجل عزيزتنا ليتز اخترت لك أن تعمل في رقم ٦ .

سألته في دهشة :

ـ رقم ٦؟ تعني يا سير بالفور أن مكتبي في الطابق السادس. .

ضحك وقال:

ـ أم لعلك تحب أن تعمل في رقم ٥.

ـ الواقع أنني لا أفهم يا سير بالفور.

ـ إنني ما جئت إلى شقتك اليوم إلا لأوضح لك الأمور بعيداً عن «القلعة»، المخابرات البريطانية يا عزيزي قسمان كبيران.. قسم ٦، وقسم ٥. قسم ٦ يضم رجال المخابرات البريطانية العسكرية.. وقسم ٥ يضم رجال المخابرات المختصين بالأمن المحلي..

ـ وما هي مهام كل قسم من هذين القسمين يا سير بالفور؟

ـ القسم ٥ كما قلت لك ينحصر عمله في الأمن البريطاني داخل الجزيرة والمستعمرات.. ورجال هذا القسم من الموظفين التقليديين المختارين من أبناء البيوتات ومن خريجي أرفع المعاهد والجامعات الإنجليزية.. كلهم من الأثرياء المدللين.. ولهذا يطلق عليهم رؤساء «القلعة» اسم «ذوي القبعات العالية»..

ـ لست أحب العمل مع هذا النوع من الرجال يا سير بالفور.

ـ ولهذا يا عزيزي اخترت لك العمل في قسم٦ ـ قسم ٦ هذا يختص بمكافحة الجاسوسية، وباختيار عملائنا في مختلف الدول، وبكشف جواسيس وعملاء الدول الأخرى، صديقة ومعادية على سواء.. ورجال هذا القسم نختارهم دائماً من المغامرين الأذكياء الذين لا يتورعون عن أي عمل بما في ذلك الاغتيال.. لهذا نطلق عليهم في القلعة اسما لطيفا يليق بهم: «القراصنة الظرفاء».. ما رأيك؟ أي قسم تفضل يا عزيزي كيم؟

قلت له:

ـ سيدي. لقد اخترت أنت لي من البداية أن أكون مع «القراصنة الظرفاء»! موافق يا سير بالفور.

ـ أحسنت الاختيار. . بالمناسبة. . المنافسة بين قسم ٦ وقسم ٥ لا تقل عنفاً عن المنافسة بين فريقي التجديف لكامبريدج واكسفورد. . أنت من كامبريدج فلا تنس تقاليد المنافسة يا عزيزي!!

سألناه:

ـ أتعتقد يا سيد كيم أن اختيار الوزير بالفور لك لتعمل في قسم ٦ المختص بالجاسوسية كان بوحي من ليتز؟

قال كيم:

ـ حتى الآن لا أدري. . أعتقد أنها رمية غير موفقة من سير بالفور. ولكنها بالنسبة لي أصابت هدفها تماماً. فقد صرت في مركز يسمح لي بمعرفة الكثير عن عملائنا في الاتحاد السوفيتي وعن عملاء الاتحاد السوفيتي في بلادنا. في عام ١٩٤١ صرت المسئول الأول عن مكتب مكافحة الجاسوسية وهو من أهم مكاتب قسم ٦.

ـ أعتقد أن معاونتك لأصدقائك في تلك الفترة كانت محدودة فتلك كانت فترة الوفاق بين روسيا وبين الحلفاء ضد العدو المشترك هتلر!

قال:

ـ هذا صحيح. . ولكنها كانت رغم ذلك فترة بالغة الأهمية. فترة تجميع معلومات واستعداد لما بعد الوفاق الشكلي. . لقد أديت لانجلترا خدمات جليلة حين كشفت كل أسرار الغواصات الألمانية. . ولكن خدماتي لأصدقائي كانت أكثر وأخطر!!

ـ وخدماتك للصهيونية؟

ـ لقد كانت زوجتي ليتز وصديقها بيرجس يتكفلان بهذا ولما ضقت بخياناتها المتكررة وتسيبها الحقير حتى مع رجال السلك السياسي الأجنبي، طلقتها. .

ـ ولم تهددك بكشف الستر عن نشاطك؟!

ـ كان في هذا ضياعها هي الأخرى لذلك سكتت. بعد الحرب تغيرت العلاقات بين روسيا وبين الحلفاء. . وقال لي سير بالفور:

ـ كيم يا عزيزي. . أعتقد أن من المفضل أن تضم إلى مكتبك، القسم الجديد الذي أنشأناه لمراقبة النشاط السوفيتي والشيوعي في انجلترا ومستعمراتها. .

قلت له:

ـ لا بأس بهذا يا سير بالفور رغم أنه سيزيد من أعبائي!

فضحك وقال:

ـ وسيرفع من مرتبك أيضاً! لقد بلغني أنك تعمل عشرين ساعة من الأربع والعشرين. . ثم أن هذا المنصب سيرشحك فيما بعد لأخطر منصب في «القلعة». . **منصب رئيس المخابرات كلها**. . هناك بالطبع جورج كوجيل الذي يتطلع إلى رئاسة المكتب الجديد. . ولكني أفضلك عليه. . أتعرف لماذا يا كيم؟ لأني لا أعرف رجلاً يبغض الشيوعية كما تبغضها أنت!

سألناه:

ـ كيف لم تثر حولك الشكوك من أي لون؟ كيف مثلاً لم تكتشف المخابرات الأمريكية أمرك أو أمر زميلك بيرجس وماكلين؟

قال كيم:

ـ كيف يخطر ببال أحد أن كيم فيلباي رئيس مكتب مكافحة الجاسوسية السوفيتية هو نفسه عميل سوفيتي!؟ ونفس الأمر بالنسبة لبيرجس الذي صار قنصلاً عاماً لبريطانيا في فرنسا، ولماكلين الذي إصبح من كبار موظفي وزارة الخارجية البريطانية. .

ـ ومتى بدأت الشكوك تحوم حولك في خطورة يا سيد كيم؟

ـ هل تذكر قضية «ايجور جوزنكو» يا سيدي؟ كان ذلك عام ١٩٤٥.

ـ ذلك تاريخ بعيد يا سيد كيم. .

ـ حسناً. سأنعش ذاكرتك.. في سبتمبر عام ١٩٤٥ هرب ايجور جوزنكو وهو موظف الشفرة في السفارة السوفيتية في كندا والتجأ إلى الحكومة الكندية طالباً حمايته.. بحكم عمله في مكتب الشفرة بالسفارة السوفيتية، اطلع على أسرار كثيرة أيضاً. لهذا رأى سير بالفور أن يفيد من الموقف الجديد قال لي:

ـ كيم. يحسن أن تسافر من فورك إلى «أوتوا» لمقابلة جوزنكو. أعتقد أنك ستفيد الكثير مما لديه من معلومات.

ـ أترى ضرورة لهذا يا سير بالفور؟!

ـ بالطبع لقد أفضى الرجل إلى وزارة الخارجية الكندية بالكثير. ولكن الحكومة الكندية لم ترسل لنا تفاصيل ذات قيمة.. أمريكا هي التي ستحصل على كل ما تريد خاصة وهي التي ضغطت على الحكومة الكندية كي لا تسلم «جوزنكو» لسفارته.

قلت له:

ـ أفضل أن أنتظر حتى تنهى المشكلة بين روسيا وكندا وأمريكا. ولندع أمريكا تلتقط لنا القسطل من النار فنأكله دون أن تحترق أصابعنا.

قال بلفور مرحا:

ـ حسناً. كما تشاء يا كيم. أنت أكثر مني فطنة على أي حال.

قلنا للجاسوس:

ـ كان من المنطقي أن تسارع إلى «أتوا» لمقابلة جوزنكو لتطمئن إلى أن ما لديه من معلومات لا يعرضك للخطر!! فلماذا فضلت الانتظار؟

قال كيم:

ـ لقد فكرت في هذا طويلاً. ولكني خشيت إذا انكشف أمري وأنا في القارة الأمريكية، أن يتعذر علي الفرار إلى الاتحاد السوفيتي. من حسن حظي أن التقارير الأولية التي وصلتنا أكدت لي أن جوزنكو لا يعرف شيئاً عن نشاطي

ونشاط زميلي: برجس وماكلين. ثم وقعت الحادثة القدرية الخطيرة حقاً. ذات يوم من أيام نوفمبر عام ١٩٤٥ دخل السفارة البريطانية في اسطنبول رجل في زي عامل من عمال السباكة. . اختفى في دهاليز السفارة ثم قبضوا عليه وهو يحاول التسلل إلى غرفة السفير. قال لرجال الحرس الذين أمسكوا بتلابيبه:

ـ أريد مقابلة السفير لمسألة بالغة الأهمية. أنا مسئول أجنبي ذو مقام كبير. ليس معي أي سلاح ولن أتكلم عن سبب رغبتي في مقابلة السفير إلا للسفير وحده.

فتشوه. لم يجدوا معه سلاحاً ولا أوراقاً خاصة تنبىء باسمه وبحقيقته. حدثوا السفير بشأنه فسمح بمقابلته. ولكنه رفض أن يتكلم إلا إذا اختلى بالسفير دون ثالث معهما. . فلما صار وحده مع السفير قال:

ـ إنني أدعى قسطنطين فولكوف. هل يعني الاسم شيئاً بالنسبة لك يا سيدي السفير؟

قال السفير:

ـ بالطبع. أنت فيما أعرف من تقارير رجالي، ضابط مرموق في المخابرات السوفيتية في تركيا. الكولونيل فولكوف الخطير!

ـ تماماً يا سيدي. إنني أريد أن أقدم لكم معلومات على أكبر قدر من الأهمية. .

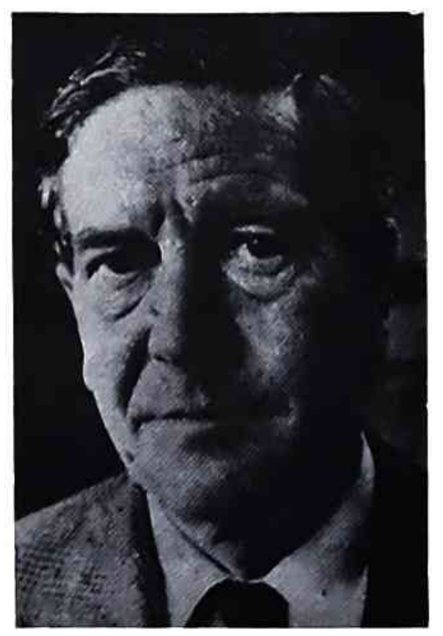
ـ إنني أستمع يا كولونيل فولكوف.

ـ لم تسألني عن المقابل!

ـ وما هو المقابل الذي تطلبه؟

ـ أن تقبل الحكومة البريطانية التجائي إليها والتعهد بحمايتي.

ـ وماذا ستقدم لنا لقاء هذا يا كولونيل.


فيلباي عام ١٩٥٥


دونالد ماكلين


فيلباي في احدى حدائق موسكو

ـ بيان بأسماء عملاء الاتحاد السوفيتي في انجلترا . . وخاصة من يعمل منهم في مراكز مرموقة في المخابرات البريطانية نفسها!

قلنا للجاسوس فيلباي :

ـ دق ناقوس الخطر فجأة وعلى غير انتظار؟

قال :

ـ أجل . وعد فولكوف وهو من أخطر ضباط المخابرات السوفيتية بالإفضاء بأسماء عملاء بلاده في انجلترا ، من الإنجليز والأجانب ، ثمناً لقبول التجائه إلى بريطانيا وتعهد الحكومة بحمايته . اتصل بنا السفير البريطاني في اسطنبول ليعرف قرارنا قبل أن يتفق مع فولكوف على شيء استدعاني إلى مكتبه رئيس المخابرات البريطانية الجديد سير ستيوارت منزيس وقال لي :

ـ ما رأيك يا كيم في مسألة الكولونيل «فولكوف»؟ يجب ألا نهمل هذا «العصفور» كما أهملنا «جوزنكو» .

قلت له :

ـ من قال إننا أهملنا جوزنكو يا سير منزيس؟ الذي منعني من التعامل معه هو أن وزارة الخارجية كلفت دونالد ماكلين سكرتيرنا الأول في سفارة باريس بمهمة استجوابه في «أوتوا» . .

قال منزيس :

ـ أجل . أجل . ولكني كنت أفضل أن تقوم أنت بمهمة استجوابه .

ثم ضحك وقال :

ـ أحسب أنك كنت مشغولاً بحبك الجديد للآنسة ايلين فورس!

قلت له :

ـ التقارير التي جاءتني عن هذا الموضوع توضح بجلاء أن «جوزنكو» لم يقدم لنا جديداً . زعم أن لديه أسماء كثيرين من عملاء بلاده في كندا وغيرها . . ولم

يقدم لنا غير اسمين فقط «كاثيلين ويلشر الموظفة في وزارة الخارجية الكندية و«آلان ماي» عالم الذرة البريطاني. . ولا شيء أكثر من هذا.

ــ هذا صحيح . . ولكن . .

ثم سكت فاستربت من سكوته وقلت في حذر:

ــ لكن ماذا؟

قال منزيس:

ــ لكنه وعد بأن يذكر أسماء أخرى حين يستقر في مكان آمن لا تصل إلى أيدي رجال مخابرات بلده . . يخيل إلي يا عزيزي كيم أن دونالد ماكلين لم يبذل جهداً مناسباً في الموضوع. لماذا؟! يحسن أن تضعه تحت المراقبة.

قلت له:

ــ كل رجال سفارتنا في فرنسا تحت المراقبة يا سير منزيس. إلا السفير.

ــ لقد كان ماكلين زميلك في كامبريدج . . أليس كذلك؟

ــ أجل.

ــ أي رجل هو؟

ــ مهرج كبير. . ولكنه لا يثير حوله أية شكوك.

ــ على أي حال من الأفضل أن تكثف الرقابة عليه . . تصرفاته في مسألة جوزنكو غير مقنعة! لنعد إلى موضوع الكولونيل فولكوف . . لقد وعد بذكر أسماء خطيرة ولكنه لم يتكلم حتى الآن في انتظار موافقتنا على التجائه إلينا.

سألته:

ــ ما رأيك أنت يا سير منزيس؟

قال:

ــ رأيي أن نوافق على طلباته . . إنه يزعم أن المخابرات السوفيتية تسللت إلى

أخطر المواقع في بلادنا.. من يدري.. ألا يحتمل أن يكون لهم عملاء في مكاتبنا؟

اصطنعت الدهشة وقلت له:

ـ في المخابرات البريطانية؟؟!! مستحيل يا سير منزيس..

فضحك منزيس وقال:

ـ كيف يصدر هذا الكلام منك يا كيم؟! أنت تعرف أن المفاجآت هي خبزنا اليومي في هذه القلعة!! ما رأيك؟

قلت:

ـ رأيي أن أستجوب فولكوف بنفسي يا سير منزيس..

ـ متى تسافر إلى اسطنبول!؟

ـ في أقرب وقت. سأتصل بالسفير البريطاني في اسطنبول ليهيىء لي مقابلة مع فولكوف!

ـ كن حذراً حتى لا تفضح فولكوف!! لو علمت المخابرات السوفيتية باتصاله بسفيرنا هناك لكان في هذا نهايته!

قلنا للجاسوس الجسور:

ـ وبالطبع سارعت بالطيران إلى اسطنبول!!

قال:

ـ على العكس يا سيدي. حاولت جهدي أن أوجل السفر كي أعطي الفرصة للمخابرات السوفيتية للتخلص من فولكوف.

ـ اتصلت بهم؟!

ـ كنت على ثقة بأنهم يعرفون بكل ما حدث..

ـ ولكن التأجيل قد يثير شكوك رئيسك الأعلى سير منزيس!!

ـ كانت حججي مقنعة. ذهبت إليه في مكتبه وسألني في شيء من الضيق:
ـ كيم! ألم تسافر إلى اسطنبول حتى الآن؟
قلت له:
ـ هل تعرف يا سير منزيس أننا وقعنا في خطأ لا يقع فيه المبتدئون!!
ـ وما ذاك؟
ـ كانت اتصالاتنا مع سفيرنا في اسطنبول تتم بالشفرة.. في الوقت الذي قال فيه فالكوف للسفير أن المخابرات السوفيتية تعرف مفتاح تلك الشفرة.
ـ يا إلهي!! كيف فاتنا ذلك حقاً!
ـ لهذا أرسلت استفساراتي إلى سفيرنا بالحقيبة الدبلوماسية وطلبت أن يرسل رده بالحقيبة أيضاً.
ـ كيم! هذا معناه تأخير سفرك إلى اسطنبول!
ـ لا مفر من انتظار وصول الحقيبة.
ـ هذا معناه ضياع أسبوع كامل!؟
ـ للضرورة أحكامها.
ـ كيم. لا تتردد في إقناع فولكوف إذا قابلته بأن الحكومة البريطانية موافقة على طلباته. الرجل يقول أن لديه أسماء ثلاثة من أكبر موظفي الدولة يعملون في خدمة المخابرات السوفيتية. لا يجب أن تفوتنا هذه الفرصة!
قلنا للجاسوس:
ـ ومتى سافرت إلى اسطنبول؟
قال:
ـ الجمعة ١٨ أغسطس قابلت سفيرنا في سرية كاملة.. قال لي:
ـ ليس من الممكن يا عزيزي فيلباي أن نحدد لك مقابلة مع فولكوف في الوقت

الذي تريده أنت. إن هذا يتوقف على فولكوف نفسه.

سألته:

ـ وكيف تتصلون به يا سير هيلم؟

ـ هو الذي يتصل بنا. وهو الذي يحدد مكان اللقاء. لقد حذرنا من الاتصال به في شقته أو عن طريق تلفونه الخاص.

ـ ومن الذي يذهب لمقابلته؟

ـ بستاني السفارة.. إنه بالطبع أحد رجال مخابراتنا..

ـ ومتى اتصل بكم فولكوف لآخر مرة؟

ـ منذ أسبوعين.

ـ أما من وسيلة للاتصال به؟!!

ـ يجب أن ننزل عند رغبته في عدم الاتصال به وإلا فقدناه.. يجب أن نحاول الاحتفاظ به بكل الوسائل فهو يؤكد أن لديه أسماء ثلاثة من أخطر العملاء.. وأين؟ داخل جهازك يا عزيزي فيلباي.

قلت له في برود:

ـ هذه مجرد وسيلة للمساومة..

ـ ربما..

ـ إذن فعلينا أن ننتظر حتى يتحرك فولكوف ويتصل بنا؟

ـ لا مفر من هذا؟

سألنا فيلباي:

ـ ومتى اتصل بكم فولكوف؟

قال:

ـ لم يتصل أبداً. حصلت على عنوان مسكنه وذهبت إليه متنكراً في هيئة عامل

نظافة. وجـدت شقته مغلقـة. طرقت البـاب. فخرجت لي إحـدى السيدات وسألتني عما أريد فقلت:

ــ القمامة ياسيدتي.. أنا عامل القمامة!

قالت السيدة في دهشة:

ــ ماذا؟ ألم يجمعها زميلك منذ ساعة؟

تداركت الخطأ بسرعة وقلت:

ــ حقاً؟! لم يخبرني.. أنا على أي حال الذي سـأقوم بجمعهـا كل يـوم ابتداء من الغد.. إنني على علاقة طيبة بالكولونيل..

قالت السيدة:

ــ حسناً.. مع السلامة..

ولكني لم أترك الباب وقلت:

ــ أرجوك يا سيدتي.. إنني في حاجة إلى مبلغ من المال لسداد بعض الديـون وقد اعتاد الكولونيل فولكوف أن..

قاطعتني في جفاء:

ــ الكولونيل غير موجود.

ــ سيدتي.. أنا في أشد الحاجة إلى...

قالت في غلظة هذه المرة:

ــ قلت لك أن الكولونيل غير موجود.

ــ متى يعود يا سيدتي؟

ــ لا أعرف.. مع السلامة!

وصفقت الباب في وجهي. راقبت الشقة، في هيئة بائع صحف هذه المرة، فلاحظت أن رجالاً كثيرين يترددون على الشقـة وأنهم يفتشونها بـدقة. ثم انتهـوا

بنقل بعض الأثاث إلى السفارة السوفيتية في اسطنبول.

ـ ولم تقابل فولكوف؟

ـ اختفى تماماً. . علمت فيما بعد أنه اختطف ونقل إلى موسكو.

ـ وهل باح للسفير البريطاني قبل اختفائه باسمك واسم زميليك ماكلين وبيرجس؟!

ـ أعتقد أن تلميحاته للسفير أثارت الشكوك حولي وحول زميلي. . ومع هذا فلم يجر معي أي تحقيق ولم يطلب إلي أن أقدم استقالتي.

ـ وزميلاك؟ ماكلين وبيرجس؟

ـ طلب إلي أن أكثف الرقابة عليهما دون أن يساورهم أي شك في أنني أغطي كل اتصالاتهم السرية مع المخابرات المعادية. ومن العجيب يا سيدي أن الثقة في، بلغت أوجها في الفترة التي اجتاحت العالم كله هستريا عضو الشيوخ الأمريكي «ماكارثي». كان عدو السوفييت الأول وآلى على نفسه وعلى جهازه الإرهابي الإطاحة بكل من يتوهم أن له ميولاً سوفيتية. في تلك الفترة أرسلني سير منزيس إلى واشنطون لأكون حلقة الاتصال بين المخابرات الأمريكية والمخابرات البريطانية في هذا الموضوع.

من فرط الإثارة لم نملك إلا أن نقول:

ـ من يتصور هذا؟ مدير المخابرات الأمريكية يتعاون مع مدير المخابرات البريطانية الذي هو بدوره أخطر عميل للسوفييت! متى ثارت حولك الشكوك بصفة جدية يا سيد كيم فيلباي؟

قال كيم:

ـ بعد العملية الألبانية.

ـ وما تلك العملية؟

ـ كانت أمريكا وبريطانيا يريدان التخلص من الحكومة الألبانية التي يرأسها

«أنـور خوجـه» ميولـه معروفـة. لهـذا وضعت خـطة لإسقـاط عـدد كبـير من الألبانيين المعادين لخوجه بالمظلات على الأراضي الألبـانية بهـدف قلب النظام الاشـتراكي هناك. وكنت أنـا من بين من وضعـوا الخـطوط الـرئيسيـة لعملية الإسقاط بالمظلات. أنت تعرف ما حدث فيها أظن!!

قلنا له:

ـ كلا لا أعرف، ماذا حدث؟

قال كيم:

ـ كانت قوات أنور خوجه في انتظار المـظليين. قبضـوا عليهم جميعاً. فقـد نقلت الخطة كاملة لأصدقائي السوفييت.

ـ عندها ثارت حولك الشكوك؟

ـ أجل. ومع هذا فلم يكونـوا يملكون ضـدي أي دليل. ولكنهم طلبـوا إلي هذه المرة أن أقدم استقالتي.

ـ دون تحقيق؟

ـ أجل. ظللت في لندن أعيش بالمعاش السخي الذي قررته لي حكومتي. إلى أن زارني ذات يوم صديقي القديم بيرجس وقال لي:

ـ كيم. أعتقد أن الحلقة قد ضاقت علينا تماماً. علمت أنهم سيطلبـوني للمثول أمام لجنة تحقيق خاصة. أنا وماكلين؟

سألته:

ـ هل وجهوا إليكما تهماً معينة؟

قال بيرجس:

ـ قالوا إن نشاطنا السياسي لا يروق لهم.

قلت له:

ـ هذه جملة غامضة ومعناها على أي حال أنهم لا يملكون أي دليل..

ـ ربما. ولكني خائف يا كيم. لقد جئت أودعك. . سأهرب في أول فرصة تتاح لي.

ـ وماكلين.

ـ سيهرب هو الآخر. . ربما معي وربما بعدي، لا أدري. مشكلته كما تعرف في زوجته وطفليه.

ـ هل سيأخذهم معه إلى موسكو؟

ـ هذا ما يريد. ولكن من يعرف! كيم. قد يأتي عليك الدور. . ماذا ستفعل؟

ـ سأفكر في الأمر. أتمنى لك ولماكلين التوفيق!

قلنا للجاسوس الجسور كيم فيلباي:

ـ فوجىء العالم بفرار بيرجس وماكلين وأسرته الصغيرة إلى موسكو يوم السابع من يونيو عام ١٩٥١ فماذا عنك؟؟

قال كيم:

ـ أشارت الصحف بعد هروب زميلي ـ وظلت تشير على مدى أحد عشر عاماً بعده ـ إلى أن «رجلاً ثالثاً» لا يزال يتابع نشاطه ضد مصالح بلاده من لندن. صحيفة التايمز وصفتني وصفاً دقيقاً دون أن تفصح عن اسمي. هوليود أخرجت فيلماً باسم «الرجل الثالث» وأعطتني فيه اسما غير اسمي. . ثم علمت مع بداية يناير عام ١٩٦٣ أنني قد استدعى للتحقيق في أية لحظة. . عندها أدركت أن لديهم هذه المرة دليلاً حاسماً فقررت أن أهرب.

ـ وزوجتك إيلين؟ هل أطلعتها على نيتك؟

ـ كلا. لم أكن واثقاً منها. مساء الثالث والعشرين من يناير عام ١٩٦٣ كنا مدعوين إلى العشاء في دار أحد الأصدقاء. . عندما بلغت سيارة الأجرة ميدان ترافلجار. عزمت فجأة على تنفيذ فكرة الفرار. طلبت إلى السائق أن

يتوقف فسألتني زوجتي في دهشة:

ـ لماذا يا كيم؟

قلت لها:

ـ لقد نسيت أن أبعث ببرقية عزاء هامة.

ـ يا إلهي. ألم تذكر هذا إلا الآن؟ لقد تأخرنا بما فيه الكفاية.

ـ خمس دقائق لا أكثر يا عزيزتي.. إننا قرب مكتب البرق.. انتظر هنا أيها السائق من فضلك..

كانت زوجتي في منتهى الضيق.. سألتني دون أن يساورها أي شك فيما يدور في ذهني:

ـ لماذا لا ترسلها بعد السهرة؟

قلت لها:

ـ يمكنك أن تسبقيني بالتاكسي على أي حال، وسألحق بك فور أن أنتهي من إرسال البرقية.

قالت:

ـ كلا.. سأنتظرك في السيارة حتى تعود فلا تتأخر!!

واستتلى الجاسوس:

ـ انتظرتني طويلاً دون جدوى.. فلم أعد إليها أبداً.. بعد أسابيع قليلة نشرت الصحف نبأ وصول «الرجل الثالث» إلى موسكو!

ولا يزال «كيم فيلباي» يعيش حتى يومنا هذا في موسكو مواطناً سوفيتياً هادئاً... أو غير هادىء لا ندري!!

هرمان ريتشي

لأمر ما جدع

قصير أنفه

لأمر ما جدع
قصير أنفه

مثل عربي شهير خلد ذكرى قصير بن عدي.

ترى لأي أمر يا أخ قصير فعلت بنفسك ما فعلت؟ قطعت أنفك وأذنيك وشوهت وجهك ومزقت ظهرك بالسياط.. أيفعل العقلاء بأنفسهم شيئاً بشعاً كهذا؟

ـ طبعاً. إذا أرادوا أن يخدعوا عدوهم عن نفسه. كانت الملكة الزباء هي عدوتنا.. قتلت ملكنا خالي جذيمة الأبرش واحتمت بحصونها النائية وأغلقت الأبواب دون العرب جميعاً، حتى من كانوا من الأصدقاء.. خشيت أن تنالها يد الانتقام. فعلت بنفسي ما فعلت وذهبت حتى أقدام قلعتها الحصينة وصحت:

«أيتها الملكة العظيمة، أنظري إلى ما فعل بي قومي حين طلبت إليهم أن يصالحوك وينسوا ثأرهم! جدعوا أنفي وقطعوا أذني وشوهوا وجهي. ساعديني أيتها الملكة لأنتقم ممن فعل بي هذا».

ـ وأُدخلت الحصن؟

ـ وضعتني موضع الاختبار عاماً بأكمله ثم انطلت حيلتي عليها، فصرت من خاصة مستشاريها المطلع على كل أسرار حصونها.. وكان في ذلك نهايتها.

جدع قصير أنفه إذن ليتمكن من الزباء عدوته وعدوة قومه، ودخل بفعلته

تلك التاريخ القديم.

هاكم من يحاول أن يدخل التاريخ الحديث بخدعة كخدعة قصير. .

فتى وسيم طوال، أشقر الشعر، يلح في مقابلة الكولونيل «أورست بنتو» مدير المخابرات البريطانية في لندن. .

والزمان: يوم من أيام يونيو عام ١٩٤٢. يقول الكولونيل بنتو للزائر الشاب:

ــ اجلس يا سيد ريتشي. الأوراق التي أرسلتها إلي بالبريد وفيها صورتك والتي ألححت فيها على مقابلتي لا تقول الكثير عنك يا سيد هرمان ريتشي. .

ــ إنني يا كولونيل أدعى. .

قاطعة بنتو:

ــ أجبر أخطائي من فضلك إذا أخطأت ودعني أقلب أوراقك التي لا تقول الكثير كما ذكرت لك. أنت تدعى هرمان ريتشي مهاجر من هولندا بعد الغزو الألماني لبلادك. السن ٢٥ سنة. كنت تعمل قبل حضورك إلى انجلترا، مزارعاً في بلدة لوبيك في هولندا، والآن تساعد في حقل أحد الإنجليز في ويلز، تريد أن تتطوع للعمل في المخابرات البريطانية كعميل في المقاومة السرية الهولندية في بلادك. هذا كل ما في أوراقك. بالإضافة إلى صورتك هذه. .

ــ كل هذا صحيح يا كولونيل.

ــ إن فكرتك عن المخابرات البريطانية يا سيد ريتشي فقيرة حقاً هل تظن أنني من الغفلة بحيث أسقطك بمظلة في الأرض الهولندية لتتصل بالمقاومة الهولندية السرية؟ أنا واثق تماماً من أنك فور اتصالك بعملائنا الهولنديين والإنجليز هناك ستبيعهم للألمان الذين دسوك علينا.

ــ كولونيل بنتو. هل تريد أن تقول إنني خائن؟

ـ أقول أن الألمان اشتروك لتخدعنا. آسف. الطلب مرفوض.

ـ أرجوك. لا تتسرع بالرفض. وإن هذه الشكوك التي تراودك في أمري غير جديرة بمن يدير المخابرات البريطانية في أعنف حرب شهدها التاريخ.

في غضب قال بنتو:

ـ تعني ماذا يا فتى؟

ـ أعني أنك بوصفك مدير المخابرات لابد أن يكون لديك ملف واف عن كل المهاجرين من المناطق المحتلة...

ـ هذا صحيح. ولدي عنك ملف كامل.

ـ أوجدت في هذا الملف ما يدل على أنني عملت ساعة واحدة لحساب الألمان؟

وضحك بنتو وقال:

ـ لقد خُدع بلعبة كهذه من هم أمهر مني يا سيد هرمان.. ومع ذلك. ما الذي يدعوك إلى الظن بأنك ستقدم لنا عوناً يزيد عما نحصل عليه من عملائنا ومن أفراد المقاومة الهولندية السرية هناك؟؟

وناوله الفتى صورة صغيرة وهو يقول:

ـ هذه الصورة يا كولونيل هي التي تدعوني إلى ما هو أكثر من الظن.. أنظر إليها جيداً..

وتأمل مدير المخابرات الصورة وقال:

ـ هذه صورة فندق، الاسم واضح أيضاً فندق لوبيك.

ـ أجل «فندق لوبيك». في مدينة لوبيك.. هذا الفندق يا كولونيل يملكه عمي جوهان ريتشي..

ـ وما علاقة هذا الفندق بما نحن بصدده الآن؟

ـ العلاقة بالغة الأهمية. فقد اتخذ الجستابو الألماني من هذا الفندق مقراً في

هولندا، فلو أنكم اسقطموني من طائرة، لتسللت إلى المدينة وإلى الفندق، واستطعت إقناع عمي الوطني المخلص بمهمتي والتحقت كخادم في الفندق، فلا أدع خبراً أو معلومة تهم الجيش البريطاني إلا وأرسلتها إليك.

وتأمل الكولونيل بنتو ما في حديث الفتى من إمكانات لخدمة قضية الحلفاء ثم حزم أمره وقال:

ـ آسف الطلب مرفوض.

قال الفتى غاضباً:

ـ بحق السماء لماذا تصر على الرفض؟

ـ لأنك ساذج يا سيد هرمان ريتشي. إنك وسيم جميل طويل عريض فلن تخطئك عين في لوبيك رأتك في البلدة منذ طفولتك الأولى. سيتعرف عليك أول رجل يقابلك بل أول فتاة.. فلا ريب في أن من هو في مثل وسامتك، كان محط أنظار الفتيات.

ـ إنني لم آتك يا كولونيل إلا بعد أن درست هذه النقطة دراسة وافية.. هناك الوسيلة التي لا تدع أحداً يعرفني..

في سخرية سأله بنتو:

ـ وما تلك الوسيلة؟

ـ شوه وجهي.

في ذهول قال الكولونيل كالصائح:

ـ ماذا؟ هل جننت يا فتى؟ إن هذا الذي تريد أن تفعله بنفسك لهو الجنون!!

ـ شوه وجهي يا كولونيل بجراحة. أنتم مهرة في هذا. حول هذا الوجه الذي تقول أنه وسيم جميل إلى وجه منفر قبيح.. بهذا وحده لا يستطيع أحد من أهالي لوبيك التعرف على صديقهم القديم «هرمان ريتشي»..

ـ إن أشد النازيين مغالاة في التعصب لهتلر لا يفعل بنفسه شيئاً كهذا كي يخدعنا. . ولكن. . دعني يا عزيزي أقدم لك نصيحة أبوية. . إنك شاب والعمر أمامك ميدان فسيح، والحرب لن تقطع من مساحة هذه الميدان سوى شهر أو شهرين. . فلماذا تقطع ميدان عمرك كله مشوهاً؟! ثم. . ما الذي يدفعك إلى هذا؟ مجرد حماس وطني؟

ـ لا. . بل الرغبة في الانتقام. لقد قتل الألمان أمام عيني أمي وخطيبتي وأخي. . ألا يكفي هذا دافعاً يا كولونيل؟

مرة أخرى يطول صمت الكولونيل بنتو. ثم يقول:

ـ حسناً. أمهلني يوماً يا ريتشي. . أمهلني يوماً لأفكر في الأمر. .

واستشار الكولونيل بنتو رؤساءه قالوا له:

ـ لا بأس في اختباره في حرص شديد. ومن يدري لعلنا نتمكن بواسطته من معرفة الخائن الذي أسلم كثيرين من عملائنا إلى الجستابو في هولندا.

ألحقوه بالمعهد الخاص بالجواسيس. ظل ستة شهور يدرس كيف يستخدم القنابل الصغيرة الحجم وأضأل أنواع المفجرات وأتقن كل وسائل التخريب وحفظ عن ظهر قلب تكوين الجيش الألماني وفرقه ورتب الضباط ومهامهم. . وفي يوم طرق من جديد باب الكولونيل بنتو وقال له:

ـ أنا جاهز الآن تماماً يا كولونيل. متى تجرى العملية الجراحية لوجهي؟

ـ ريتشي. هل أنت مصر على ذلك؟ يمكنك حتى هذه اللحظة العدول عن طلبك للعمل لحسابنا.

ـ لن أعدل يا كولونيل. . وأرجو أن تأمر بإجراء الجراحة في أسرع وقت.

وأجريت الجراحة الدقيقة. . بعد أسبوع رأى الكولونيل بنتو وجهاً جديد مسيخاً للفتى المسكين هرمان ريتشي. قال:

ـ يا إلهي . . أمك نفسها لا تستطيع أن تعرف أنك ولدها هرمان ريتشي. حسناً. التقطـوا له صوراً جديدة وأرفقوها بالملف. ستبقى أسبوعاً آخر في المستشفى يا ريتشي حسب تعليمات الأطباء وبعـدها ستحملك طـائرة بـريطانيـة وتسقطك بالمظلة في منطقة قريبة من لوبيك . . حظ سعيد يا ولدي . .

في الخـامس من فبرايـر عـام ١٩٤٣ أسقـطتـه طـائـرة صغـيرة أثنـاء غـارة للتمويه . . اخترق الغابة حتى بلغ ليلاً مشارف مدينة لوبيـك . . كان يعـرفها كـما يعرف كفه ولكنه خشي أن يستجوبه الجستابو فتسلل إلى فندق لوبيك عبر مسالك المجاري الطويلة . . كان يعرف الـطريق السفلي الـذي ينتهي بغطاء ثقيـل في قبو الخمـور في الفندق . . بلغـه واستتر في الـظلام في انتظار دخـول عمـه كـل مسـاء لانتقاء قواريـر الخمور كـما اعتاد . . وتحرك مزلاج الباب . . ورأى شبح عمـه على الضوء الخافت يدخل ثم يغلق الباب خلفه. قال همساً:

ـ عمي . . أرجوك . . لا تفزع . . أنا هيرمان ابن أخيك . . واستولى الخوف عـلى العم وقال مضطرباً:

ـ من أنت؟ الصوت صوت هرمان . . ولكن هيرمان في لندن . .

ـ أقسم لـك أنني هرمـان . . ومن المؤكد أنـك لن تصـدقني إذا أضـأت النـور في القبو . . سترى وجهاً يختلف عن وجه هرمان.

ـ أنت إذن لست هرمان . . سأنادي الشرطة . .

ـ لا . . أرجوك . . لقد أجريت جراحة على وجهي لتغيير ملامحـه. لقد تم ذلـك بالاتفاق مع المخابرات البريطانية . .

ـ لا أصدق . . إنك تنتحـل دون شك شخصيـة ابن أخي . ولكن . . يا إلهي . . الصوت!! صوت هرمان دون مراء.

ـ عمي . . هـل يعـرف غـيري وغـيرك أين كـانت عمتي «هـانـزا» تخفي نقـود

«المصروف اليومي»؟؟ كانت تخفيه في حذائك القديم البالي المعلق على باب غرفة النوم.

ـ هذا صحيح..

ـ والجواد الصغير الذي أهديته لي حين بلغت العاشرة!! كان له اسم ظريف لا يعرفه غير أفراد الأسرة.. كان يحمل اسمك «بروكن» يا عمي..

ـ يا إلهي.. كل هذا صحيح.. كل هذا صحيح..

ـ حسن. الآن أضيء النور ولا تفزع حين ترى الوجه الجديد لابن أخيك هرمان ريتشي.. لقد تغير كل شيء في يا عمي.. حتى الاسم.. أضيء النور من فضلك.

أذهلت المفاجأة الرجل العجوز.. ولكنه اقتنع في النهاية. وألحق ابن أخيه بالعمل كخادم بالفندق الذي اتخذه الجستابو مقراً له.. وحين سئل عنه قال:

ـ وهلم العبيط؟! إنه ابن أخت لي في الريف. أبله رغم أنه بلغ الخامسة والعشرين ويأكل كما يأكل الثور.. رجتني أختي المسكينة أن ألحقه بالعمل معي لقاء أجر بسيط أرسله إليها شهرياً.

كان قد تعلم في معهد الجاسوسية بلندن شفرة خاصة به فلم يطلعه الكولونيل بنتو على الشفرة العاملة في هولندا.. كما كانت تعليماته للفتى واضحة:

ـ لا تحاول أن تتصل بأحد. افتح أذنيك وعينيك. وسيتصل بك في الفندق عميلان لنا.. أنقل إليهما كل ما تريد أن يصلنا من معلومات ولا تحاول تحت أي ظرف الاتصال بهما مبادرة منك.

وكانت تعليماته لهذين العميلين أكثر خطراً ووضوحاً:

ـ اقتلوه لأول بادرة شك في ولائه.

ولكن المعلومات التي كانت تصل بنتو بلغت من الدقة والفعالية حداً أذهل

وزارة الحرب البريطانية. . قطارات الشحنات العسكرية. . قوافل السلاح. .
تحركات الفرق. . كل هذه الأسرار الخطيرة كان هرمان ينقلها إلى العميلين في دقة وبراعة وتوقيت مذهل، فتقوم الطائرات البريطانية القاذفة إلى أهدافها المرموقة وتعود وقد حققت ما لم تكن تحققه من قبل. وكان بنتو يردد سعيداً كلما قابل تشرتشل:

ـ كيف كنا نريد أن نهمل هذا العميل الرائع؟! إنه الآن أكفأ عملائنا في هولندا يا سيدي.

في تلك الفترة كانت لندن تقاسي وطأة القنابل الألمانية المزودة بأجهزة توقيت الانفجار. . وما أكثر من ذهب ضحية انفجارها المفاجىء من رجال الدفاع المدني. . وكان الحصول على جهاز من هذه الأجهزة مسألة حياة وموت. .
وشرح بنتو وجهة نظره لرؤسائه:

ـ لقد فهمت من تقارير هرمان ريتشي أن الألمان أقاموا في أطراف مدينة لوبيك مصنعاً لأجهزة التوقيت هذه. ماذا لو طلبنا إليه أن يوافينا بأية وسيلة ببعض هذه الأجهزة ليعكف عليها الخبراء ويصلوا إلى طريقة إبطال مفعولها؟!

وأيده رؤساؤه. . وأرسل بنتو الطلب إلى عمليه الرائع عن طريق الشفرة الخاصة به. . لم يكد ينتهي من ذلك حتى دخل مكتبه رجل وقور في الخامسة والخمسين وقال له:

ـ اسمح لي أن أقدم لك نفسي يا كولونيل بنتو. أنا المفتش جنكنز من سكوتلانديارد.

ـ أهلاً بك يا سيدي. . ترى ماذا يستطيع مكتب المخابرات أن يفعل لسكوتلانديارد؟

وقدم له جنكز صورة شمسية:

ـ هل تعرف صاحب هذه الصورة يا كولونيل؟

كـانت صورة هـرمان ريتشي قبـل الجراحـة، ولزم الكولونيل جانب الحذر الشديد وقال لمفتش سكوتلانديارد :

ـ من الجائز أن أعرفه. . لا أذكـر على وجـه التحدد. . ولكن لمـاذا تسألني أنـا يا سيدي المفتش؟

ـ لا داعي للف والدوران يا كولونيل. . لقد تتبعنا كل الخيـوط فقادتنـا إلى هنا. هذه صورة الهولندي هرمان ريتشي. . آخر ما لدينا من معلومـات عنه أنـه جاء إلى هنا وأجريتم له جراحة لتغيير ملامح وجهه. .

ولم يكن بد من الصراحة. . قال بنتو:

ـ حسناً. . وماذا تريد منه يا سيد جنكنز؟

ـ إني أعرف أيضاً أنكم أرسلتموه للعمل لحسابكم في هولنده. أريدك يا كولونيل بنتو أن تعيده إلى لندن وتسليمه لنا في الحال.

ـ ماذا؟ أسلم لكم أعظم عملائنا؟ إنه رجل بمليون رجل.

ـ وهو أيضاً قاتل.

ـ قاتل؟ لا أصدق. . ألديك الدليل على ما تقول؟

ـ أجل.

ـ قتل من؟

ـ قتل ثلاث نساء. . عشيقته وأختها وأمها. . لقد كان بعض الصبيـة يعبثون في بقايا منزل أصيب بالقنابل فعثروا بالنسوة الثلاث في حفـرة تحت الأنقاض. في أول الأمر ظنناهن ضحايا الغارة. . ولكن الفحص الطبي للجثث المتعفنـة. . أو مـا تبقى منها عـلى الأصح. أثبت أنهن قتلن خنقـاً بكسر العنق نتيجة ضغط بأصبعين قويين. . بالإضافة إلى وجود طعنات نافذة في صدر العشيقة. . .

ـ ولماذا تريد إلصاق التهمة بالهولندي هرمان ريتشي؟!

ـ لقد كانت العشيقة المسكينة تكتب يوميات متصلة عن أحداث حياتها. . تحت يوم السادس عشر من يونيو عام ١٩٤٢ كتبت:

«هـ. ر يشك في أنني أخونه مع سواه، مع أني أعلم أنه يتسلل في غيبتي إلى فراش أختي التي استسلمت له من فرط خوفها منه. إنه يهدد بقتلنا جميعاً. . إني خائفة».

قال بنتو لا يصدق ما سمع:

ـ يا إلهي. . لطالما تساءلت لماذا أراد أن يغير معالم وجهه!!

ـ لكي يفر من العدالة. أهناك مكان للاختباء أكثر أمناً من مكاتب المخابرات الإنجليزية؟! احتمى بكم حتى أجريتم له الجراحة وبعثتم به إلى حيث فر نهائياً من يد العدالة. . ولكني باسم القانون أطلب إعادته إلى لندن يا كولونيل بنتو.

ـ لقد كلفته بعملية بالغة الأهمية. . في نجاحها إنقاذ لأرواح الآلاف من المواطنين المدنيين. دعه حتى يتم المهمة وبعدها أعدك باستدراجه إلى لندن. . ولكن لي تحفظ على أكبر قدر من الخطورة. .

ـ وما ذاك؟

ـ أن تكف أنت ورجالك عن الحديث في هذا الأمر. فلو تسرب إليه أنه مطلوب في لندن لأفشى إلى العدو بما يعرف من أسرارنا الخطيرة. .

ـ لك ذلك يا كولونيل بنتو.

وأدى هرمان ريتشي المهمة، وأرسل إلى لندن بصندوق حافل بأجهزة التفجير الوقتي للقنابل. . وما أن بدأ الكولونيل بنتو في محاولة استدراجه إلى لندن حتى اختفى تماماً. . بعد اختفائه بأيام تساقط الكثيرون من عملاء بريطانيا السريين، وقبض الجستابو على كل أقطاب الحركة السرية الهولندية بما فيهم عمه

المسكين . .

وحين انتهت الحرب وسافر بنتو إلى هولندا لدفع التعويضات المناسبة لأهالي ضحايا خيانة هيرمان ريتشي . . سأل كيف كان مصرع الخائن فقيل له :

ـ لا تصدق يا كولونيل كيف بذل هذا التعس مجهوداً خرافياً وعرض نفسه للهلاك كي يحصل لكم على صندوق أجهزة التفجير . . ولكنه فجأة إنضم علناً للجستابو . . لا ندري كيف ولماذا؟ باعنا بيع السماح وأفشى لهم كل أسرارنا وأسراركم . . ثم رأيناهم ذات يوم يأخذونه إلى خارج الفندق ويطلقون عليه النار . . لماذا خاننا هذا التعس يا كولونيل؟ لماذا؟ هل تعرف لماذا؟

ـ أجل . أعرف . أعرف لسوء الحظ .

شـــارل ألـمـو



على متن

الدخان الأزرق



الصديقة ليزون الغانية

على متن

الدخان الأزرق

من أجل أنفاس الأفيون، وجلسة مثيرة أمام مائدة القمار.. وكلمة حب من غانية.. انقلب الفتى الهادىء الوديع جاسوساً.. وعلى من؟

على بلاده.

ألقت المدمرة الفرنسية مراسيها ذات يوم من أيام فبراير عام ١٩٠٥ في ميناء سايجون.. الجو في الليل رقيق والنسمة وانية.. واثنان من ضباط السفينة منحنيان على سورها يتأملان الميناء الكبير. ويقول أحدهما لزميله:

ـ هل زرت سايجون من قبل يا شارل؟

ـ كلا يا صديقي.

ـ سآخذك إلى مغانيها.. إنها رائعة.. خاصة بالليل. النهار مزعج بشمسه ورطوبته وذبابه.. أما في الليل!!

ـ يبدو أنك زرتها كثيراً.

ـ وأعرف مساربها وأركانها الممتعة. سآخذك إلى مدينة «شولون» القريبة من سايجون. بها كل ما تأمل من ملذات ومسرات. ما خطر على بالك وما لم يخطر على بالك. مدينة لا تنام أبداً بل لنقل أنها لا تستيقظ إلا إذا جاء المساء..

ـ أفي محلاتها ما يشترى للذكرى؟

ـ شراء أشياء للذكريات هو أهون الأمور. . ستشتري ما تـريد وبـأسعار منـاسبة جداً. . هل زرت أماكن التدخين من قبل؟

ـ تدخين الطباق؟

ـ هل أنت ساذج؟ تدخين الأفيون.

ـ هذا شيء ضار.

فضحك صديق السوء وهو يقول:

ـ يا إلهي! لن تقول هذا بعد أن تلقي بنفسك على متن تياره المهدهد.

ـ لا. لن أدخن الأفيون أبداً. .

ـ أنت وما تشاء يا صديقي. . ولكن لا تحرم نفسك متعة الطواف بحانات المدينة ومداعبة حسناواتها. . والاستماع إلى الموسيقى الشرقيـة ذات الطابـع الخاص. أما الأفيون فسندعه لوقته.

وقاده صديق السوء إلى مغاني مدينة شولون القـريبة من سـايجون. . بـدءا السهرة بالمقاهي. . ثم استدرجه إلى ركن يُدخن فيه الأفيون. . الطنافس في غرفة فسيحة وقد اتكأ عليها المدخنون لا يتكلمون. . ولكن يمتصون من تلك الأنابيب التي تمد إليهم عصير الأفيون دخاناً أزرق اللون غليظ الجرم لا يتحـرك من مكانـه بسهولة. ناوله الأنبوب وقال:

ـ جرب.

ـ يقولون أن من يجربه لا يسلاه. . .

ـ أنا جربته ولم إصبح مدمناً.

ـ أنا لست مثلك. . أنا ضعيف الإرادة.

ـ لا تحرم نفسك متعة من أروع المتع. . ومع هذا أنت وشأنك.

وتردد الفتى القليل التجربة ثم قال كأنما قد حزم أمره:

ـ لا بأس في نفس أو في نفسين.

ومد إليه الأنبوب الأسود.. وتسلل الدخان إلى صدره وخالط كل خلايا جسده وأحس بقلق.. ورد الأنبوب.. ثم عاد يطلبه.. قال له الصديق:

ـ ألم أقل لك؟ بم تشعر؟

ـ لا أستطيع أن أقول بعد...

ـ حسناً. سنسمع منك الأعاجيب بعدها.

وفعل به الأفيون الأعاجيب التي توقعها صديقه.. بعد نصف ساعة من مص الأنبوب المتقطع عاد جزءا من هذا القطيع المطروح على الطنافس لا يتحرك ولا يتكلم.. السهوم هو السمة الغالبة على الجميع.. الكل ساهم.. كالحزانى.. العيون في السقف في أغلب الأوقات والأيدي تتحرك في بطء وكسل إلى الأنبوب المسحور.. وانمحى الزمن.. ولم يعد للأشياء وزن ولا قيمة أيضاً.. وصارت كل أمور الدنيا سهلة بسيطة لا تعقيد فيها ولا حدود أيضاً.. ودخان الأفيون الأزرق يحمله فوق كل الحدود والقيود كالعصفور المحلق..

لم يكن يدري أنه صار عبداً للأنبوب التعس.. ودخانه الثقيل..

وقبل أن تنتهي ليلة الأقدار تلك، قاده إلى ركن القمار.. ومن عجب أنه ربح كثيراً.. وأحب الربح السهل وعاد إلى السفينة وليس في رأسه إلا أن يعود في الليلة التالية إلى الأنبوب المسحور والمائدة الخضراء.. حين أفضى برغبته تلك إلى صديق السوء قال له وهو يضحك:

ـ صرت أكثر مني تجربة يا صديقي. صرت من عتاة مدخني الأفيون.

ـ في استطاعتي أن أقلع عنه وقتما أريد.

ساخراً قال له صديقه:

ـ ولكنك لا تريد. أليس كذلك؟

ـ خبرني . . أيمكن أن يحصل المرء على قدر من الأفيون الخام؟

ـ لماذا؟

ـ لماذا؟ إننا عائدون إلى فرنسا وسيغدو الحصول عليه صعباً. لابد أن معك كمية مناسبة.

ـ أنا دائماً أحتاط . . غدا نشتري لك ما تريد . . ولكن حذار أن يعرف مكانه أحد من زملائنا ضباط المدمرة.

وعاد الفتى شارل أولمو إلى فرنسا وفي جيب سري من حقيبته كمية تكفيه عامين من الأفيون الخام . . صار يدخنه سراً في شقته التي استأجرها في طولون حيث يرسو الأسطول . . ثم يخرج بحثاً عن أركان الميسر في مدينة البحارة التي تجمّع فيها أكبر عدد من «الغواني» بائعات المتع . . ذات ليلة وفي وكر من أوكار إبليس، راقت له فتاة تتراقص الغواية على شفتيها الجميلتين وأدرك صاحب السوء ما يصاحبه من شوق فقال له في كثير من السخرية:

ـ أراك لا ترفع عينيك عن «ليزون»!

ـ اسمها ليزون؟ إنها جميلة.

ـ وأغلى غانية في طولون كلها. أصدقاؤها من كبار القوم. لا تبني عليها الآمال.

ـ هل تعرفها؟

ـ بالطبع.

ـ قدمني لها.

ـ إنها تقيس الرجال بشيء واحد . . بالمال.

ـ إنني أربح كثيراً على مائدة الميسر.

ـ وهذا عجيب . . هل تغش؟

ـ أنا أغش؟ طبعاً كلا . . كل ما هناك أني محظوظ . . هل تعرف؟ إنني لا أكسب

كثيراً إلا إذا كنت محمولاً على متن دخان الأفيون. عرفني بليزون.

وعرفه بليزون. . الغانية الجميلة الغالية الثمن. . وسمعت عن أرباحه من مائدة الميسر ولم يهمها إن كان يغش أو كان سعيد الحظ لا أكثر ولا أقل. .

وصارت صديقته. .

بل انتقلت لتعيش معه بعد أن أدركت أنه كنز لا يفنى. . يعود دائماً محملاً بالمال الذي جمعه بحظه الحسن من موائد القمار. . جربت معه الأفيون. . وصارت مثله مدمنة وتجمعت سحب الشر كلها في سماء عشهما حين كشر له الحظ عن أنيابه. قالت له:

ـ هنا نفترق يا شارل. لم يعد معك ما تنفق به علي. . ثيابي لم تعد لائقة دعنا نفترق. .

قال في غموض:

ـ اطمئني. إني أفكر في مشروع يجلب لنا مالاً لا ينفذ.

ـ فأسرع في تنفيذه فإن صبري أنا الذي نفذ. .

ويرتكب شارل أولمو غلطة العمر. . سألته الغانية:

ـ ما هو مشروعك يا شارل. . أهو خطر؟

ـ لا خطر بالمرة إذا تصرفنا بعقل.

ـ كيف؟

ـ في خزينة المدمرة أسرار كل الشفرة الخاصة بالأسطول بالإضافة إلى أسرار التحصينات في طولون وفي غيرها من الموانىء. . ليس من الصعب فتح الخزانة وتصوير كل تلك المستندات.

ـ وبيعها إلى من؟

ـ إلى الألمان بالطبع. سيسارع الملحق العسكري الألماني في طولون إلى شرائها

بأي مبلغ أطلبه.

ـ وكيف تفتح الخزانة؟

ـ سأنتظر حتى أكون الضابط المناوب الوحيد على السفينة ثم آخذ المفتاح من خزينة الربان وأزور واحداً مثله.. فإذا ناوبت مرة ثانية صورت كل الوثائق..

ـ هل أنت بارع في التصوير؟

ـ كلا.. ولكني سأتعلم.

واشترى آلة تصوير دقيقة، ثم تعلم كيف يستخدمها.. وجرب بها مرات تصوير الوثائق.. ثم ضرب ضربته ذات ليلة كان فيها المناوب الوحيد على الطراد..

وذهب بالصور الخطيرة إلى الملحق العسكري الألماني الذي سأله:

ـ كم تطلب؟

ـ مائة ألف فرنك؟

ـ دعني حتى أتصل برئاستي.

وبعد أسبوع قال له:

ـ آسف.. لا حاجة لنا بمستنداتك.

واستولت عليه الدهشة.. كيف يرفض الملحق الألماني أخطر ما يحرص عليه الأسطول الفرنسي؟ سأله:

ـ لم؟ إنها تحوي الشفرة الخاصة بالأسطول؟

قال الملحق ساخراً:

ـ إننا نعرفها من زمن بعيد.. آسف..

وأسقطت في يده.. فسلك أخطر طريق فوق شر الجمر.. في رعونة أرسل إلى وزير البحرية الفرنسية رسالة بالغة الجسارة:

«سيدي الوزير، في حوزتي - بطريقة لا أستطيع أن أوضحها لكم - مستندات على أكبر قدر من الأهمية. خاصة كلها بأسرار شفرة الأسطول وكتاب الإشارات الخاصة به وكذا خرائط مفصلة لحقول الألغامه في كل موانىء البلاد وبيانات إضافية عن وسائل الدفاع ضد الغواصات وبقية التحصينات البرية والبحرية في طولون وغيرها من الموانىء. وإني على استعداد لبيعها لكم لقاء مائة ألف من الفرنكات. إذا كان الأمر يهمكم فيمكنكم الاتصال بي لتحديد موعد اللقاء وتبادل ما معنا وذلك عن طريق نشر إعلان في صحيفة «الجمهورية»...

سيكون اسمي في تلك الإعلانات هو «بيير» واسمكم هو «بول». من مصلحتكم الإسراع بإجراء الصفقة فهناك من يريد الوصول إليها قبلكم وأنتم دون شك تعرفون من أعني».

لم يكن هناك مناص من النزول عند ما طلبه ذلك الجاسوس المجهول.. ظن وزير البحرية أن الملحق العسكري الألماني سيسبقه إلى تلك المعلومات الخطيرة التي تهدد كل الأسطول الفرنسي وموانيه.. ولكنه في الوقت نفسه وضع خطة مناسبة لمحاولة القبض على ذلك الجاسوس.. واجتمع بمكتب الأمن القومي:

- لن ننتظر بالطبع حتى يلعب بنا هذا الجاسوس المجهول.. فمن يدري لعله باع فعلاً تلك المستندات إلى الملحق العسكري الألماني..
- في هذه الحالة يا سيدي الوزير يلزم أن نغير من شفرتنا.
- هذا ما تعكف عليه الإدارات المختصة. وسنوزعها على قطع الأسطول فور الانتهاء منها.. ولكنه يقول في رسالته أن معه أيضاً بيانات التحصينات.. ولا أدري كيف وصل إليها.. لابد من القبض على هذا الخائن.. يخيل إلي أنه ليس أجنبياً.. رسالته مكتوبة بلغة فرنسية سليمة..



شارل ألمو خلال المحاكمة



شارل في طريقة الى السجن

وقال المفتش «سلباك» أخطر رجال مكتب الأمن القومي :

ـ أعدك يا سيدي الوزير أن أقبض عليه.

ـ ما هي خطتك يا كابتن سالباك؟

ـ أنا الذي سأقابله ومعي المبلغ المطلوب. .

ـ حذار أن ينتصر عليك. .

ـ سيدي. لقد كنت بطلاً في الملاكمة لمدة ستة أعوام. . ولـو درى المفتش سلباك بأن خصمه شخص ضعيف هزيل أفقـده الأفيون الاتـزان والتفكير المنـطقي لما أجهد نفسه في خطة القبض عليه. . تم الاتفاق عن طريق إعـلانات صحيفـة الجمهورية على اللقاء عند الكيلو ٧ خارج طولون.

ـ لماذا تظنه اختار هذا المكان يا كابتن؟

ـ لأنه مدخل الغابات. . ولكن رجالي سيكونون في كل مكان من مـدخل الغـابة وخلف صخور الطريق. .

وجاء «أولمو» في سيارة استأجرها متنكراً. . معطف ثقيل ونظارات سميكة سـوداء من تلك التي يستعملها سـائقو السيـارات قبل الحـرب العالميـة الأولى. . وتوقف على بعد أمتار من الكيلو ٧ في طـريق طولـون. . ورآه المفتش يقترب وفي يده مظروف أصفر كبير. . ثم توقف. ظل صامتاً برهة طويلة. . ولعله فكر أيضاً في التراجع. . ولكن المفتش عاجله بقوله:

ـ أنا بول. هل أنت بيير؟

ـ أجل. أنا بيير.

ـ أعطني المستندات.

ـ وأنت أعطني المبلغ. . واحترس فإني مسلح. .

ـ أما أنا فقد جئت دون سلاح. .

ـ أعطني المستندات.

ـ أعطني أنت النقود أولاً . . .

ومد كل منهما يده بما معه نحو الآخر. . كان تحت مظروف «شارل أولمو» مسدس صغير. . تناول المفتش مظروف المستندات وحين هم «أولمو» بتناول مظروف المائة ألف فرنك، أطاح به المفتش بطل الملاكمة بلكمة في فكه ألقته على ظهره وقبل أن يفيق من ذهول اللكمة كانت القيود في يديه. .

وقدم للمحاكمة أمام محكمة عسكرية قضت بتجريده من رتبته العسكرية ونفيه إلى جزيرة الشيطان مدى الحياة.

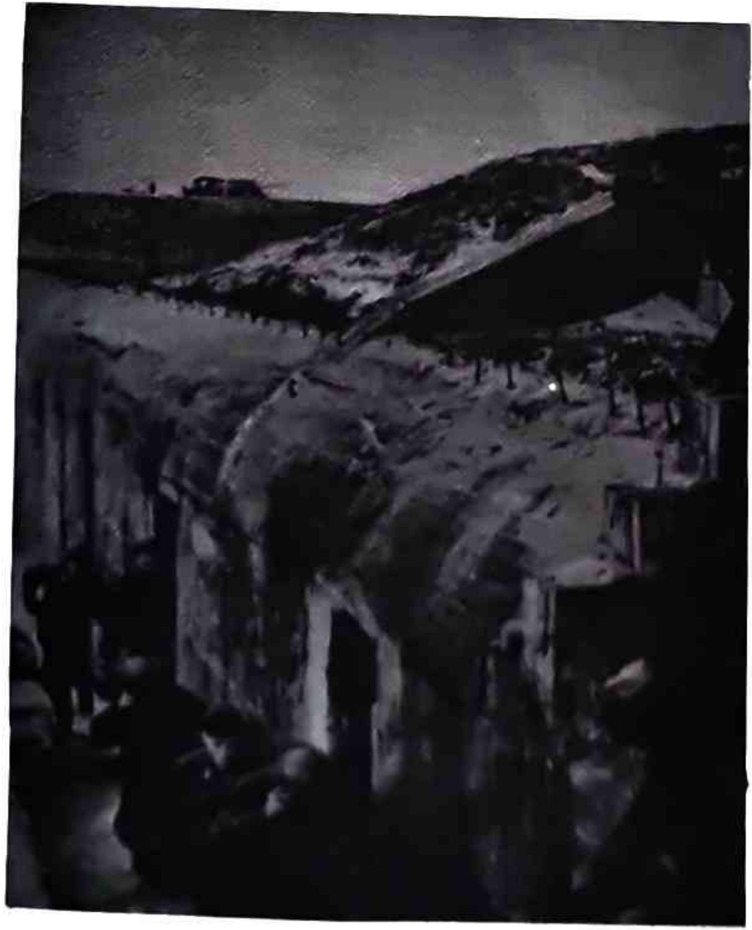
ولكنه غادر الليمان بعد خمسة عشر عاماً. . غادرها إلى عالم غير عالمه. . بحث عن «ليزون» فلم يجد لها أثراً. . حاول الدخول في الكاثوليكية ـ قد كان يهودياً ـ على وعد بإعادة النظر في قضيته فلم يهتم به أحد. .

ومات عام ١٩٢٣ منسياً من الجميع.

راؤول دوشـــيه

النقاش الذي هزم هتلر





النقاش الذي
هزم هتلر

استولى هتلر على أوروبا جميعها تقريباً. . جنود الاحتلال في كل مكان منها عدا البلاد المتحالفة مع ألمانيا كأسبانيا والبرتغال. .

وكان من المتوقع أن يحاول الحلفاء مع نمو قوتهم العسكرية ونجاحهم في طرد الألمان من شمال افريقيا، تحرير أوروبا من النير الألماني. . ولم يكن هتلر يعرف من أين ستأتيه الضربة. . رجال جيشه المشهورون بفطنتهم يقولون:

ـ سيحاول الإنجليز والأمريكيون غزوا ايطاليا من الجنوب. كل الدلائل تشير إلى ذلك. طائرات الاستطلاع تحوم حولها. . . الغواصات أيضاً. . كما أن قوة الأسطول البريطاني في البحر الأبيض فاقت المعدات المتعارف عليها. .

ولكن هتلر، ولا أحد ينكر نفاذ بصيرته، عارضهم جميعاً قائلاً:

ـ لا. بل سيهجمون من الشمال. سيحاولون النزول في «نورماندي» على وجه التحديد. . هذا أقرب مكان إلى استعداداتهم في موانىء بريطانيا. . .

كان لابد إذن من أن يحصن شواطىء نورماندي أقوى تحصين، فعهد بذلك إلى مؤسسة «تود»، أشهر مؤسسة ألمانية في عالم الصناعة الثقيلة والتحصينات. . قال لرئيسها الهرتود:

ـ أريد حائطاً لا يمكن اختراقه. . لا تؤثر فيه القذائف. . يستطيع الجنود خلفه منع الإمرار بأقل خسائر ممكنة».

وخرج «حائط الأطلنطي» الشهير إلى عالم الوجـود. . سلسلة من الحصون المنيعة التي لا تؤثر فيهـا أعتى القنابـل، وتقف أمامهـا قذائف الأسـاطيل المهـاجمة عاجزة عن النيل منها.

ولم تستـطع طائـرات الحلفاء الاستـطلاعية أن تنفـذ إلى أسرارها. . كـانوا يريدون معرفة كل شيء عنها كـي يحسنوا التعـامل معهـا عند بـدء الغزو. . ودون جدوى حاول جواسيس الحلفاء الـوصول إلى الأسرار المحجـوبة عنهم في ملفـات مؤسسة «تود» السرية. .

ومع هذا فقد لعبت الصدف. . الصدف ومهارة جـاسوس جسـور، دوراً تاريخياً مثيراً، صارت تلك الأسرار بفضلها في حوزة الحلفاء. .

كيف؟؟

باريس في أحد أيـام سبتمبر عـام ١٩٤٣، جرس بـاب شقة النقـاش دوشيه، يدق في إصرار. . وتفتح زوجته الباب.

ــ السيد دوشيه النقاش موجود؟

ــ أجل. . .

ــ إنني من عملائه. . أريد أن أتفق معه على طلاء أحد مخازني. .

ــ تفضل. . إنه في الحمام. . سيخرج حالاً. .

وخـرج دوشيه من الحـمام. . رجل ضئيـل الحجم دائم البسمـة. . يعمـل نقاشاً. . سأل زوجته همساً:

ــ يقول إنه يعرفني؟

ــ هذا ما يقول.

ــ أهو هذا الجالس في الردهة؟

ــ أجل.

ـ لم أره قط في حياتي. ومع هذا لنر ما عنده.

ودون مقدمة قال الرجل:

ـ يا سيد دوشيه. أنا أعرف أنك عضو في الخلية السرية رقم ١٥ من خلايا المقاومة الفرنسية ضد الألمان في باريس وأنك..

واعترضه النقاش:

ـ سيدي.. ما هذا الهراء، إنني...

ـ لا تخف.. إنني أدعى «والتر ديفارين» من المخابرات البريطانية.. وأعرف كل شيء عن الخلية السرية رقم ١٥ أتحب أن أذكر لك أسماء وعنوانات الأعضاء جميعاً؟

مرة أخرى اعترض النقاش في حماس:

ـ لست أدري ما علاقتي بهذا كله؟ أنا رجل نقاش فقير، أعيش مع زوجتي وطفلتي في أمان.. بل أنا في كثير من الأحيان أقوم ببعض أعمال النقاشة للألمان أيضاً..

في صبر قال الضيف:

ـ عسى ألا تطول اللعبة بيننا يا سيد دوشيه.. إنك غير مطمئن.. حسناً.. هل تعرف الكولونيل ريمي؟! طبعاً تعرفه.. إنه رئيس المخابرات الفرنسية في لندن.. وهذا خطاب منه لك شخصياً.. اقرأه وأرجو بعدها ألا ندخل في اللعبة السخيفة مرة أخرى.

وقرأ دوشيه رسالة رئيسه الكولونيل ريمي.. واطمأن...

ـ حسناً. ما تريد مني يا سيد والتر؟

ـ الكولونيل ريمي يطلب إليك أن تتعاون معي تعاوناً كاملاً.

ـ أنا رهن إشارتك.

ـ الألمان لا تساورهم الشكوك بشأنك.

ـ لأني أحسنت خداعهم حتى الآن على أي حال.

ـ حسناً. لقد أعلنوا في مدخل مؤسسة «تود» عن حاجتهم إلى من يقوم بطلاء بعض غرف من الطابق الثالث ولصقها بالورق المناسب. أنت نقاش فيجب أن تتقدم لهذا العمل.

ـ أعرف أنهم يطلبون أن يقدم النقاشون العطاءات المناسبة. ولكن موعد ذلك قد فات منذ أيام ثلاثة.

ـ قد يعهدون إليك بالعملية إذا قدمت عطاء أقل من سواك.

ـ ومن أين لي أن أعرف ما قدمه الآخرون؟

ـ هاك قائمة بأسماء كل من تقدموا. . ونسب تقريبية للأسعار التي قدموها. . اذهب من الغد وقدم أسعاراً تقل عن أقلها بعشرين في المائة على الأقل. .

ـ وما الهدف من ذلك؟

ـ سيتاح لك أثناء العمل مراقبة المكاتب. . وستقع تحت بصرك بعض الخرائط. . نريد أن تنقل لنا بالتقريب رسومات واضحة لكل ما تستطيع نقله.

ـ يا سيد والتر. . هذه مهمة مستحيلة. . يبدوأنك لا تعرف حرص هؤلاء الألمان. . ومن الخطأ أن نقلل من قيمة ذكائهم. .

ـ إنني لا أطلب منك أن تقوم بالمستحيل. . بل بالممكن. . دون أن تعرض نفسك لأي سبب للوقوع بين أيديهم. إنهم لا يرحمون من يخدعهم.

ـ لقد خدعتهم مع ذلك مراراً. . لسبب بسيط وهو أنني لم أحاول أبداً أن أستهين بذكائهم. .

ـ من حقك أن ترفض هذه المهمة إذا أردت. . هكذا يقول لك الكولونيل ريمي. .

قال النقاش مرحا:

ـ إننا لم نخيب ظن الكولونيل ريمي أبداً.. فلماذا نخذله هذه المرة؟!

في صباح اليوم التالي كان دوشيه أمام الضابط المسئول عن العطاءات...

قال له في جفاء:

ـ هكذا أنتم معشر الفرنسيين.. تظنون أن الأبواب تفتح لكم بزعم أنكم فنانون بالسليقة...

في تواضع شديد قال النقاش:

ـ سيدي الكولونيل.. إنني نقاش ماهر ورثت الصنعة عن أبي وجدي.. ثم إنني..

ـ أنت غبي.. فقد انتهى موعد تقديم العطاءات منذ ثلاثة أيام.. اطردوه..

ـ انتظر يا سيدي الكولونيل.. سأقدم لك عطاء لن تستطيع أن ترفضه.

ـ لماذا لا أستطيع أن أرفضه؟

ـ لأنه سيكون أقل من سواه.

ـ وكيف عرفت ما قدمه غيرك؟

ـ لم أعرف.. ولكن الذي أعرفه أن النقاشين الآخرين يسرقونكم.. يرونكم أثرياء ولذلك يقدمون أسعاراً مبالغاً فيها.. أما أنا فسأقدم عطاء مناسباً.

ـ إلى أي حد؟

ـ لنقل ١٠٪ أقل من أرخص عطاء قدم لكم.

ـ ولماذا تخسر؟

ـ على العكس. إن هامش ربحي بعد ذلك كبير..

ـ إذن لنجعل النسبة ٢٠٪.

ـ لا.. لنقل ١٥٪...

ـ حسناً. اكتب العطاء.

ـ ومتى أعود للعمل؟

ـ عد غداً لتعرف على ما استقر الرأي. واترك بطاقتك الشخصية هنا.. ستجدها غداً عند البوابة في انتظارك.

وكتب دوشيه العطاء، وناوله للكولونيل الألماني ثم خرج.. على الفور نادى الكولونيل مساعده وقال له:

ـ ملازم كراتز.. أريد أن أعرف من الجستابو كل شيء عن هذا الرجل النقاش.. إليك بطاقته الشخصية..

في المساء كانت أمام الكولونيل ورقة من الجستابو عن تاريخ حياة دوشيه ولكن ليس فيها أي شيء عن انتمائه إلى خلية المقاومة السرية.. اطمأن وقال لمساعده:

ـ اعط هذه البطاقة إلى ضباط البوابة.. ودعهم يسمحون للرجل بالدخول غداً.

وفي الغد عاد دوشيه.. قال له الكولونيل:

ـ إنني موافق على الأسعار التي قدمتها.. ستقوم بطلاء ثلاث غرف فقط مع لصق ورق الحائط المناسب. أريد أن أرى العينات..

ـ سآتيك بها في الغد يا كولونيل مع أدوات العمل..

ـ حسناً.

ـ أريد بطاقة للدخول كل صباح.

ـ لا.. ستمر على إجراءات الدخول كل يوم كالمعتاد.

ـ سيكون معي أحد صبياني لمساعدتي في العمل.

ـ لا بأس.. بشرط أن تكون معه أوراقه الشخصية..

على البوابة في اليوم التالي حاول الضابط المسئول منع مساعد دوشيه من الدخول. . فقال النقاش مصطنعاً الغضب:

ـ إما أن تسمحوا له بمساعدتي في العمل أو تتصلوا بالكولونيل «كيللر» من هنا.

واتصلوا بكيللر فسمحوا لمساعده الفتى بالدخول.

ولم يكن الفتى غير عضو آخر من خلية المقاومة رقم ١٥.

كل شيء يسير بطريقة عادية. . دوشيه يعمل في الحيطان على السلم الخشبي، يعاونه الفتى دون أن يثيرا شكوك الحراس والضباط الذين يعج بهم الطابق. . وطلب دوشيه مقابلة الكولونيل كيللر. . وجده هذه المرة أقل جفاء، وفي رنة صوته بوادر رقة مصطنعة:

ـ آه. . . دوشيه المرح. . ماذا هناك؟

ـ أردت أن أسألك يا كولونيل عن اللون الذي تفضله لورق الحوائط. .

ـ لقد وعدتني بكراسة الألوان. . أين هي؟

ـ هاهي. . تصفحها على مهل ثم استدعني في الوقت الذي تراه. .

ـ لا. . لا. . انتظر. . دعني أختار منها المناسب الآن.

وشرع الكولونيل كيلر في تقليب أوراق كراسة عينات الألوان. . ودخل في هذه الأثناء أحد الضباط ومعه مجموعة من الأوراق الملفوفة، سأله كيللر:

ـ ماذا هناك يا كابتن شندر؟

ـ الخرائط التي طلبتها يا كولونيل.

ـ حسناً. ضعها على المكتب.

ـ سيدي. دعني أضعها في الخزانة.

ـ شندر. قلت لك ضعها على المكتب. . سألقي عليها نظرة بعد أن أنتهي من كراسة الألوان.

ـ حسناً يا سيدي . . هايل هتلر . .

وأطال دوشيه النظر إلى الأوراق التي تركها الكابتن شندر على مكتب الكولونيل المشغول بكراسة الألوان وحدث نفسه :

«أيمكن أن تكون هذه الخرائط ذات نفع؟ من يدري؟ ألم يطلب الإنجليزي أن أنقل إليه رسوم أية خرائط تقع عليها عيني؟! ولكن كيف؟ كيف والأوراق كلها على مكتب الكولونيل نفسه؟»

وتفتق ذهنه عن حيلة. قال للكولونيل :

ـ كولونيل . . هل تسمح لي بإلقاء نظرة على حوائط غرفتك هذه؟

ـ لماذا؟ هل تنوي أن تكسوها بالورق هي الأخرى؟ هل نسيت أنها ليست داخلة في العملية؟

قال باسماً :

ـ أعرف أنها ليست داخلة في العملية . . ولكني بعد أن تعاملت معي يا سيدي بكل هذه الرقة أريد أن أطليها لك مجاناً . . فوق البيعة . . لا يصح أن تبقى غرفة رئيس الطابق هي الوحيدة دون تجديد طلائها وورقها . .

ـ لا . لا . لا داعي لذلك . .

ـ ولكني أصر يا سيدي على . . .

زجره الكولونيل بشدة :

ـ ما هذه الوقاحة يا دوشيه؟! لقد قلت لك كلا . . ألم تسمع؟

ـ حسناً يا سيدي . . أنت وما تشاء . .

وناوله الضابط كراسة الألوان بعد أن اختار منها ما راق له :

ـ خذ . . هذه هي الألوان التي أريدها لورق الغرف . . متى تنتهي من العمل؟

ـ بعد يومين يا سيدي .

ـ حسناً. سأمهلك ثلاثة أيام. . بعد ذلك سنخصم من أجرك المبلغ المحدد في العقد عن كل يوم تأخير. . .

وعاد دوشيه إلى الغرفة التي كان يعمل بها في المبنى. . إنها مواجهة تماماً لغرفة الكولونيل كيللر. . وكان في استطاعته من مكان عمله أن يرى عبر الباب المفتوح الخرائط الموضوعة على المكتب. .

كان دوشيه بالغ الجرأة. . فما أن خرج الكولونيل من غرفته وترك بابها مفتوحاً حتى حمل هو ومساعده السلم الخشبي ودخلا به الغرفة. سأله مساعده في دهشة:

ـ دوشيه. . هل أمرك الكولونيل بهذا؟

ـ لا. . ولكني لن أضيع هذه الفرصة. يجب أن أعرف ما في هذه الخرائط. . من يدري!!

بأصابع مرتعدة بدأ يفتح أول خريطة. واجهته بالألمانية هذه الكلمات. .

«تخطيط توبوغرافي لأعمال المؤسسة عند ساحل نورماندي».

ندت عنه صيحة دهشة فسأله مساعده الشاب:

ـ ماذا هناك يا دوشيه؟

ـ هذه خرائط حائط الأطلنطي. . «خمس نسخ». .

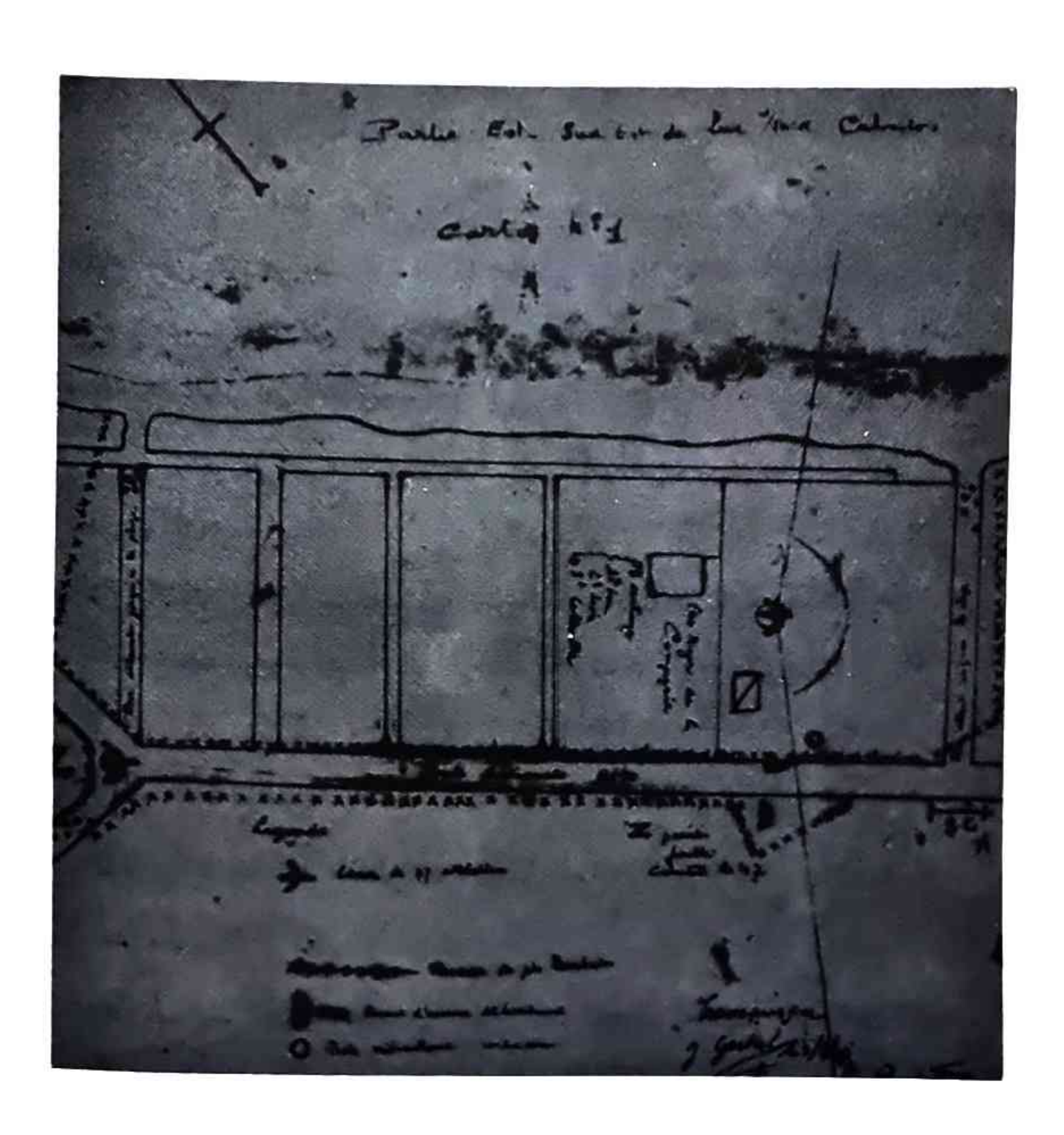
ـ أهذا معقول؟

ـ أنظر. أليس هذا منعطف نهر السين عند كليبوف؟ وهذا؟ هذا الخط المتجه إلى قنطرة أودمير، ثم إلى بلاجات تروفيل ودوفيل حتى كابور. .

ـ هذا لا يصدق!!

ـ أندريه. . ماذا سنفعل بهذا الكنز؟

وأحسا بأقدام مقتربة. . دون تفكير أسرع دوشيه ودس نسخة من الخرائط



خلف صورة هتلر المعلقة وراء مكتب الكولونيل كيللر. ثم أسرعا بالخروج من الغرفة.

في الغرفة الثانية تشاغل دوشيه بالعمل في الحوائط وعينه على مكتب الكولونيل كيللر عبر الردهة.. قال له مساعده همساً:

ـ ما العمل الآن.. لو بحث الكولونيل عن الخرائط ولم يجدها فسوف يلقي القبض علينا في الحال..

ـ ولماذا نحن؟ ثم إنها خمس نسخ فهل يفطن إلى ضياع نسخة منها؟!

ـ ستثور الشكوك حولنا على الفور، لقربنا من المكان التي كانت به الخرائط..

ـ ليس هذا ما يشغلني يا أندريه.. الذي يشغلني الآن كيف نخرج بنسخة الخرائط من المبنى..

ـ إن هذا معناه إعدامنا بالرصاص على الفور..

ـ لا مفر من المغامرة.

ـ ولكن كيف بالله؟ انظر.. ها هو الكولونيل كيللر قد عاد إلى مكتبه..

ـ لقد كان يريد أن ينظر في الخرائط. هكذا قال حين جاءه بها مساعده الضابط شندر.

وأخذا يراقبان الضابط خلسة وهو يراجع الخرائط.. وقال المساعد همساً:

ـ دوشيه.. إنه يقلب في الخرائط.

ـ وها هي الطامة.. الكابتن شندر يدخل عليه بأوراق أخرى.. ضعنا يا أندريه..

مرة أخرى يلعب الحظ دوراً سعيداً مع دوشيه ومساعده، فإن الكولونيل كيللر أخذ يتصفح الأوراق الجديدة التي جاءه بها الكابتن وعلى وجهه ابتسامة رضا.. ثم قام إلى الخزانة ووضع فيها النسخ الباقية دون أن يفطن إلى أنها تنقص

واحدة. وقال دوشيه لفتاه:

ـ سننتظر حتى يغادر كيللر ومساعده الغرفة لتناول طعام الغداء فأدخل مكتبه وآخذ الخرائط وأدسها في ملفات الأوراق الملونة التي جئنا بها.

ـ وكيف نخرج بها؟

ـ لن يفطن الألمان إلى وجود أوراق خطيرة كهذه بين أسطوانات أوراق الحائط..

ـ فإذا فتشونا؟!

ـ ولم يفتشونا؟!

ـ سيشكون في مغادرتنا المبنى بأوراق الحائط التي جئنا بها لنلصقها..

ـ سنقول أن الألوان لم ترق للكولونيل كيللر. المهم الآن أن نستخرج الخرائط من وراء صورة هتلر ونأتي بها إلى هذه الغرفة.

وطال انتظارهما ملهوفين وهما يتشاغلان بالعمل.. وسمعا الكابتن كيللر يخبر مساعده بأنه ذاهب لتناول طعام الغذاء.. وخرجا وتركا باب المكتب مفتوحاً..

ـ الآن يا أندريه.. إنها الفرصة..

ـ سأصعد على المقعد القريب من المكتب كي أصل إلى الصورة..

ـ دع هذا لي.. إنني أطول منك..

وخرج دوشيه مسرعاً متجهاً عبر الردهة إلى غرفة الكولونيل كيللر.. وحين صار قريباً منها رأى أحد الجنود يغلق بابها ثم يقف أمامها بالسلاح.. في جسارة قال له النقاش:

ـ اسمح لي بالدخول يا عزيزي.

في جفاء زجره الجندي:

ـ ابتعد أيها الفرنسي.

ولم يبتعد دوشيه. قال في إصرار:

ـ أريد أن أقيس حوائط الغرفة..

ـ هذه غرفة الكولونيل وليست داخلة في عملية الطلاء..

ـ هذا صحيح ولكن..

لكزه الجندي في صدره في عنف وهو يقول:

ـ ابتعد عن هنا وعد إلى عملك..

وسقط في أيديهما. قال الفتى أندريه لصاحبه حين عاد خائباً من الردهة:

ـ ما العمل الآن يا دوشيه؟

ـ لست أدري.. ولكن لابد من أن نحصل على الخرائط.. إن لم يكن اليوم ففي الغد.

وغادرا الطابق قرب العصر.. كانا يتوقعان في كل لحظة وهما على الدرج أن ينهال الرصاص على ظهريهما.. قال الفتى لدوشيه وهما يقتربان من نقطة التفتيش عند الباب:

ـ لا أصدق أنهم لم يكتشفوا حتى الآن اختفاء النسخة الخامسة من الخرائط..

ـ من يدري.. إن هؤلاء الألمان أذكياء جداً.. لعلهم يريدون أن يعرفوا كل تحركاتنا بعد أن نغادر المبنى ليتوصلوا إلى بقية أفراد الخلية..

ولكنهما غادرا المبنى في أمان.. وذهب دوشيه إلى داره وقد استرد بعض رباطة جأشه.. وابتسم في وجه زوجته وابنته.. حكى لها عن كل شيء وهم يتناولون العشاء.. بعد العشاء جاء العميل البريطاني «والتر ديفارين».. وسمع من دوشيه الأنباء المثيرة. قال في ذهول:

ـ لا أصدق. حائط الأطلنطي؟! هذا حلم!!

في مرح قال دوشيه:

ــ وبالتفاصيل يا سيد ديفارين . . التحصينات كلها من كليبوف حتى تروفي لودوفيل على طول الساحل النورماندي . .

ــ هذه الخرائط يجب أن تصل إلى لندن .

وضحك دوشيه وقال لضابط المخابرات البريطاني :

ــ المهم أولاً هو أن تخرج من مكمنها خلف صورة هتلر في مكتب الكولونيل كيللر .

ــ كيف ستتمكن من ذلك؟

ــ لست أدري حتى الآن . . سأنتهز فرصة لا يكون فيها الكولونيل كيللر في مكتبه فآخذها وأدسها في أوراق الحوائط . .

ــ دوشيه . . إنك تعرض نفسك لخطر الموت . .

ــ أعرف . . ولكني أريد أن أؤدي خدمة لبلادي . . لي رجاء عندك يا ديفارين . .

ــ أعرف ماذا تريد أن تقول . زوجتك وابنتك!

ــ أجل .

ــ إن بعض رجالي يحومون حول المبنى هناك ، فإذا رأيت أي بادرة غير طبيعية ، أسرعت بإخراج زوجتك وابنتك من باريس إلى المنطقة الحرة .

سأله دوشيه في قلق :

ــ أتستطيع ذلك حقاً؟

ولم يكذب ضابط المخابرات البريطاني قال :

ــ لا أحد يستطيع أن يجزم بشيء أمام رقابة الجستابو . . ولكن ثق من أنني سأبذل كل جهدي لحماية زوجتك وابنتك من غضب الجستابو إذا وقعت أنت في أيديهم .

في اليوم التالي لم ير دوشيه باب مكتب الكولونيل كيللر يفتح قط . . قال له

مساعده خائفاً:

ـ دوشيه . . أتحسبهم فطنوا إلى مكان النسخة، وهم الآن يلعبون معنا لعبة القط والفأر؟

ـ لا أعتقد . : لعل كيللر مع مساعده يبحثان بعض الأمور في سرية وراء الباب المغلق . . ومع ذلك لماذا لا أجرب .

في رعب سأله الفتى أندريه:

ـ تجرب؟؟ تجرب ماذا يا دوشيه؟

ـ ابق مكانك حتى أعود يا أندريه .

اتجه دوشيه ناحية الجندي الواقف على باب مكتب الكولونيل . في جسارة قال له:

ـ أريد مقابلة الكولونيل كيللر . .

في جفاء شديد سأله الجندي الحارس . .

ـ لماذا؟

ـ لبعض شئون عقد طلاء الغرف .

قال الجندي ساخراً:

ـ في هذه الحالة عليك أن تسافر خلفه إلى «سان مالو» .

ـ ماذا؟ هل سافر في مهمة؟

ـ مهمة ستطول شهراً أو شهرين . . والآن عد إلى عملك .

ولم ييأس دوشيه . . وأتته فكرة جديدة براقة . . أسرع إلى مكتب الكابتن شندر مساعد كيللر . . قابلة شندر في جفاء:

ـ ماذا تريد أيها الفرنسي؟

ـ أردت مقابلة الكولونيل كيلر في شأن العمل؛ فقيل لي أنه سافر في مهمة . .

قلت لنفسي لعل الكابتن شندر يستطيع أن يحل المشكلة.

ـ أية مشكلة؟

ـ أريد دخول غرفة الكولونيل ولكن الجندي الواقف على بابها يمنعني.

ـ ولماذا تريد دخول غرفة الكولونيل في غيبته بحق السماء؟!

وضحك دوشيه وقال مرحا:

ـ لماذا؟ لأني أريد أن أنهي العمل.

ـ أي عمل؟

ـ لصق حوائط مكتبه بالأوراق التي اختارها.

ـ ماذا؟ إن هذا ليس في العقد.

ـ صحيح أنه ليس في العقد.. ولكن الأمر جاء إلى ذهن الكولونيل في آخر لحظة ولذلك لم يذكر مكتبه في العقد..

ـ لم يخبرني بشيء كهذا.

ـ لعله نسي.. أو لعله لم يجد الأمر يستحق أن يذكره لك..

وسكت شندر لحظة ثم قال:

ـ ربما.. ولكن لننتظر حتى يعود الكولونيل كيللر، كي يدبر الأجر الخاص بهذا العمل الإضافي.. الميزانية في اعتقادي لا تحتمل هذا.

ـ كابتن شندر.. إنني أقوم بهذه الخدمة مجاناً.

ـ مجاناً؟!

ـ بالطبع. أتحسبني أتقاضى أجراً على لصق حوائط الكابتن كيللر بعد كل ما حباني به من عطف؟!

وسر الضابط بما سمع وظهرت ابتسامته على وجهه الذي لا يعرف الابتسام وقال:

ـ أنت ظريف يا دوشيه. . حسناً. . لنذهب سوياً إلى غرفة الكولونيل.

في غرفة الكولونيل ألقى دوشيه نظرة سريعة إلى صورة هتلر المعلقة خلف المكتب ولمح طرف الأوراق التي خبأها وقال لنفسه:

ـ حمداً لله. . إنهم لم يكتشفوا شيئاً بعد.

وسأله الضابط شندر:

ـ متى تريد أن تبدأ يا دوشيه.

ـ في الحال يا كابتن. .

ـ ولكنك لم تنته بعد من الغرف الثلاث؟

ـ لقد أوشك مساعدي أن ينتهي منها. . لذلك سأبدأ في الحال بحوائط غرفة الكولونيل لننهي المهمة كلها اليوم.

ـ حسناً. سآمر الجنود بإخلاء الغرفة مما فيها من أثاث ورفع الصور من مكانها. .

في لهفة أسرع دوشيه يقول:

ـ لا. لا. يكفي أن يكوموا الأثاث في وسط الغرفة. . أما الصور فدعها لي حتى أرفعها في رفق ثم أعدها إلى أماكنها بعد لصق الورق الجديد.

المسرح ممهد الآن تماماً لعملية إخراج الخرائط من مكانها خلف صورة هتلر، ودسها ملفوفة في الاسطوانات المتبقية من أوراق الحائط. .

عند الغروب كان كل شيء قد انتهى. . وقال أندريه لدوشيه:

ـ دعني أحمل عنك ملفات الأوراق يا دوشيه.

ـ لا. إذا كانوا يلعبون معنا لعبة القط والفأر فالأفضل أن آخذ أنا كل الطلقات النارية. . غادر المبنى قبلي. . إذا لم أعد إلى داري فأهرب بجلدك. .

وتوسل إليه الفتى:

ـ لا تعد إلى دارك أرجوك. . إذا كانوا يدركون كل شيء فدعهم يقبضون عليك

بعيداً عن دارك حتى تعطي زوجتك وابنتك الفرصة للفرار.

ولكنهما خرجا من البوابة بالصيد الثمين.

واتجه دوشيه بالأوراق إلى المقهى القريب من داره.. عينه على الشارع المؤدي إلى البيت.. وطفق يلعب الدومينو مع بعض أصدقائه.. ودخل بعض رجال الجستابو، ، كانت الأوراق موضوعة قرب الحائط وأراد دوشيه أن يضللهم. صاح بهم مرحاً:

ـ هيه. أقبلوا أيها الأصدقاء.. الشراب الليلة على حسابي.. ذلك أنني ربحت مبلغاً طيباً من لصق حوائط مؤسسة تود..

من بعيد قال أحد رجال الجستابو بصوت جاف حافل بالعداء والاحتقار:

ـ آه.. النقاش الثرثار.. هكذا أنتم معشر الفرنسيين، تنفقون كل كسبكم على الشراب..

وخرجوا..

وعاد دوشيه إلى بيته خائفاً يتوجس. وجد «والتر ديفارين» ضابط المخابرات البريطاني في انتظاره. أعطاه دوشيه الخرائط.. تأملها الرجل وقال لا يستطيع أن يكتم دهشته:

ـ يا إلهي.. هذا كنز لا يقدر بمال..

ـ بلغ «الكولونيل ريمي» في انجلترا أنني أنا الذي قمت بهذا كله.

ـ ستبلغه بنفسك.

ـ بنفسي؟!

ـ أجل.. يجب أن تغادر أنت وزوجتك وابنتك فرنسا.. سيكتشف أمرك إن لم يكن اليوم فغداً.. لا آمن عليك بعد اليوم..

ـ ولكن.. لكن كيف أهرب من فرنسا والجستابو في كل مكان؟

ـ دوشيه . . لقد أديت مهمتك فدعني أنا أؤدي مهمتي . .

وبلغت خرائط الأطلنطي لندن!

ولم يصدق تشرشل وأيزنهاور أن بين أيديهم مفاتيح حائط الأطلنطي كله . .

ولم يكتشف الألمان سر الدقة في القذف الأمريكي البريطاني عندما بدأ الغزو لحائط الأطلنطي عند الشاطىء النورماندي .

لم يعرفوا القصة إلا بعد انتهاء الحرب ونشرها على الملأ في كتاب عنوانه :

«مغامراتي في غرف مؤسسة تود الألمانية : بقلم راؤول دوشيه» .

الفريد ريدل



الجاسوس الذي دفن الامبراطورية النمسوية



زوجة الكولونيل ريدل السرية

الجاسوس الذي دفن الامبراطورية النمسوية

الرجل الذي دفن الامبراطورية النمسوية . .

لولاه لصارت أوروبا عام ١٩١٤ حتى يومنا هذا تحت الجزمة الألمانية . . .

كان أخطر رجل في النمسا . . تخشاه فرنسا وانجلترا وروسيا معاً . .

الكولونيل «الفريد ريدل» رئيس مكتب مكافحة الجاسوسية الملحق بإدارة المخابرات السرية للامبراطور النمسوي فرنسوا جوزيف .

ومع هذا فلم يكن غير جاسوس بوجهين . . لحساب بلاده . . ثم في نفس الوقت لحساب عدوة بلاده اللدود روسيا . . . وفوق كل شيء وقبل كل شيء لحساب نفسه . .

نحن في مكتب الكولونيل باتيوشين مدير مكتب مكافحة الجاسوسية الروسي نستمع إلى ما يدور بينه وبين مساعده الكابتن برات :

ـ يخيل إلي أن الوسيلة الوحيدة للتخلص من الكولونيل ريدل هي اغتياله . . إننا نفقد جواسيسنا الواحد بعد الآخر في النمسا . . هذا اللعين ريدل «يشم» الجواسيس كما يشم كلب الصيد الفريسة .

ـ لو بدأنا لعبة الاغتيالات يا كولونيل لا نأمن أن ينقلها النمسويون إلى بلادنا . . اذكر يا سيدي أيضاً أن القيصر نفسه ضد فكرة الاغتيالات .

ـ بالطبع. بالطبع. وأوامره إلي صريحة في هـذا الباب. ولكن لا مفـر من مخالفـة الأوامر بذكاء. . أريد ملفاً كامـلاً عن ريدل. . لا تـدعو شـاردة ولا واردة من حياته إلا ويكتب عنها جواسيسنا في ڤيينا وبرلين أكثر من تقرير. . اهتموا بكـل شيء من تفاصيل حياته. . طفولته. . دراسته. . عيوبه. . علاقـاته الخـاصة بالامبراطور النمسوي. . حالته المالية. . كـل شيء. . سنجد الثغـرة التي ننفذ منها إلى هذا الرجل للقضاء عليه. .

كان ألفريـد ريدل، حقـاً، أذكى من احتل منصب رئيس مكتب مكـافحة الجاسوسية في النمسا. . ذكـاء خارق. . قـدرة فذة عـلى اصطيـاد الجواسيس. . براعة نادرة في الإفادة من جواسيسه في الأراض الروسية. . ضاق به الروس تماماً وبلغ من إعجاب امبراطوره به أن قلده أعلى وسام في الدولة وألحق المكتب بـإدارة مخابراته الخاصة.

حياته صفحة بيضاء نقية. . قلعة بالغة الحصـانة، عـالية الأسـوار لا يمكن اختراقها بفضيحة أو برشوة. . وكما قـال الكولـونيل بـاتيوشـين خصمه اللدود في مكتب مكافحة الجاسوسية القيصري:

ـ هذا اللعين ريدل، يشم الجواسيس كما يشم كلب الصيد الفريسة. .

وصـدق باتيـوشين. . صـدق على الخصـوص حين «اشتم» ريـدل رائحـة التجسس في هـذه الشابـة التي تتقدم بحقيبـة ثيابهـا من جمرك الحـدود النمسويـة الروسية:

ـ لا شيء في حقيبتك يا سيدتي يستحق أي رسوم. .

ـ في استطاعتي إذن أن أعبر الحدود بالقطار؟

ـ بـالـطبـع. . ولكن أرجـو أن تنتـظري قليـلاً حتى ينتهي المـوظف من فحص أوراقك.

ـ أوراقي صحيحـة يا سيـدتي. . لماذا تعـطلني؟ أنا لم أر في حيـاتي موظف جمـرك

بطيئاً، وكثير الشكوك مثلك أيها السيد؟

ـ ذلك أنني جديد في هذا العمل يا سيدتي. . أعذريني. . ومع هذا فما هي إلا لحظات يمكنك بعدها أن تعودي من جديد إلى القطار. .

كان هذا هو الكولونيل ريدل في ثياب موظف بسيط في الجمرك. . منذ غادرت السيدة فيينا في القطار وهو متربص بها في مقعد بعيد. . قام بنفسه في الجمرك بتفتيش حقيبتها. . لم يجد شيئاً. . ولكن حاسته الفريدة التي اشتهر بها تقول له أن الشابه جاسوسة وتحمل معلومات على أكبر قدر من الأهمية. . قال لإحدى موظفات الجمرك:

ـ أنا الكولونيل ريدل رئيس مكتب مكافحة الجاسوسية. وأنا على ثقة من أن هذه الشابة التي فتشت حقيبتها جاسوسة روسية. . لم أجد شيئاً في الحقيبة. . فأرجو أن تقومي بتفتيشها تفتيشاً ذاتياً في الغرفة المخصصة لذلك.

ولم تعثر الموظفة على شيء. قال لها ريدل:

ـ مستحيل. أنا واثق من أنها تحمل معلومات ثمينة. . اسمعي. . ألم تلاحظي ثوبها؟

قالت موظفة الجمرك:

ـ لا شيء يلفت النظر فيه يا سيدي.

ـ الثوب رخيص. . ولكن الدنتلا تثير الريبة. . ألا ترين أنها ثمينة بالنسبة للثوب الرخيص؟ أنا لا أفهم في هذه الأمور النسوية ولاشك أنك تستطيعين مساعدتي في هذا الشأن.

ـ أعتقد أنها فعلاً غالية الثمن جداً بالنسبة للثوب الرخيص. . «الجوب» من قماش زهيد الثمن ولكن الدنتيلا في ذيلها من أرقى الأنواع. .

ـ أريد أن أفحص هذا «الجوب» بدقة. . اعطها «جوباً» غيرها.

في غرفة مدير الجمرك فصل الدنتلا عن «الجوب» في مهارة. كانت موظفة الجمرك ترمقه في دهشة. قالت:

ـ لا شيء سوى دانتلا من أرقى الأنواع يا كولونيل.. كيف يمكن أن تخفي السيدة الروسية شيئاً في هذه الخيوط الرقيقة..

وقال ريدل وهو يبتسم ابتسامة غامضة:

ـ من يدري. من يدري.

ـ خسارة أن تمزق هذه الدانتلا..

ـ ومن قال لك أنني سأمزقها؟! إنني أنشرها على المكتب ولو كنت يا سيدتي تعملين في مكتب خرائط الجيش وليس في جمرك الحدود، لأدركت على الفور أن هذه القطعة من الدانتيلا تساوي في مساحتها، خرائط الجيش من طراز ١٦ ـ والآن.. قربي إلي التليفون يا سيدتي..

وأدار قرص التلفون:

ـ كونراد.. أنا الكولونيل ريدل. أريد أن ترسل لي على الفور كل خرائط نقط حاميات الحدود من طراز ١٦.. كلها يا كونراد.

بفحص الجوب ومقارنة رسوم الدانتيلا بخرائط النقاط العسكرية على الحدود، أدرك ريدل أن الدنتلا قد صنعت بمهارة لترسم بكل دقة، عدد نقاط الحاميات النمسوية على الحدود وأماكنها، بل وعدد ضباطها وجنودها ومدافعها.. وثيقة فنية بالغة الدقة.. كان من المستحيل التوصل إلى سرها..

ولكن ريدل كان هناك...

لم تتخلص النمسا من جاسوسة بالغة الخطر فحسب، بل من مصنع دانتلا في ڤيينا، بضاعته الحقيقية، رسم الخرائط العسكرية على دانتلا ثياب الجاسوسات..

في موسكو كان الكولونيل باتيوشين يغلي غضباً:

ـ لقد أعدم ريدل لنا حتى الآن أكثر من ستين جاسوساً وجاسوسة. . أما هذه المرة فقد حرمنا أيضاً من مصنع الدانتلا. .

برات. . أين ملف هذا الرجل؟ أين ملفه؟ لابد من أن نتخلص من ريدل بأية وسيلة.

وعكف باتيوشين طويلاً على ملف غريمه ريدل يدرسه في عناية والدهشة تستبد به مع كل تقرير.

ـ هذا غير معقول يا برات. هذا الرجل أشبه بالقديسين. . لا خمر. . لا نساء. . لا مقامرة. . كيف ننفذ إلى هذا الرجل؟ ألا يحتمل أن تكون له عشيقة يخفيها عن الناس جميعاً؟

قال مساعده برات:

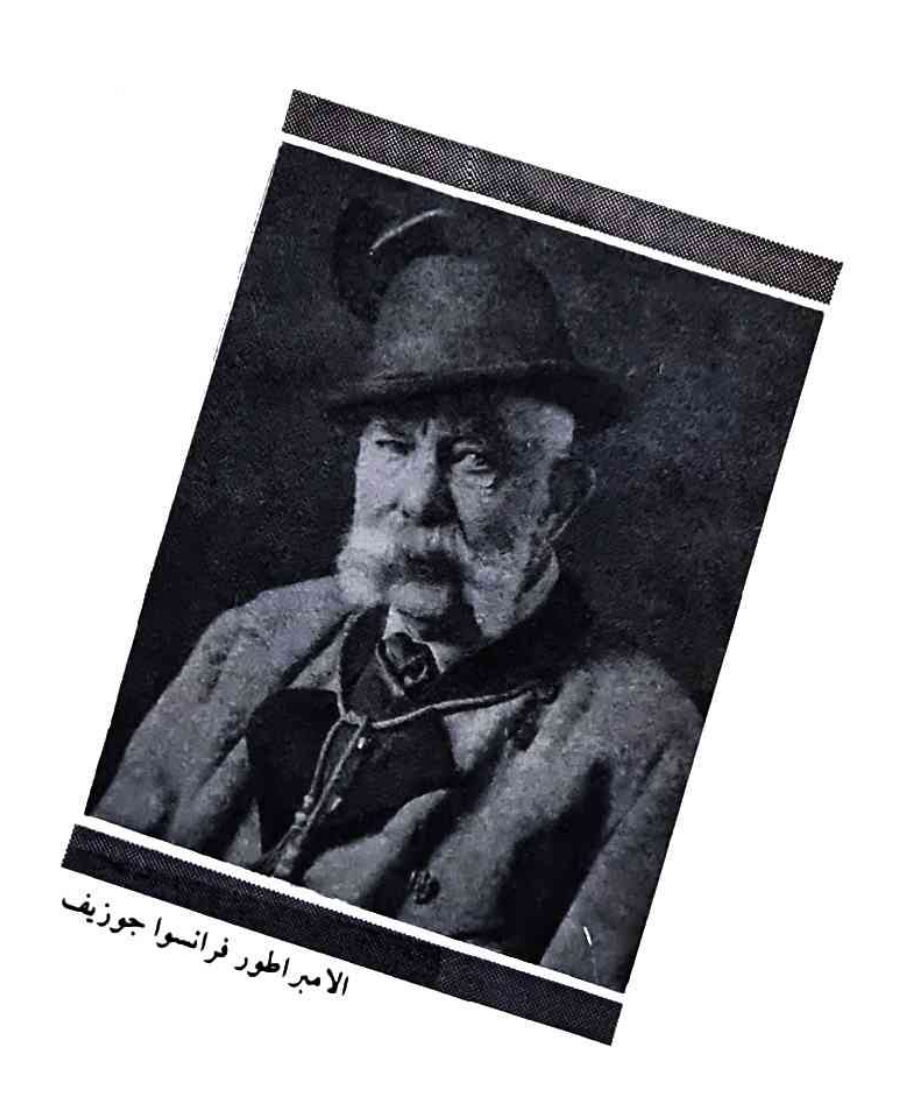
ـ لقد طلبت إلى كل جواسيسنا يا كولونيل باتيوشين التأكد من هذه النقطة على وجه الخصوص. . الرجل نظيف تماماً. .

ـ رغم أنه أعزب. . لا أحسب أن في استطاعتنا شراء هذا الرجل بالمال. . ما رأيك يا برات؟

ـ لا أعتقد أنه سيقبل الرشوة. تذكر أنه أعدم البارون «كرامر» حين عرض عليه رشوة مقنعة. . ظل يطارده حتى اكتشف أنه أحد جواسيسنا.

ـ دعنا نغامر بسلاح المرأة. . هذا سلاح لا يقل. . انتق له أجمل جاسوسة في الجهاز كله. . اعطها ما تشاء من أموال. . إذا لم ننفذ إلى حصون هذا الرجل بالمرأة الجميلة فلا مفر من اغتياله.

وأرسلوا إلى فيينا بالكونتس «سالما تيكر» سونيا سلما تيكر. . أجمل وأخطر جاسوسة في «الأواخرانا» الروسي، مخابرات القيصر الخاصة. ظلت تطارده في الحفلات التي تقام في قصور أشراف النمسا وتدعى إليها لجمالها وأناقتها واسمها الكبير. . دعته إلى شقتها مراراً فلما تأبى زعمت أن لديها وثائق على أكبر قدر من


الامبراطور فرانسوا جوزيف

الأهمية . . حين ذهب إليها ذات ليلة كانت قد تجملت له بأفضل ما تتجمل به الأنثى للرجل الذي تريد إيقاعه في غرامها . . استقبلته في ثوب خليع يكشف عن الكثير من مفاتن جسدها . .

في برود قال لها الرجل :

ـ كونتس . أعتقد أنك ستصابين بالبرد لخفة هذا الثوب . لا تحمليني هذا الوزر من فضلك . ادخلي واستبدلي هذه الثياب بغيرها .

في ڤيينا كان باتيوشين يصيح قهراً :

ـ مستحيل . . لم يستعص أحد على إغراء سونيا سالما تيكر . . إما أن هذا الرجل قديس أو وطني لا يمكن شراؤه يا برات .

ـ كولونيل باتيوشين . بماذا تكافىء من يضع يدك على الثغرة القاتلة في حصن حياة الكولونيل ريدل؟

ـ أطلب من من جلالة القيصر رتبة الكولونيل ووسام القيصرة كاترين من الدرجة الأولى . . لا تقل أنك حقاً توصلت إلى شيء يا برات؟

ـ توصلت إلى شيء بالغ الأهمية . . لقد سافرت بنفسي إلى فيينا بعد فشل سونيا سالما تيكر . راقبت ريدل مراقبة لصيقة . . تبعته أينما ذهب . . كولونيل باتيوشين . لقد ارتكب ريدل غلطة سيدفع ثمنها بحياته إذا علم بها امبراطوره فرنسوا جوزيف . . من هذه الثغرة سننفذ إلى الرجل .

ـ بحق السماء . ما تلك الغلطة؟ تكلم يا برات .

وتكلم برات بما لا يصدقه عقل . . قال :

ـ هل تذكر يا كولونيل باتيوشين حادث مصرع الأميرة الشابة ولهلمينا ابنة أخت الامبراطور النمسوي فرنسوا جوزيف وزوجة الأمير البروسي فون أوفن؟

ـ لا أحد ينسى ذلك الحادث المحزن . قتلت المسكينة منذ عامين في حادث سقوط عربتها في هوة في جبال الكربات . ولم يعثروا على جثتها إلا بعد ثلاثة

أيام وقد نهشتها الذئاب وشوهتها تماماً.

ـ الأميرة وهلمينا لا تزال على قيد الحياة وفي أتم صحة وعافية وتتفجر قوة وشباباً وأنوثة وجمالاً.

صاح باتيوشين لا يصدق ما سمع:

ـ أهذا معقول؟ والبيان الذي صدر عن القصر الامبراطوري النمسوي معلناً مصرعها؟؟ والجنازة الرسمية التي اشترك فيها سفراء دول أوروبا؟؟ أهذه كلها أوهام يا برات؟! قل كلاماً معقولاً!!

ـ هذه هي الحقيقة.

ـ ولماذا كذب الامبراطور فرنسوا جوزيف؟ هل دفنوا في مقابر أسرة الهابسبورج تابوتا فارغاً؟ ولماذا بحق السماء؟

ـ لم يكذب الامبراطور.. كما أن التابوت لم يكن فارغاً.. كانت به جثة الشابة التي وجدت في هوة جبال الكريات وقد شوهت الذئاب وجهها، والتي أقر الجميع بأنها جثة الأميرة وهلمينا...

ـ هل تعني أن المخابرات الخاصة للامبراطور النمسوي دبرت هذا المأساة لإحدى الشابات المجهولات لتختفي وهلمينا عن الأنظار مثلاً لسبب لا ندريه؟

ـ أنت الآن قريب جداً من الحقيقة.

ـ ولماذا؟ من دبر هذه التمثيلية المأسوية؟

ـ صديقنا اللدود الكولونيل ريدل.

ـ بأوامر من الامبراطور فرنسوا جوزيف؟ هذا الامبراطور لا يتورع عن قتل أقرب الناس إليه إذا تآمروا ضده.. ألم يأمر بقتل ولي عهده الأمير رودلف حين تآمر ضده!!

ـ كلا يا كولونيل باتيوشين. التمثيلية من إخراج رجل واحد هو الكولونيل

ريدل. ولا يعرف بحقيقتها أحد سواه. . والأميرة بالطبع. . ولو علم الامبراطور أن الأميرة ولهلمينا التي شيع جنازتها على قدميه من الكنيسة حتى مقابر الأسرة، لا تزال على قيد الحياة وتعيش في سرية كاملة زوجة للكولونيل ريدل لأمر بإعدامه على الفور. .

في ذهول قال باتيوشين:

ـ ماذا؟ الأميرة ولهلمينا تعيش مع ريدل؟ ولكنها، إذا لم تكن قد ماتت، لا تزال زوجة شرعية للأمير فون أوفن.

ـ هذا هو سر الكولونيل ريدل يا سيدي. السر الذي نستطيع به أن نتخلص منه نهائياً.

ـ لا أصدق. هذا جنون. . ولماذا يرتكب ريدل هذه المزلة القاتلة؟

ـ كان على علاقة عاطفية قديمة مع الأميرة قبل زواجها. . فلما تزوجت الأميرة فون أوفن دفعه اليأس إلى الاتفاق معها على إدعاء سقوط عربتها في هوة جبال الكربات. لم تكن الأميرة في العربة ساعة سقطت. . كانت فيها شابة سجينة بتهمة سياسية. . ما أن سقطت العربة حتى أطلق ريدل على الجثة ذئاب الجبال الجائعة كي تشوه الوجه تماما فلا يمكن التعرف عليها. . لا تنس أنه عبقري في أمثال لهذه العمليات. .

ـ ياللسماوات. . لقد شيعت النمسا كلها إذن وسفراء الدول الأجنبية جنازة سجينة سياسية باسم الأميرة ولهلمينا؟!

ـ واختفت ولهلمينا في دار بعيدة في غابات بافاريا. . ولما هدأت الأحزات ونسى الناس الحادث الأليم، تزوجها في أحدى كنائس كرواتيا. بعدها تنكرت الأميرة في هيئة فتى يعمل في خدمة ريدل بعد أن اشترى لها داراً أنيقة في درسدن يتردد عليها ثلاث مرات في الأسبوع في سرية كاملة. .

ـ لا ريب أنها تحبه بجنون وإلا لما اشتركت معه في هذا التدبير الشيطاني!! يا

إلهي كيف توصلت إلى هذه الأسرار يا برات؟

قال برات مرحاً:

ـ كولونيل باتيوشين. أنا تلميذك يا سيدي. لقد راقبته ليل نهار على طول الشهرين الماضيين.

وفرك باتيوشين كفيه سروراً وهو يقول:

ـ وقع ريدل في يدي أخيراً..

ـ رسالة سرية من يضع كلمات إلى الامبراطور فرنسوا جوزيف، بعدها لن يفلت ريدل من التصفية الجسدية.. لن يرحمه الامبراطور النمسوي رغم شدة حاجته إلى خدماته بعد النجاح المذهل الذي حققه مع جواسيسنا في النمسا..

ـ كلا يا برات.. إن لدي مشروعاً أفضل بكثير من القضاء على ريدل..

ـ ماذا؟ لقد كانت أمنيتنا أن نتخلص منه؟!

ـ فإذا كان هناك ما هو أفضل من ذلك؟ أين ذكاؤك يا برات؟

الآن وقد عرفنا سره فكيف يستطيع أن يرفض لنا طلباً!؟ سنرغمه على العمل لحسابنا.. أسرار الجيش النمسوي كلها في حوزته.. إما أن يعطينا بلا مناقشة وإلا أبلغنا امبراطوره بحقيقة «الفتى» الذي يعيش معه في درسدن.. وبالمناسبة. ما هو الاسم الذي تختفي تحته الأميرة في بيت ريدل؟

ـ جندي المراسلة «فرانز هوجلند».

بعد أسبوعين من هذا الحديث بين الكولونيل باتيوشين ومساعده برات، وصلت هذه الرسالة بالبريد إلى الكولونيل ريدل رئيس مكتب مكافحة الجاسوسية في ڤيينا.

«إلى الكولونيل الفريد ريدل

يهمني جداً أن أتبادل معكم حديثاً على أكبر قدر من الأهمية عن جندي

المراسلة «فرانز هوجلند» الذي يقيم في دار معينة في مدينة درسدن. سأكون في انتظارك في غرفتي بفندق المتر بوليتان في فيينا يوم الثلاثاء القادم في السابعة مساء. إذا لم تحضر يا عزيزي الكولونيل ريدل، أو إذا نصبت لي كميناً، فسيتكفل أصدقاء لي بإطلاع الامبراطور فرنسوا جوزيف على معلومات خطيرة جداً عن حقيقة الجندي «فرانز هوجلند».

سافر الكابتن برات مساعد باتيوشين إلى ڤيينا وأرسل إلى ريدل يطلب مقابلته. واضطرب ريدل ظهراً لبطن وقال لزوجته السرية الأميرة ولهلمينا:

- ويلا Wella. لو علم الامبراطور بالحقيقة فلن يرحمنا. لا مفر من أن أذهب إلى مقابلة مرسل هذه الرسالة.. لا أشك في أنه من المخابرات الروسية.

قالت له الأميرة ويلا:

- ألفريد.. سيعصرك هؤلاء الناس عصراً.. كيف بالله توصل عدوك باتيوشين إلى سرنا؟

- لا ريب أنني ارتكبت غلطة ما.. لم أكن حريصاً بما فيه الكفاية.

- ماذا ستفعل يا ألفريد؟ سأنتحر إذا أبلغوا الامبراطور بما حدث.

وحاول أن يدخل الطمأنينة إلى قلب المرأة التي يحبها:

- اهدئي تماما يا حبيبتي.. لم أعجز من قبل عن التعامل مع هؤلاء الناس.. ولن أعجز هذه المرة.. تقولين أنهم سيعصرونني عصراً.. حسناً. أنا أيضاً أستطيع أن أعصرهم.. سأذهب لمقابلة مندوبهم يا ويلا. لا تخافي يا حبيبتي.

في غرفة فندق المترو بوليتان في فيينا، دخل الكابتن برات في الموضوع كالنصل البارد:

- بكل بساطة نطلب منك أن تعمل لحسابنا من مركزك المرموق. وإلا...

- لا داعي للتهديد فأنا أيضاً أملك ما أهدد به.. ولكني ببساطة أيضاً أقول لك أنني أقبل العرض. بشرط.

ـ لا نقبل أن تفرض علينا شروط.

ـ بل سيقبلها رئيسك باتيوشين إذا علم أنني على استعداد لقتل نفسي في أية لحظة. . ولكني لا أرى ما يدعو إلى إلحاق الضرر بأحد. . سأفيدكم على شريطة أن أستفيد أنا الآخر.

ـ كيف؟

ـ المال أولاً: ثانياً. أن تمكنوني لقاء ما أمدكم به من معلومات عن الجواسيس النمسويين في روسيا والمعلومات العسكرية السرية، بمعلومات مماثلة عن «بعض جواسيسكم» في النمسا. .

ـ نسلم لك رجالنا؟. .

ـ إن هذا في صالحكم. . فإنني إذا قبضت على بعض جواسيسكم الخطرين زاد نفوذي في الدولة ولم يجسر أحد على التفكير في أنني أخون بلادي وأنقل إليكم ما تريدون.

ـ سأعود إلى موسكو وأعرض شروطك على الكولونيل باتيوشين.

ـ لما كنت واثقاً منه أنه سيوافق عليها، فإليك بيان بعدد من أريد القبض عليهم من جواسيسكم في فيينا. .

ـ نريد أن نقبض على عدد مماثل من جواسيسك في روسيا. .

ـ هذا منطقي. والآن. ماذا بشأن المال؟

ـ كم تريد؟

ـ لكل عملية ثمنها. . وأنا الذي يأحدد الثمن.

وضحك برات وقال:

ـ عظيم. . ألديك ما يفتح شهية الكولونيل باتيوشين مؤقتاً؟

وجاراه ريدل في مرحه:

ـ بالطبع. أنا لم آتـك وأنا خـالي الوفـاض.. إليك المشروع التفصيـلي لتحصين «قلعة برزميل» النمسوية على الحدود.

ـ من سوء الحظ أنني لم آت بمبلغ مناسب.

ـ لا بـأس.. يمكنك أن تـرسـل إلي مـا سـوف أطلبـه، هـذا إذا وافق الكـابتن باتيوشين على ما أعرضه، **داخل مظروف على مكتب بريد فيينا الرئيسي..**

ـ باسم من؟

ـ لا داعي للأسماء.. يكفي أن تكتب على المظروف **(أوبرا ١٣ البريد المنتظر)**.

ـ حسنا. أسعدني التعامل معك يا كولونيل ريدل..

وحذره ريدل:

ـ لا أسماء من فضلك منذ هذه اللحظة. يكفي «أوبرا ١٣».

ـ صدقت يا.. أوبرا ١٣..

وتم بين ريدل وباتيوشين أعجب اتفاق....

ولم يخذل أيهما الآخـر.. كل منهـما ينفذ الاتفـاق بأمـانة.. ودقـة دقيقة.. وتقول الزوجة لزوجها الجسور:

ـ لا أصدق يا ألفريد. باتيوشين أسلمك حتى الآن ستة من أبرع جواسيسه. كن حريصاً.

ويقول ريدل:

ـ لقد تقاضى الثمن يا عزيزتي.. أحد عشر جاسوساً نمسوياً في روسيا.

ـ من اللطيف على أي حال أنه يدفع في سخاء..

ـ بعد كل عملية أذهب إلى مكتب بريـد ڤيينا وأتسلم مـظروفاً في الـبريد المنتـظر باسم أوبرا ١٣.. وبه ما أطلب من مال، أوراقاً مالية نمسوية..

ـ ماذا يطلبون هذه المرة؟

ـ خطة تجنيد الفرقتين العاشرة والحادية عشرة على الحدود الروسية النمسوية. .

ـ ألفريد. . كيف حصلت عليها؟

ـ يا عزيزتي. . أنا الآن أخطر رجل في النمسا كلها بعد أن قبضت على أحد عشر جاسوساً روسياً. أسرار الدولة والجيش في يدي. . لا شيء يستعصى علي. . سأطالبهم هذه المرة بمبلغ كبير جداً. .

ومن عجب أن باتيوشين كان يخشى ريدل كما كان يخشاه هذا الأخير. فإن إفشاء سر زواج ريدل معناه أيضاً محاكمة باتيوشين في روسيا بتهمة تسليم عدد من رجال المخابرات إلى مكتب مكافحة الجاسوسية النمسوية. . وتلك ضربة معلم من ريدل. . أمسك برقبة باتيوشين كما أمسك باتيوشين برقبته. . وتسأل الزوجة زوجها:

ـ هيه؟ ماذا يطلبون هذه المرة أيضاً؟

ـ بعد أن أحتل الجيش النمسوي، البوسنة، يريد الروس الآن معرفة كل خططنا العسكرية في الصرب. .

ـ ألفريد. هذه خطط بالغة السرية. . هل تستطيع الوصول إليها؟

ـ بالطبع. . رغم أنها في مكتب القائد العام للجيش البارون «كونراد هوزندروف» ولكن لا تخافي. . سأصل إليها. . وهذه المرة سأطالب باتيوشين بثروة حقيقية. .

كان من الممكن أن تستمر اللعبة القذرة إلى ما لا نهاية. . لولا أن تدخل القدر في هيئة موظفة صغيرة في مكتب بريد فيينا الرئيسي. . تحدثت أكثر من مرة مع رئيسها في شأن تلك المظاريف الصفراء، فكان يطمئنها بكلمات مقتضبة. . هذه المرة تدخل مكتب رئيسها وفي يدها مظروف أصفر سميك. قال لها:

ـ هيه؟ ما المشكلة هذه المرة يا روزينا؟ المظروف الأصفر مرة أخرى؟

ـ أجل يا سيدي. «أوبرا ١٣» هذه المظروفات يا سيدي تثير شكوكي. .

ـ روزينا. إن عملنا هو تسليم البريد لأصحابه. البريد المنتظر نضعه في الخانات الخاصة به حتى يأتي صاحبه ويتسلمه.

ـ بالطبع يا سيدي. . ولكن المظروفات الصفراء التي تحمل دائما «أوبرا ١٣» تنتظر أحياناً أكثر من شهرين أو ثلاثة حتى يأتي من يتسلمها. . ألا يثير هذا الشكوك يا سيدي؟

ـ هذا يحدث أحياناً يا روزينا.

ـ بل نادراً جداً يا سيدي. . لا أحد يترك رسائله كل هذه المدة. ومما يزيد شكوكي أن المظروفات تزداد سمكاً مرة بعد الأخرى. . انظر إلى هذا المظروف مثلاً. . تحسسه يا سيدي أرجوك. .

وتحسس رئيس المكتب المظروف السميك فداخلته الريبة وقال في اهتمام:

ـ هذا صحيح. . سميك فعلاً. .

ـ كأن به أوراقاً مالية.

ـ ربما. لقد أثرت شكوكي فعلاً يا روزينا. . ولكن ليس من حقنا بالطبع أن نفتح المظروف لنعرف ما به. . الأفضل أن نذهب به إلى مدير هيئة البريد.

ومن مدير الهيئة إلى وزير الداخلية الذي أمر بفتح المظروف فعثروا بداخلها على مائة ورقة مالية من فئة الألف «كورون» ثروة طائلة. . أيقن وزير الداخلية وكان مخطئاً في يقينه هذا، أنه أمام عصابة لتزوير الأوراق المالية النمسوية وترويجها. . وصدرت تعليماته السرية التي أبلغت إلى رئيس مكتب البريد في فيينا. وقال رئيس المكتب لروزينا:

ـ اسمعي يا بنيتي العزيزة روزينا. . لقد كنت على حق في ريبتك في المظروفات

الصفراء. . أتعرفين على ما عثروا داخل المظروف؟ مائة ورقة من فئة الألف كورون.

وصاحت روزينا:

ـ يا إلهي. . مرتبي لمليون سنة. .

ـ إنها عصابة لتزوير النقد النمسوي. . ويبدو أن مقرها مدينة «كيسفادرا» على الحدود الروسية النمسوية كما هو واضح من خاتم البريد هناك. . والآن!! مهمة ضبط العصابة ألقيت على كاهلنا. . على كاهلك أنت على وجه الخصوص. .

وضحك وهو يقول:

ـ ستحصلين قطعاً على مكافأة ثمينة. .

فضحكت روزينا بدورها وقالت:

ـ لن أحصل على شيء وأنا واثقة من هذا. . وليست هذه أول مرة يخدعوننا «بحكاية» المكافآت. . أمرنا إلى الله. . ما هو المطلوب مني تماماً؟

ـ لقد أعيد أغلاق المظروف بطريقة ماهرة. وسنثبت في ركن خفي من مكتبك جرساً يتصل بغرفة يجلس فيها طوال فترة عمل المكتب، ضابطان من الشرطة السرية. . ما أن يأتي صاحب المظروف «أوبرا ١٣» حتى تضغطي على الجرس قبل أن تسلميه المظروف. . الباقي سيقوم به هذان الضابطان.

ـ بسيطة.

ـ المهم أن تتعاملي مع من سيأتي لتسلم الرسالة بطريقة طبيعية لا تثير شكوكه. .

ـ اعتمد علي. .

قرب ظهر الثاني والعشرين من أغسطس عام ١٩١٣ وقف رجل في الأربعين وسيم رشيق، في ثياب مدنية بالغة الأناقة أمام شباك الآنسة روزينا موظفة البريد وقال لها بصوت متزن النبرات:

ـ أوبرا ١٣ من فضلك . . ترى ألي رسائل عندك يا آنسة؟

ـ أعتقد هذا يا سيدي . لحظة من فضلك . .

وضغطت على زر الجرس . . وتمهلت دقيقة ثم سلمت المظروف للرجل الوسيم الأنيق .

ـ أشكرك يا آنسة .

وانصرف مسرعاً .

لماذا لم يتحرك الضابطان رغم أن الجرس دق مرات في الغرفة التي أعدت لهما؟ كانا قد غادراها منذ أقل من خمس دقائق لشراء صندوق سجائر ومجلة اليوم . . ما أن عادا حتى قالت لهما روزينا ملهوفة :

ـ أسرعا . . لقد غادر مبنى البريد من لحظات .

ـ يا إلهي . . إذا أفلت منا سلخنا وزير الداخلية أحياء . . أسرع يا شوفان .

وقال زميله :

ـ هيا . . هيا سنلحق به قبل أن يستقل سيارته أو عربة أجرة . .

وعندما بلغا باب المبنى، كان ريدل في سيارة أجرة تكاد تختفي براكبها عند المنحنى البعيد للشارع . . عبثاً حاولا اللحاق بها . . ووقف الضابطان عند باب مبنى البريد يتعاتبان ويلقي كل منهما اللوم على زميله .

ـ لقد ضعنا يا شوفان وأفلت الصيد . أنت السبب . لماذا أصررت على أن أذهب معك لشراء السجائر؟

ـ إذا لم نعثر على السيارة الأجرة فسأقدم استقالتي قبل أن نقدم إلى المحاكمة العسكرية .

ـ تعال . . سنبحث عن تلك السيارة في كل فيينا .

ـ أنت مجنون دون ريب . في فيينا أكثر من ألف سيارة أجرة على الأقل .

ـ ولكن هناك سيارة أجرة واحدة تحمل رقم ١٦٢٠ ـ لقد التقطت الرقم قبل أن تختفي السيارة عند المنحنى. هيا سنبحث عنها في كل مكان.

وعثرا على السيارة رقم ١٦٢٠ بعد بحث مضن دام أربع ساعات وقال السائق مرحاً:

ـ السيد الأنيق الوسيم الذي خرج من مكتب البريد الرئيسي؟

ـ أجل. هل تعرف اسمه؟

ـ كلا..

ـ إلى أين ذهبت به؟

ـ إلى فندق «كلومسير». يبدو أنه يقيم به.. وبالمناسبة. لقد نسي في المقعد الخلفي هذه المدية..

ـ هذه ليست مدية.. إنها فتاحة خطابات.

ـ تماماً. لقد رأيته في مرآة السيارة يفتح بها خطاباً محشواً بالأوراق المالية.. يبدو أنه نسي الفتاحة من فرحته بالنقود.. لقد كنت أنوي أن أعيدها إليه لولا أنه ترك السيارة مسرعاً.

ـ هاتها.. سنتكفل نحن بإعادتها إليه.

في مكتب الاستقبال فحصا دفتر النزلاء.. كلهم من الأثرياء ومن أصحاب الحيثيات والوظائف المحترمة «الثقيلة» هل من المعقول أن يشترك أحد هؤلاء في عملية تزوير أوراق مالية؟ مستحيل طبعاً. وقال الضابط لزميله:

ـ تصور.. الكولونيل ريدل رئيس مكتب مكافحة الجاسوسية يقيم في هذا الفندق.

ـ والجنرال ريكنتوف أيضاً.

ـ لن نصل أبداً إلى صاحب المدية.. لا أمل يا زميلي.. لا أمل..

كانت المدية الفتاحة قرب سجل النزلاء حين اقترب منها ضابط في رتبة الكولونيل. . الفريد ريدل نفسه. . قال في هدوء.

ـ أعتقد أن هذه المدية تخصني أيها السيد. . هل تسمح لي بها؟

قال له الضابط:

ـ بكل سرور يا كولونيل.

ـ هل تعرفني يا سيدي؟

ـ وهل يخفى القمر يا صاحب السعادة. .

ـ أشكرك. . أشكرك. .

وأسرع الضابط إلى التلفون:

ـ تصور يا سيدي الوزير. . إنه الكولونيل ريدل. . من يصدق؟ أجل. أجل. أراهن على ذلك بحياتي. . نقبض عليه؟ سيدي إن. . أجل. . أجل. . سننفذ أوامر سعادتك على الفور.

وألقي القبض عليه في غرفته بالفندق. قبل أن توجه إليه تهمة تزوير الأوراق المالية، تسرع فاعترف بالخيانة. . وتفجرت القنبلة. . وأصدر الامبراطور فرنسوا جوزيف أمره الحاسم. . وذهب الضابطان إلى غرفة ريدل التي اعتقل فيها في سرية كاملة. . قالا له:

ـ سيدي الكولونيل. . في هذا المسدس رصاصة واحدة. أنت تعرف كيف تستخدمها دون ريب.

في هدوء قال ريدل:

ـ أجل يا سيدي. . لي رسالة إلى جلالة الامبراطور. . رجاء أخير. . هو أن يكون رحيماً بالأميرة ولهلمينا.

ـ سأبلغ وزير الداخلية برسالتك يا سيدي.

بعد لحظات دوى الطلق الناري . . في اليـوم التالي أبلغت وزارة الـداخلية جميع الصحف النمسوية البيان المختصر عن «وفاة» الكولونيل ريدل:

«على أثر نـوبة اكتئـاب مفاجئـة ، انتحر الكـولونيـل الفريـد ريدل رئيـس أركان حرب الجيش النمسوي في براغ».

ديانا جراهام



ورقة كربون!





ورقة كربون!!

كـان من الممكن لو أسعفهـا حظهـا بساعـة واحدة فقط أن تـدخل التاريخ حاملة اللقب المثير:

«أمهر جاسوسة في الحرب العالمية الثانية».

ولكنها كانت سيئة الحظ رغم مهارتها الفائقة.

اسمها؟

ـ ديانا جراهام.

عملها؟

ـ سكـرتـيرة أحـد كبـار الضبـاط في هيئـة أركـان الحـرب المشـتركـة الأمـريكيـة البريطانية.

أما قصتها فمثيرة على بساطتها..

في تلك الأيام الأخيرة من أبريل عام ١٩٤٤ كان ايـزنهاور مع مـونتجمري يضعـان اللمسات الأخـيرة لخطة الغـزو للقضاء عـلى الامبراطـوريـة النـازيـة في أوروبا..

لم يكن أحـد يجهل أن مـوعد انـطلاق الجيوش المتحـالفة نحـو الشـواطىء الأوروبيـة قد اقـترب. ولكن الأسئلة الكثـيرة البـالغـة الأهميـة ظلت تبحث عن جـواب مقنـع.. إلا بـالنسبـة لأقـل من عشر أفـراد من القيـادتـين الأمـريكيـة والبريطانية.

ــ متى يقع الغزو على وجه التحديد؟

ــ وأين يقع؟

ــ وهل سيكون غزواً جوياً فط أم جوياً وبحرياً وبرياً أيضاً؟

ــ ما عدد القوات التي ستشترك في تلك الحملة التاريخية؟

أسئلة لم تكن تجد إجاباتها إلا عند هؤلاء الأفراد العشرة الذين خصهم ايزنهاور ومونتجمري بأسرار الغزو المنتظر.

وكان من المستحيل أن تتسرب الإجابات على تلك الأسئلة إلى غير هؤلاء العشرة. . لماذا يا جنرال هارفي؟

ــ اسمح لي أولاً أن أقدم لك نفسي. الجنرال هارفي كرين رئيس هيئة التحقيق في مكاتب المخابرات البريطانية. سألت عن سبب استحالة تسرب المعلومات الخاصة إلى آذان غير أمينة، فأقول لك إن احتياطات الأمن في المكاتب العسكرية التي تعمل في هيئة أركان الحرب المشتركة كفيلة بمنع وقوع أي تسرب. . ومع ذلك فقد حدث ما حدث في بساطة مذهلة. .

ــ وماذا حدث على وجه التحديد يا جنرال هارفي؟

ــ في مساء الاثنين الثاني والعشرين من أبريل علمنا باختفاء وثيقة بالغة الخطر.

ــ وما خطرها؟

ــ خطرها أنها تتكلم عن كثير من النقاط الخاصة بالغزو المنتظر للحائط الصلد الذي أقامه هتلر حول أوروبا المحتلة. . لا أحد من العسكريين كان يجهل أن الغزو بات قريباً ولكن لا أحد أيضاً باستثناء قلة قليلة تعد على أصابع اليدين كانت تعرف زمانه ومكانه. .

ــ أكانت هذه الوثيقة تتكلم عن زمان الغزو ومكانه؟

ــ أجل. وعن كثير من النقاط الأخرى المتعلقة بالغزو والتي يعتبر وقوعها في أيدي العدو بمثابة إنذار مبكر يقلب خططنا رأساً على عقب. . كانت هناك بعض

أوراق بالغة الأهمية، أرسلت من البنتاجون في واشنطون إلى مكتب أركان حرب القيادة المشتركة هنا في لندن. . وكان على هذه الأوراق أكثر من تأشيرة بخط ايزنهاور نفسه. أي أنها باختصار بالغة السرية والخطورة.

ـ ومتى علمتم باختفاء تلك الوثيقة الخطيرة؟

ـ بعد حادث اختفائها بأربعين دقيقة. .

ـ وكيف اكتشفتم ذلك؟

ـ حدث أن استدعى الجنرال «اكس» واسمح لي أن أشير إليه بهذا الرمز فهو شخصية عسكرية بريطانية على أعلى مستوى قيادي.

ـ كما تشاء. .

ـ حدث أن استدعى الجنرال «اكس» سكرتيرته الآنسة «حنه» وقال لها:

ـ آنسة حنة. خذي هذا المظروف تجدين به أوراقاً على أكبر قدر من الأهمية أريد أن تقومي بنسخها على الآلة الكاتبة.

وسألته:

ـ كم عدد النسخ المطلوبة منها يا جنرال؟

ـ كل شيء مبين على ورقة خاصة مرفقة بالأوراق.

ـ هل تريد أن أعرض عليك النسخ الليلة أم في الغد يا جنرال؟

في مرح قال لها الجنرال اكس:

ـ ماذا جرى لك يا آنسة حنه؟ قلت لك أنها بالغة الأهمية فحاذري أن يطلع عليها أحد.

ـ اطمئن يا جنرال. إنني أعمل دائماً وحدي في غرفتي الخاصة التي أغلقها علي بالمفتاح.

ـ أنا في انتظار هذه الأوراق. لن أبارح المكتب.

ـ حسناً يا جنرال.

ـ كم يستغرق نسخها؟

ـ هذا يتوقف على عدد الأوراق.

ـ ثلاث ورقات.

ـ سأنتهي منها في أربعين دقيقة على الأكثر.

ـ حسناً يا آنسة حنه.. بعد أن تنسخيها انسي تماما كل الذي جاء فيها. إنها كما سترين على أكبر درجة من الخطورة. ولا تتكلمي مع أحد ـ أيا كان ـ في شأنها.

ـ لن أفعل يا سيدي.

ـ فماذا حدث بعد أن نسخت حنه الأوراق؟ خرجت من المبنى بنسخة منها؟ أم أنها سربتها قبل ذلك؟

ـ لا تتسرع. دعنا نتبادل النقاط الخاصة بهذه المأساة في تسلسلها الطبيعي. ويحسن أولا كي تدرك الطريقة التي اكتشف بها الحادث أن تعرف بعض الشيء عن الاحتياطات الأمنية التي تتخذها المخابرات في المكاتب العسكرية.

ـ لابد من أنكم كثفتم تلك الاحتياطات في مكتب مثل المكتب الذي نحن بصدده؟

ـ طبعاً. فهو كما قلت لك مكتب بالغ الأهمية من مكاتب هيئة أركان حرب القيادة المشتركة.. فمن التعليمات الصادرة إلى السكتيرات وبقية الموظفات والموظفين العسكريين ألا يتم نسخ أية أوراق إلا باستخدام **«أوراق كربون جديدة تماماً مع كل صفحة»**.

ـ وما فائدة هذا الإجراء يا جنرال هارفي؟

ـ له فائدة مزدوجة فهو أولاً وقبل كل شيء يضمن ألا ينسخ من الأوراق أكثر من

العدد المطلوب من النسخ فيمكن لعضو المخابرات أن يراقب هذا في أية دقيقة وفي أي مكتب. كما أنه لا يسمح إطلاقاً بإجراء أي شطب أو كشط أثناء الكتابة على الآلة الكاتبة سواء في الأصل أو في النسخ. وتقضي التعليمات بأن تلقى الأوراق الكربونية في سلة المهملات دون تمزيق أو «كرمشة». وهذه السلال تفرغ كل ربع ساعة وتفحص محتوياتها على الفور لاكتشاف أي خطأ أو مخالفة في وقت مناسب. .

ـ وما علاقة كل هذا بالحادث إذن؟

ـ العلاقة واضحة. . ففي تلك الليلة اكتشف عضو المخابرات في سلة المهملات الخاصة بالآنسة حنه، **ورقة كربونية زائدة.**

ـ هذا يعني أنها نسخت ورقة زائدة من المذكرة المسلمة إليها.

ـ تماماً. .

ـ ولكن وجودها في سلة مهملات الآنسة حنا يبرئها. . فهو يدل على حسن نيتها. .

ـ يدل على حسن النية هذا صحيح. . ولكنه لا ينفي الإهمال. . ومن يدري ماذا حدث من جراء هذا الإهمال؟ ودعني أوضح لك الصورة. حين عادت الآنسة حنه إلى مكتبها بالأوراق وجدت مرفقاً بها ورقة بخط الجنرال أكس وعليها عدد النسخ المطلوبة. . **كانت في أول الأمر أربع نسخ ثم شطب العدد وكتب بدله الرقم خمسة.**

ـ أي أن المطلوب نسخ خمسة نسخ.

ـ هذا ما ظنته الآنسة حنه. لم تدرك إلا فيما بعد **أن أحدهم عبث بالورقة وكتب الرقم خمسة بدلاً من الرقم ٤.**

ـ ومن قام بهذا التعديل؟

ـ هذا يجرنا إلى الظروف التي جرى فيها الحادث كله. . لنبدأ بالتوقيت. . في

الثامنة إلا خمس دقـائق من مساء تلك الليلة تسلمت حنـه الأوراق من الجنرال اكس. بدأت عملها، وهذا من واقع التحقيق الذي أجريته، **في الثامنة وخمس دقائق**.. وانتهت من النسخ في **التاسعة إلا خمس دقائق**.. في التاسعة والربـع عاد الجنرال اكس من مقصف المكتب فسلمته السكرتـيرة الملف. فتحه ووجـد به النسخ الأربع المطلوبة. ولكن بعد فحص سلة مهملات الآنسة حنه وجدنـا بها أوراق كربونية «لخمس نسخ»، فأين ذهبت النسخة الخامسة!؟

ـ وطبعاً حامت الشبهات حول حنه!

ـ حول الكثيرين.. ولكن بعـد التحقيق السريع الـذي أجريتـه استقرت حـول ثلاثة أشخاص.. جندي الحراسة أمام مكتب الآنسة حنه وفتاتين أخريـين.. عرضت الأمر على الجنرال اكس فقال لي:

ـ من العبث القـول بأنني طلبت أكـثر من أربع نسـخ.. ولست أنا الـذي قمت باستبداله بالرقم ٥ ـ العبث حدث في مكتب الآنسة حنه.. ما رأيك فيها؟

قلت له:

ـ إني أسألك أنت عنها يا جنرال باعتبارها سكرتيرتك..

ـ إنها من أسرة إنجليزية معروفة يا جنرال هـارفي.. ملفها سليم تمـاماً.. وليس لديها دافع إلى الخيانة.. إن لها شقيقـين في الجبهة يـا جنرال.. كـما أنها كانت طوال المدة التي عملت معي فيها مثال الدقة والأمانة والجدية أيضاً..

ـ لقد قمت بمضاهات خطها بالخط الذي غير الرقم ٥ إلى الرقم ٤ ـ ومن المؤكـد أنه ليس خطها.

ـ فيمن تشتبه إذن؟

ـ في الآنسة.. «ديانا جراهام» زميلتها التي تعمل في المكتب المجاور.

ـ ولماذا تشتبه فيها!

ـ لأنها من أصل ألماني.

سألناه:

ـ هل قمت بالتحقيق مع الآنسة «ديانا جراهام» يا جنرال هارفي؟

ـ قيل لي أنها خرجت إلى بيتها بعد انتهاء وقت العمل مثل بقية الموظفين بالمكاتب. أرسلت من يأتي بها إلى المكتب فعادوا يقولون أنها لم تعد إلى دارها.. استدعيت الآنسة حنه وسألتها عما إذا كانت قد رأت ديانا جراهام في تلك الليلة فقالت:

ـ أجل يا جنرال. لقد دخلت ديانا غرفة مكتبي الليلة.

ـ متى؟

ـ حين تسلمت من الجنرال أكس الأوراق المطلوب نسخها وعدت بها إلى مكتبي وجدتها في انتظاري.

ـ هل من عادتها أن تمر عليك في المكتب؟

ـ أجل يا سيدي. كل ليلة تقريباً. لنخرج معاً. فقد كان موعد الانصراف قد اقترب.

ـ وماذا حدث في مكتبك؟

ـ لا شيء.. شرعت على الفور في تنفيذ طلب الجنرال اكس بنسخ الوثيقة.

ـ ألم تشتبهي في الشطب الذي وجدته في عدد النسخ؟

ـ كلا.

ـ مع العلم بأنك تعرفين جيداً عادات الجنرال اكس وهو أنه يوقع تحت أي شطب يجريه!

ـ كنت جائعة ومتعبة وأشعر بصداع شديد فلم أنتبه إلى ما وقع.

ــ هل كانت الآنسة ديانا موجودة في غرفتك طول وقت النسخ؟

ــ أجل.

ــ ألم تغادري المكتب أبداً خلال تلك الفترة؟

ــ لا أظن..

ــ تذكري جيداً يا آنسة حنه..

ــ أجل.. أجل.. الآن أذكر.. حين عدت من مكتب الجنرال اكس ومعي الأوراق المطلوب نسخها. وجدت ديانا في مكتبي وقالت لي مرحة كعادتها:

ــ عمل إضافي ووقت الانصراف يقترب؟

قلت لها:

ــ بضع أوراق سأنسخها بسرعة ثم ننصرف.. أوراق الجنرال اكس.

ــ حسناً. سأبقى معك حتى نغادر المكتب سوياً...

ــ اذهبي أنت يا ديانا فقد أتأخر.. يا إلهي.. لشد ما أنا متعبة.. صداع رهيب يكاد يحطم رأسي..

ــ وكيف تنسخين الأوراق بدقة مع هذا الصداع؟ ادخلي حمام المكتب واغسلي وجهك وتناولي قرصاً من الاسبرين يرتد إليك نشاطك ويزول الصداع.

ــ أترين هذا حقاً يا ديانا؟

ــ طبعاً. لا شيء يجدد النشاط في وقت كهذا كالماء البارد على الوجه.. هيا.. هيا..

وسألت الآنسة حنه بعد أن أدخلني الشك في تصرفات ديانا جراهام:

ــ ودخلت حمام المكتب وتركتها في غرفتك؟

ــ أجل.

ـ هل أخذت معك ملف الأوراق المطلوب نسخها؟

ـ كلا.

ـ لماذا؟

ـ نسيت أن أفعل هذا.. ولكني.. يا إلهي.. لقد كنت واثقة تماماً من صديقتي ديانا جراهام.

ـ كم نسخة نسخت على الآلة الكاتبة يا آنسة حنة؟

ـ خمس نسخ كما طلب الجنرال اكس.

ـ كما خيل إليك أنه طلب.

ـ أجل يا سيدي.. لقد كنت متعبة ففاتني أن الجنرال معتاد على التوقيع تحت أي شطب. بعد أن قمت بالنسخ ألقيت بأوراق الكربون كما اعتدت في سلة المهملات.

ـ ألم تغادري المكتب بعدها.

ـ بعد أن انتهيت من النسخ ذهبت إلى دورة المياه لتنظيف يدي..

ـ وذهبت معك ديانا؟

ـ لا.. بقيت في المكتب حتى عدت فدخلت بدورها حمام المكتب.

ـ دخلت الحمام بعد أن أعددت النسخ الخمس كل نسخة وحدها أم قبل ذلك؟

ـ بعد أن أعددتها ووضعتها في الملف.

ـ ولكنك تركت الملف ودخلت دورة المياه؟

ـ أجل.

ـ وكانت ديانا طيلة بقائك في الحمام في المكتب وحدها؟

ـ أجل يا سيدي. لم أتصور أبداً أن تجرؤ على سرقة النسخة الخامسة..

ـ حين عدت من الحمام ألم تراجعي عدد النسخ؟

ـ كلا. أخذت الملف كما هو وذهبت به إلى الجنرال اكس. .

ـ هل أنت واثقة من أن أحداً لم يدخل المكتب خلال تلك الفترة سواها؟

ـ أجل يا سيدي. . أنا واثقة من هذا تماماً.

ـ إذن فلم يسرق النسخة الخامسة بعد كل هذا التدبير غير صديقتك ديانا جراهام. . ولكن فاتها لسوء حظها أن تأخذ الأوراق الكربونية الخاصة بالنسخة الخامسة. . لولا هذا لما اكتشفنا الحادث على الإطلاق.

وبحثوا عن ديانا جراهام في كل مكان خشية أن تسارع إلى المكان الذي أخفت به الجهاز اللاسلكي لترسل إلى ألمانيا ما توصلت إليه من معلومات بالغة الخطر. . أين قبضتم عليها يا جنرال هارفي؟

ـ في الغابة القريبة من بيتها. كانت على وشك أن تستخدم جهاز الارسال. قبضنا عليها والنسخة الخامسة في يدها.

ترى أكان غزو الحلفاء لأوروبا يوم السادس من يونيو عام ١٩٤٤ يحقق ما حقق من نجاح لو أن «ديانا جراهام» لم تنس أن تلتقط أيضاً من سلة المهملات ورقة الكربون الزائدة. .

روث كـــون



صالون «روث» للتجميل



صالون روث للتجميل

لم يعد كسب المعارك في أيامنا هذه، يتوقف على شجاعة الشجعان، وذكاء القادة، فحسب.

الأحداث المتتالية في حروب هذا القرن الدموي تؤكد أن دور أجهزة المخابرات بأسمائها العديدة، وتشكيلاتها المختلفة، المستترة أحياناً تحت لافتة شركة تجارية أو سياحية بريئة. . أو مؤسسة ثقافية طاهرة الذيل. . أو في أهاب فتاة جميلة رقيقة تبحث عن زوج عاطفي. . أو صبي صغير مولع باللعب هنا وهناك.

لولا جسارة هذه الفتاة الجميلة الرقيقة. .

وبراعة هذا الصبي الصغير المولع باللعب هنا وهناك وعلى الخصوص عند تعرجات سواحل هونولولو، لما نجحت الضربة الجوية المروعة التي كسبت بها اليابان معركة بيرل هاربور في ديسمبر من عام ١٩٤١.

نحن في هاوائي في بداية عام ١٩٣٩. ويدور هذا الحديث بين رولج وزوجه:

ـ لا أنكر أن تصفيفة شعرك رائعة يا عزيزتي، ولكن. .

ـ لا تقل يا «جو» أرجوك إن مرتبك لا يلاحق مطالبي!!

ـ لا. لا. لن أكرر هذه الاسطوانة المشروخة. . ولكنك يا عزيزتي ترددين على

صالون التجميل يومياً. . اذكري أن مرتب ضابط في بحرية الولايات المتحدة الأمريكية، لا يكاد يكفي نفقات المعيشة هنا.

ـ لو كنت امرأة يا عزيزي، لما قلت هذا. كل سيدات هاوائي يترددن على صالون «روث». . إنها أروع مصففة شعر في العالم كله. هي ومن يعملن معها. .

ـ أعرف أعرف. . وهل لنا نحن الضباط من حديث إلا عن روث وصالونها؟

ـ وعسى ألا يحاول أحد مغازلتها فهي عنيفة مع كل من يحاول هذا. .

ـ أجل. إنها جادة وشديدة التجهم رغم شبابها وجمالها. . ولكنكن تقضين أوقاتاً طويلة في صالونها. . ماذا تفعلن طيلة هذا الوقت؟

ـ نثرثر ونتذاكر أحداث الوطن. . إن هذا على أي حال يعطيكم الفرصة للتفرغ للعب الورق واحتساء الخمر ومراقصة فتيات هونولولو في بعض المراقص ذات السمعة. كأننا لا نعرف!!!

وضحك الزوج وقال:

ـ العمل في هذه الجزر لا يقل بشاعة عن السجن. . لقد مللت تماماً. .

ـ ونحن الزوجات أيضاً. . ولولا صالون روث لما بقينا في هونولولو يوماً واحداً.

صالون روث إذن على كل لسان. .

صالون روث لتصفيف الشعر يجذب نساء الجالية الأمريكية كلها في تلك الجزيرة النائية. . وخاصة زوجات ضباط الأسطول الأمريكي. . صار ملتقى أكثر السيدات الأمريكيات أناقة. لا أحد يدخله إلا السيدات. . دخول الرجال ممنوع منعاً حاسماً. . تكفي كلمة واحدة تصدر من روث الشابة الجميلة صاحبة الصالون ليتراجع الفتيان على الفور:

ـ ممنوع الدخول أيها السيد. إنني ألمانية ومن سلالة الفايكنز وعادة نطلق الرصاص على كل من يحاول اقتحام أماكن السيدات. . ترى هل يقنعك هذا المسدس في يدي؟

ألمانية إذن وباعترافها . .

وباعتراف أوراقها الخاصة وأوراق أسرتها الصغيرة . . فثلاثة آخرون يعملون معها . . أبوها «دكتور كون» لا يفارق دفاتر الحسابات في الشقة الصغيرة فوق الصالون . . وأمها على الخزانة . . وأخوها الصغير فردريك الذي لا يكف عن التنقل بين السيدات اللاتي ينتظرن دورهن . . وثلاث فتيات تلقين تدريبهن على يد روث . . ثلاث فتيات من بنات الجزيرة . .

وأجهزة المخابرات الأمريكية غافلة عن النشاط الحقيقي لصالون روث .

ماذا تقول الأوراق السرية الألمانية عن روث وأسرتها الصغيرة؟!

تقول إنه في صباح يوم من أيام نوفمبر عام ١٩٣٥ دخل السيد هانز فريتش إلى مكتب دكتور جوبلز وزير الدعاية النازية وفي يده مفكرة صغيرة وقال للوزير:

ـ لم أترك صغيرة ولا كبيرة يا صاحب السعادة عن أسرة الفتاة إلا ودونتها في هذه المفكرة . .

كان المعروف عن جوزيف جوبلز أنه تبع نساء، وله أكثر من «صديق» يتكفلون بتمهيد طريق الغرام والمتعة الحرام للوزير الخطير ذي النفوذ الطاغي في الحزب النازي . . قال للسيد فريتش:

ـ مالي أنا والمفكرات يا هانز . . أريد الفتاة نفسها .

ـ يا صاحب السعادة . . لقد كانت معك ليلة أول أمس . . ظللت تراقصها طيلة السهرة حتى خشيت أن تنفجر السيدة زوجتك غضباً .

وضحك جوبلز وقال لموظف مكتبه:

ـ أعذرني يا هانز . . الفتاة جميلة . . تتفجر صحة وشباباً وحيوية . .

ـ ألم تعاتبك السيدة زوجتك يا دكتور جوبلز؟

ـ وبعنف . . .

ـ إنها على حق فإنك لم تدع فرصة لأحد ليراقص الفتاة . .

ـ قالت لي أن اسمها «روث كون». . تصور. . رفضت تماماً أن تزورني في شقتي الخاصة. . أين يعمل أبوها؟

ـ أبوها يدعى دكتور كورت كون، ويعمل في إحدى مستشفيات برلين الخاصة. . وأمها ربة بيت. . وأخوها الصغير في المدرسة الابتدائية.

ـ لم تكذب إذن في كل ما قالته لي أمس. . اسمع يا هانز. دعنا نرتب الأمور بحيث لا نلفت نظر الفوهرر. . أنا أريد هذه الفتاة. . ولكني أيضاً لا أريد أي لوم من الفوهرر فأنا وزير الدعاية. . ولا يصح أن يقال أن. . .

ـ دع لي هذا الأمر كله يا دكتور جوبلز. . ما رأيك لو عينا دكتور كورت كون في وظيفة الطبيب الأول لموظفي وزارة الدعاية؟

ـ وروث؟. . المهم هي روث!!

ـ عن طريق دهاليز «دكتور أوتو كورت كون» طبيب الوزارة المرموق، تمر الآنسة روث إلى الشقة الخاصة بوزير الدعاية. .

ـ أنت رائع يا هانز. . رائع. .

وقضى جوبلز وزير الدعاية النازية شهوراً سعيدة مع روث كون. . ونال دكتور كون الترقية بعد الترقية. . وانتقلت الأسرة الصغيرة إلى شقة رائعة في شارع «تانهوزر ستراس». .

وبدأ اللغط. .

ووصلت الشائعات إلى أذني «فراو جوبلز». . التي صاحت في وجه زوجها عاشق الصغيرات الجميلات. . .

ـ إذا لم تغادر هذه التعسة روث كون ألمانيا كلها رفعت الأمر إلى الفوهرر. .

قال جوبلز يهدئها:

ـ لا داعي لهذا يا عزيزتي «ماجدا». . لقد أمرت بنقل أبيها إلى فرانكفورت. .

ـ وهي معه. . لا أريدها في برلين بعد اليوم. .

ـ حاضر. . .

ـ جوزيف. . هذه آخر مغامرة سخيفة من مغامراتك. . بعد هذا لن أعاتبك. . سأترك هذا للفوهرر. . مفهوم؟

ولم يكن دكتور جوزيف جوبلز وزير الدعاية النازية، بالذي يقوى على الوقوف في وجه زوجته ماجدا. . وخاصة إذا هددت بإبلاغ الفوهرر. . أحزنه أن يخسر الفتاة الجميلة. . غير أن الموظف النشيط هانز فريتشي جاءه بالحل السعيد:

ـ عندي الحل يا دكتور جوبلز. .

ـ لا أريد لها المهانة يا هانز.

ـ اطمئن. .

ـ كيف أطمئن وماجدا تصر على إبعادها إلى فرانكفورت؟ روث ذكية ونشطة، وستموت في فرانكفورت الخالية من كل بهجة، كما تموت الزهرة الجميلة إذا حرمت من الشمس. . .

ـ عندي لها عمل سيجعل منها بطلة وطنية. . عندها لن تتكلم فراو جوبلز إذا استقبلتها كل يوم ليس فقط في الشقة الصغيرة. . بل هنا. . في مكتبك. .

وأسرع هانز إلى رجل المهمات الصعبة جنرال «دكتور كلاوس هوشوفر» الرجل الذي قالوا يوماً إنه هو الذي صنع هتلر. . جاء هوشوفر إلى مكتب جوبلز في سرية تامة وقال له:

ـ سأدربها على أعمال الجاسوسية في معهدي الخاص.

في فزع قال جوبلز:

ـ الجاسوسية يا جنرال هوشوفر؟

ـ ولم لا؟ لقد قابلت الفتاة. . أنا خبير بهذه الأمور يا دكتور جوبلز. . للفتاة كل

صفات الجاسوس الذي لا يخطىء أبداً. . بعد التدريب في معهدي ستغدو الجاسوس المثالي.

ــ وكيف تلحقها بالعمل وأنت على علاقة سيئة بالماريشال هملر؟ وأنا لا أطيق صلافة أجهزة المخابرات الخاصة بالجيش والبحرية؟

ــ ستعمل تحت أمرتي في جهاز مخابرات الخارجية.

ــ جنرال. . ألا يعرضها هذا لأي خطر؟

ــ اطمئن يا دكتور جوبلز. . بعد التدريب في معهدي ستغدو «روث كون» جاسوس العصر. الجاسوس المثالي الذي لا يمكن اكتشافه. . لأنه لا يخطىء أبداً. . إني أعرف أنك تحبها. . ولو كنت في الأربعين مثلك لنافستك عليها. .

ــ إنها جميلة جداً. . و«شقية» أيضاً.

ــ وسأحسن استغلال هذا الجمال وهذه «الشقاوة» لصالح الرايخ. .

وضحك جوبلز وقال:

ــ لا تنس صالحي. . .

ــ هذا يأتي في المقام الأول. . أنا لا أنسى أفضالك يا دكتور جوبلز!

والتحقت روث كون بمعهد الجنرال هوشوفر في سرية كاملة. . تلقت دروس الجاسوسية وأساليب العمل في الجهاز الخطير، فصارت كما توقع لها صانعها هوشوفر أبرع جاسوسة خلال الحرب العالمية الثانية. . وخرجت من حياة «جوبلز». . نسيها بسرعة بفتاة جديدة أخرى. . وشرع هوشوفر يفكر لروث في أصلح مجال للعمل بالنسبة لمن لها مواهبها. . قال لها:

ــ ستعملين يا روث في المحيط الهادي.

قالت روث مرحة:

ــ يا إلهي. . ولماذا اخترت لي هذا المكان البعيد النائي؟

ـ لأنه ميدان المعارك الحقيقية المقبلة . . .

ـ تعني أن الحرب إذا قامت بين ألمانيا وانجلترا وفرنسا، ستشمل بلاداً أخرى في المحيط الهادي .

ـ لا مفر من ذلك . . كالعادة ستحاول الصهيونية الزج بأمريكا في الحرب لمساعدة انجلترا وفرنسا نكاية فينا . . . وسنحاول من جانبنا أن نزج إلى الميدان باليابان . . .

ـ هذا منطقي . فاليابان طامعة في أملاك الغرب وأملاك أمريكا في المحيط الهادي .

ـ وأنا الذي أدير المفاوضات النازية اليابانية تحسباً لموقف كهذا . . .

ـ أتعني أن هناك علاقة ما بين مخابرات الخارجية النازية ومخابرات اليابان؟

ـ علاقة وثيقة . ولكنها مرحلية . . لعلك تعلمين أنني كنت الملحق العسكري الألماني في طوكيو أيام الحرب العالمية الأولى؟

ـ أجل . أعلم ذلك . . ولكن هل سيسمحون لي بالعمل في تلك المناطق تحت إدارتهم أم تحت إدارة مخابرات خارجيتنا؟ !

ـ هذه النقطة من السهل القفز من فوقها . . لقد أخبرني جهاز المخابرات اليابانية، أنهم هذه الأيام في حاجة إلى فتيات ورجال من البيض لإلحاقهم بالعمل في مناطق المحيط الهادي . . المناطق الأمريكية على وجه الخصوص . .

ـ فماذا عن جهاز المخابرات الأمريكية؟

ـ إنه جهاز حديث قليل الخبرة . . ومن السهل «زرع» من نريد من جواسيس في مناطق نفوذهم ومراكز تجمعاتهم البحرية ومطاراتهم في جزر المحيط وخاصة في جزر هاوائي . . إنهم لا يتوقعون نشوب الحرب . . وحتى من يتوقعها من رجال الجيش الأمريكي، لا يظن أن أمريكا ستضطر إلى الاشتراك فيها . . وعلى هذا

فتلك هي الفرصة لنضع من نشاء من جواسيسنا في تلك المراكز سواء تحت إدارة المخابرات اليابانية أو المخابرات النازية . .

ولم يكتف الجنرال هوشوفر بإعداد روث كون . . بل انتقل بنشاطه إلى أبيها دكتور كون وولده الصغير فردريك . . وفي النهاية إلى الأم أيضاً . . «فراو كون» . . أسرة كاملة من أمهر الجواسيس أعدها هوشوفر لتلعب أخطر الأدوار في مصير الحرب في المحيط الهادي . .

في الخامسة عشر من أغسطس عام ١٩٣٥ نزلت الأسرة الصغيرة من السفينة الإنجليزية ، في ميناء هونولولو . . .

في اليوم التالي كان دكتور كون في مكتب عمدة هونولولو الأمريكي . قال له :

ــ إن قصتي طويلة يا سيدي العمدة ، ولكن يمكن أن أختصرها في جملتين . . فأنا . .

قاطعه العمدة الأمريكي مرحاً :

ــ لقد عرفتها كلها يا دكتور كون من ربان السفينة الإنجليزية . . عرفت أنك لقيت الأمرين على أيدي النازيين في برلين وأنك . . .

ــ سيدي . . إنني أود أن أنسى تلك الفترة المريرة من حياتي . .

ــ وستنساها في مغاني هونولولو يا سيدي ، سمعت أن لك ابنة بالغة الرقة والجمال ، وإنها تجيد كل الرقصات الحديثة . .

وضحك الأب وقال :

ــ يبدو أن ربان السفينة الإنجليزية يعرف عن حياتي وحياة أسرتي الكثير يا سيدي العمدة .

ــ أنت تعرف . . أو سوف تعرف ، أن حياتنا في هذه الجزيرة محصورة في السباحة والسهرات الراقصة ولعب التنس في الصباح ، والورق في المساء . . سيسعدني

أن أفتتح سهرة الغد بمراقصة فتاتك الجميلة. . ما اسمها يا دكتور كون؟

ـ روث يا سيدي العمدة.

ـ والآن. ماذا أستطيع أن أفعل لأجلك يا دكتور كون؟!

وظيفتك جاهزة في مستشفى هونولولو لو أردت.

ـ لم أفكر في ممارسة المهنة بعد. .

ـ حسبت أنك جئت تطلب التصريح الخاص بمزاولة المهنة؟

ـ قد أطلبه في وقت آخر. . أما الآن فأطلب التصريح لابنتي روث بافتتاح صالون تجميل في هونولولو. . إنها مصففة للشعر رائعة. . تلقت تدريباً خاصاً في أرقى مدارس باريس وبرلين وفيينا. . .

وحصلت روث على رخصة صالون التجميل. . .

الصالون الذي غدا ملتقى أكثر السيدات الأمريكيات أناقة.

وعلى وجه الخصوص زوجات ضباط الأسطول الأمريكي في هاوائي. .

الرجال ممنوعون تماماً من الاقتراب من ذلك الصالون.

ومع هذا فقد اخترقنا الحصار ولجأنا إلى أبيها. دكتور أوتوكورت كون. قال لنا:

ـ أجل. لا رجال في صالون ابنتي روث. .

سألناه:

ـ الذي أعلمه يا دكتور كون أنك حصلت على رخصة الصالون من عمدة هونولولو في أغسطس ١٩٣٥ حيث جئت بأسرتك إلى هنا من ألمانيا. . لماذا تأخر افتتاح الصالون حتى أوائل عام ١٩٣٩؟

ـ كنا على وشك افتتاحه في هونولولو لولا أن أرسل إلينا الجنرال هوشوفر رئيس مخابرات الخارجية النازية برقية عاجلة بالتأجيل.

ـ وأطعتم أوامره؟

ـ سيدي. إنه هو الذي أرسلنا إلى هنا. ومن يعمل بالجاسوسية عليه أن يطيع رؤسائه وإلا تعرض «لحادث مؤسف». . قد يكون الجنرال هوشوفر رقيقاً لطيفاً في علاقاته الاجتماعية، ولكنه كالسيف الباتر في شئون العمل وكلمته عند الفوهرر لا ترد.

ـ وفي رأيك ما هي أسباب التأجيل؟

ـ دعني أوضح لك الأمر. المخابرات الألمانية، والمخابرات اليابانية، على أتم وفاق. ولكن عندما تأتي مسألة تبادل المعلومات، يسود بينهما صمت التوجس وعدم الثقة. أعتقد أن الجنرال هوشوفر كان لا يزال ينسق العمل مع المخابرات اليابانية ولم يكن قد توصل بعد إلى الصيغة المناسبة للتعاون الكامل.

ـ وماذا فعلتم خلال فترة الانتظار التي طالت حوالي ثلاثة أعوام؟

ـ وطدنا علاقتنا بالجيران في هونولولو. فكنت إذا شهدت حفلاً من حفلات العمدة الأمريكي سمعت أمثال هذه التعليقات:

ـ الحق أنني لم أر أسرة متحابة متآلفة كأسرة الدكتور كون. . ابنتهم الآنسة روث بالغة الرقة والذكاء. . صديقة للجميع. .

ـ والدكتور كون. . متفان تماماً في خدمة أسرته. . يعاون زوجته السيدة «فريدل» في أعمال البيت ويجيد لعب التنس، أخبرني أنه سيفتتح عيادة قريباً جداً.

ـ أما صغيرهم فردريك فمثال النشاط والأدب. . إذا بحثت عن أي واحد من أفراد الأسرة فلن تجده إلا مع الباقين. .

كان همنا الأول يا سيدي، أن نكسب ثقة الجالية الأمريكية. . كنت في منتهى الحرص مع موظفي مكتب العمدة الأمريكي، لعلمي بأن أجهزة

المخابرات عادة تستخدم صغار الموظفين في جمع المعلومات عن الغرباء. . لذلك لم أنشىء معهم أية علاقات. . إلا مع العمدة بالطبع. . قال لي ذات يوم:

ـ إنني على استعداد لمنحك ترخيص ممارسة مهنة الطب هنا في أي وقت يا دكتور كون. . إنك كسب كبير لمجتمع هونولولو.

ـ حين أنهي دراستي للغة اليابانية يا سيدي العمدة سأتفرغ تماماً للطب.

ـ بالمناسبة. . ما حكاية دراسة اللغة اليابانية هذه؟ لماذا تشغل نفسك بلغة قديمة؟

ـ طالما تقت لدراسة الآثار يا عزيزي. . وإنها لفرصة لوجود عدد كبير من اليابانيين في جزر هاوائي. . إنني لا أدع فرصة تمر دون أن أزور الأماكن التي نزل بها المستوطنون الأوائل في هذه الجزر. . إنها قريبة من البحر هذا صحيح. . ولكني سباح ماهر.

ـ لست وحدك السباح الماهر. . ابنتك الآنسة روث أيضاً تجيد السباحة. . طالما رأيتها تسبح في الخليج ومعها ولدك اللطيف فردريك. . لست أدري لم تترك أسرة متآلفة كأسرتك، موطنها في ألمانيا وتأتي إلى هذه المناطق البعيدة؟!!

وفاجأني بسؤال خطير:

ـ ما رأيك في سياسة هتلر؟

ورغم المفاجأة فلم يبد على وجهي ما يشيء بالاضطراب الذي أثاره السؤال. قلت في هدوء:

ـ أنا لا أتعاطف مع هذا المجنون النازي يا سيدي. . حسناً. إذا كان هتلر لا يريدنا في بلادنا، فلنبحث لنا عن بلاد تريدنا. .

ـ أهلاً بك في هاوائي يا دكتور. . إنك موضع احترام وحب الجميع. .

لم تكن روث أقل صراحة من أبيها. قالت لنا:

ـ لن أخفي عنك شيئاً طالما ابتعدت عن الصالون. . الصالون هو مملكتي الخاصة فلا تقترب منه.

قلنا لها:

ـ كان أبوك يبرر بغضه للنظام النازي بأسلوب غير مقنع. . أتحسبين العمدة اقتنع بما قال أبوك؟

ـ العمدة رجل ساذج. ولقد وجه لي نفس السؤال فقلت له إنني غادرت ألمانيا منذ عام ١٩٢٧ وكنت عندها أصغر من أن تشغلني السياسة. .

ـ وكيف صدق وأوراق الأسرة كلها تقول أنكم غادرتم برلين في عام ١٩٣٥؟

ـ سيدي. . هل أنت ساذج؟ إننا جواسيس. . وتزوير الأوراق هو ألف باء العمل في هذا الميدان. .

ـ ومنذ نزولكم هونولولو حتى افتتاح الصالون ماذا كان عملك أنت حسب تعليمات الجنرال هوشوفر؟

ـ أن أختلط بالمجتمع الأمريكي الراقي في هونولولو، واكتسب ثقة الجميع بالاشتراك في حفلات الرقص ومباريات التنس والسباحة. . وعلى الخصوص في جذب أكبر عدد من الضباط الشبان إلى شراك حبي.

ـ هذا قد يجرك إلى تنازلات غير كريمة مع هؤلاء الضباط الشبان؟

ـ سيدي. . من يعمل في مهنتنا هذه يجب ألا يقيم وزناً كبيراً لما تسميه «التنازلات غير الكريمة». .

ـ وإلى أي مدى كان نجاحك في تلك المهمة؟

ـ مائة في المائة.

ـ والآن. إلى مهمة السيدة والدتك وأخيك الصغير فردريك؟

ـ أمي تبدو للجميع ربة بيت طيبة مخلصة لأسرتها الصغيرة. . تحت هذا الستار

أحسنت استعمال أذنيها وعينيها. . كانت تخرج للنزهة على الشاطىء أو في قارب في الخليج تفتح أذنيها وعينيها، وتدون كل ما تسمع من أحاديث الضباط. . كل ما ترى من تحصينات في الميناء. . .

ـ وفردريك الصغير؟

ـ فردريك العزيز أخطرنا جميعاً. . ألم تره؟

ـ رأيته في قارب في الميناء. . نشيط كالأرنب المرح. . خفيف كالعصفور، لطيف كأنه ملاك. أين خطره إذن؟

ـ خطرة في ذاكرته. . أقوى ذاكرة في الوجود. . لو قرأت على مسامعه مائة صفحة مرة واحدة لحفظها عن ظهر قلب. . لذلك فهو جهاز التسجيل البشري المتحرك. . تجده في كل مكان. . في المياه بين سفن الأسطول بقاربه الصغير. . في السوق. . في صالون التجميل. . فإذا جاء المساء صعد وكتب كل ما سمع ورأى بمنتهى الدقة. . جهاز تسجيل بشري يا سيدي. . آلة تصوير أيضاً.

ـ أقمتم في أول الأمر في هونولولو. . فلماذا انتقلتم إلى بيرل هاربور؟

ـ في أوائل عام ١٩٣٩ ، اتصل بنا سراً أحد رجال الجنرال هوشوفر ونقل إلينا أوامره. قال لنا:

ـ عليكم الانتقال من هونولولو إلى بيرل هاربور، وافتتاح صالون التجميل هناك.

سألته:

ـ لماذا بيرل هاربور؟

فقال:

ـ إنه المكان الذي اختارته البحرية الأمريكية لتجميع قطع الأسطول في المحيط الهادي.

ـ وما هو المطلوب منا بعد الانتقال إلى بيرل هاربور وافتتاح الصالون؟

ـ إرسال تقارير دورية مفصلة عن كل شيء في الميناء. . عدد السفن الحربية. طرازها. نوعها. تسليحها. مواعيد الدوريات. عدد الضباط. الأجهزة السرية في السفن. أسلوب المناورات. . أحاديث الضباط. . وكل «دردشة» زوجات الضباط. . ليست مهمتك «تحليل» ما تصلون إليه من معلومات. هذه مهمة المخابرات اليابانية.

قلت في دهشة:

ـ اليابانية؟ إننا نعمل لحساب المخابرات الألمانية. .

في برود قال الرسول:

ـ لقد «أعاركم» الجنرال هوشوفر إلى المخابرات اليابانية. . أنتم الآن تحت الرئاسة المباشرة للقنصل الياباني في هونولولو «السيد أوتجيرو أكودا». . تقاريركم ترسل إليه شخصياً.

ـ فماذا عن الجنرال هوشوفر؟

ـ يجب أن تصله منكم نسخ طبق الأصل من تقاريركم إلى القنصل الياباني. . بالمناسبة إليكم هذا المبلغ أول دفعة من مكافآت المخابرات اليابانية. مائة ألف دولار.

وصار صالون «روث» لتصفيف الشعر، الشبكة التي تقع فيها كل «الأنباء الخطيرة». . فزوجات الضباط ثرثارات. . وجهاز التسجيل الحي «فردريك» يدون في المساء كل كلمة ويترك تفسيرها للقنصل الياباني. .

في سرية تامة قابل دكتور كون القنصل الياباني في غفلة من المخابرات الأمريكية النائمة على آذانها. . وعاد إلى داره متجهماً. وقال لروث:

ـ طوكيو تطلب معلومات أدق. . يقولون أن الموقف الحالي يستدعي مزيداً من

التفاصيل والأرقام. . يطلبون رسوماً للسفن وللأجهزة. . ويلحون في طلب الأرقام.

قالت له:

ــ لا تدع هذا يشغلك يا أبي. .

ــ وكيف لا يشغلني؟ كيف يتسنى لنا الصعود إلى السفن الحربية ورسم أجهزتها ومعرفة أوراقها؟

ــ أنا أعرف كيف. أنا وأخي العزيز فردريك. .

ــ روث. . لا تخاطري بحياتك. . ماذا ستفعلين؟

ــ سأصبح خطيبة أحد ضباط البحرية الأمريكية. . لن يمانع أحد في صعود الخطيبة العزيزة وأخيها الصغير مع الخطيب الأمريكي العاشق إلى أي قطعة بحرية راسية في الميناء. . ما رأيك؟

ــ كوني حذره يا روث.

وصارت روث خطيبة الكولونيل «وليم هارفس» أحد كبار ضباط حاملة الطائرات «أريزونا». . أخطر القطع البحرية الأمريكية. . كانوا يعتبرونها «قلعة المحيط الهادي التي لا تهزم». .

ونسي رجال البحرية الأمريكية في بيرل هاربور كل تعليمات الأمن بابتسامة روث الساحرة، وخفة ظل الصبي الصغير فردريك. . صارا ضيفين شبه دائمين على حفلات كل ضباط القطع البحرية. قالت ذات يوم لأبيها:

ــ أتعرف يا أبي. . فردريك تجول اليوم في كل أركان حاملة الطائرات أريزونا. . كان يضاحك هذا، ويمازح ذاك. . ويختبىء من هذا في غرفة الآلات. . ومن ذاك في برج القيادة. . وفي مرح وسذاجة مصطنعة يدعي الدهشة أمام الآلات المعقدة والأجهزة الحاسبة ويطلب التفسير والشرح، والضباط يتبرعون بالثرثرة والشرح والتفسير وتأييد شرحهم بالأرقام والبيانات والرسوم. .

وضحك الأب وقال:

ـ الأغبياء لا يدركون أنهم يتعاملون مع جهاز التسجيل البشري ومع آلة التصوير البشرية المعجزة.. أين هو الآن؟

ـ في غرفته يدون كل ما سمع ورأى.. بالحرف الواحد..

التقارير تخرج يومياً من صالون تصفيف الشعر إلى طوكيو وبرلين.. بينما واشنطون غارقة في نوم ثقيل..

ومرة أخرى تقترب التعليمات من السر الذي تخفيه كل من طوكيو وبرلين..

أرسلوا إلى روث أحد عملائهم:

ـ مطلوب استئجار بيت على ربوة تطل على خليج بيرل هاربور.

سألته:

ـ ولماذا على ربوة؟

ـ ليمكن رؤية الإشارات الصادرة منه إلى الغواصات اليابانية في عرض المحيط.

ـ ولكننا لا نعرف الإشارات اليابانية؟

ـ عند استئجار البيت على الربوة، سيزوركم زميل من القنصلية اليابانية في هونولولو لتدريبكم عليها.. أفضل مكان للبيت هو ربوة قريبة «كالاما» فهي أقرب بقعة للخليج كما أنها مستترة عن السفن الواقفة في الميناء...

وتغلبت روث على مشكلة البيت حين قالت «لخطيبها» الأمريكي:

ـ إنني لم أعد أطيق أسلوب أبي وأمي في مراقبتنا كلما جئت إلى الدار يا حبيبي.. أريد أن أشعر أننا وحدنا.. لا مفر من أن أفترق عن أسرتي.. ما رأيك في استئجار دار «أورشاكا» الواقعة على ربوة قرية كالاما؟ إنها دار منعزلة ويمكننا يا حبيبي أن نقضي بها أسعد الأوقات بعيدين عن رقابة أسرتي.. أليست فكرة رائعة يا وليم؟

وصارت دار ربوة «كالاما» وكر مصففة الشعر الجميلة. . **الأمسيات** للخطيب العزيز. . وبقية اليوم للتدريب على اصدار وتلقي إشارات الغواصات اليابانية. . وتسجيل كل تحركات الأسطول الأمريكي في بيرل هاربور. . في نوفمبر عام ١٩٤١ كان لدى المخابرات اليابانية كل ما تريد عن الأسطول الأمريكي في المحيط الهادي. . الأطقم. . أنواع القطع. . أعدادها. . التحركات. . والأجهزة. . التسليح. . كل شيء معد الآن للضربة الكبرى. .

والمفاوضات بين اليابان وأمريكا لا تزال مستمرة في واشنطون. . حتى ساعة الصفر كان روزفلت يقول لجنرالاته وقادة الأسطول:

– في استطاعتنا إطالة أمد المفاوضات مع اليابان إلى ما لا نهاية حتى تنتهي الحرب في أوروبا. . بعدها نستطيع أن نلقن هؤلاء الصفر درساً لا ينسى. .

الاسترخاء كامل في الميناء. . القطع الثقيلة والخفيفة جاثمة كقطعان البقر الكسول لا تخشى سكين الجزار. .

ألم يقل روزفلت في آخر بيان سري لقادة الأسطول:

– أسطولنا في المحيط الهادي هو الضمان الوحيد لسلامة الحضارة الغربية من الخطر الأصفر. ولن يتمكن اليابانيون أصحاب البسمة المخادعة من التصدي لكم إلا إذا جعلوا من المحيط الهادي أرضاً يابسة لتسير عليها جيوشهم حتى هاوائي.

وحانت ساعة الصفر في صباح السابع من ديسمبر عام ١٩٤١

ما أن ظهرت أول طائرة «زيرو» يابانية في أفق الميناء، حتى فتحت كل نوافذ بيت الربوة. . وشرعت روث وأبوها وأمها في توجيه الطائرات المنقضة إلى الأهداف الاستراتيجية، بدقة مروعة. . فتحت الجحيم أبوابها في ميناء بيرل هاربور في ذلك اليوم. .

وبين ثنايا الإهمال والغدر غرق الأسطول الأمريكي كله.

ولكن الجريمة الكاملة شيء نادر جداً. .

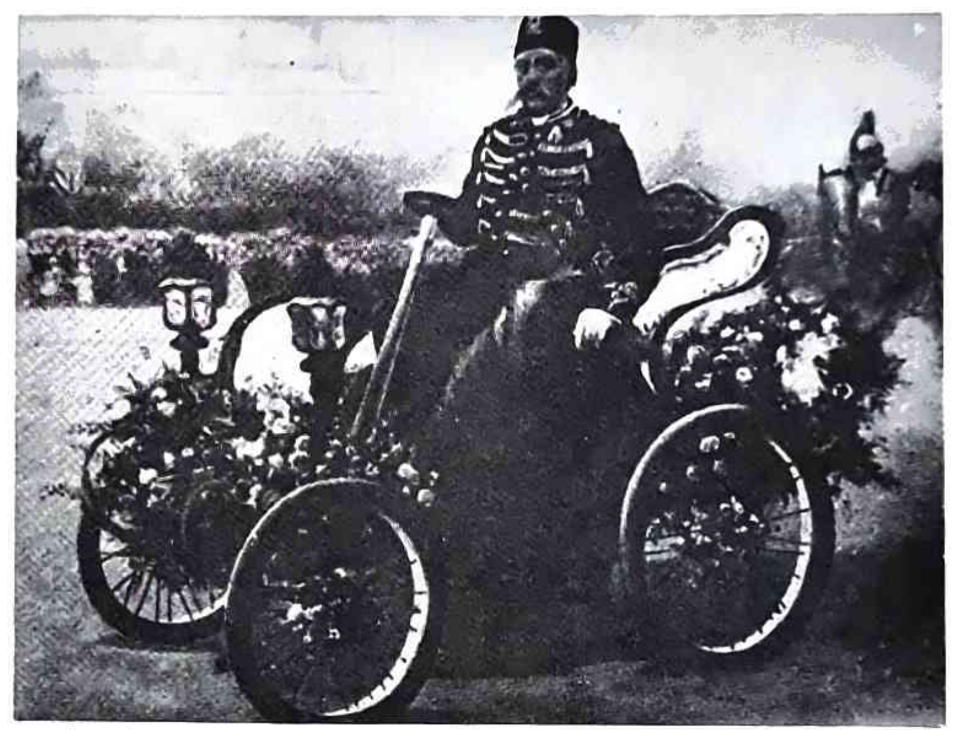
فقد قبض على أسرة كون في صباح اليوم التالي. .

حوكموا في مكان جريمتهم. . وأعدموا في أوائل ابريل من عام ١٩٤٢ أمام بيت الربوة في قرية كالاما الجميلة المطلة على خليج بيرل هاربور.

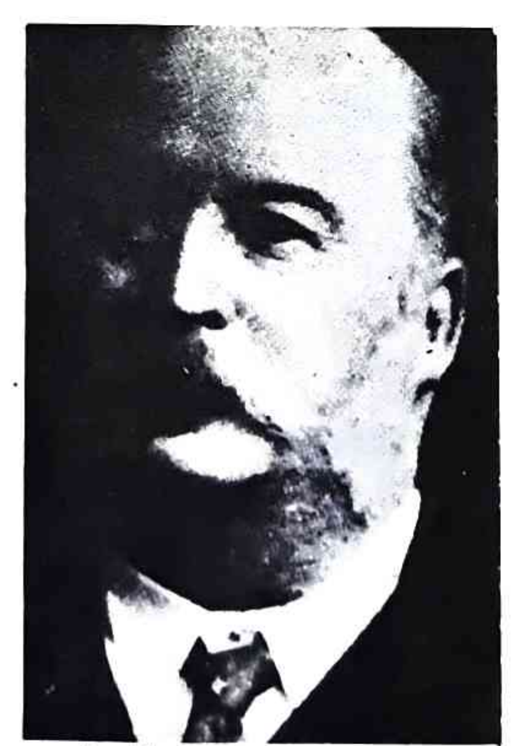
سيدنى رايلى



الوثيقة الخضراء



الشاه مظفر الدين



وليام دارسي

الوثيقة الخضراء

حين كان الغرب يتصارع صراع الموت من أجل الحصول على امتياز نفط الخليج .

ملف عجيب غريب مريب يحوي قصصاً تزري بما انتجه خيال أخصب الروائيين . .

خليط مثير من حكايات «العباءة والخنجر» و«السحر الأسود» و«ألف ليلة وليلة» أيضا . منها هذه الحكاية التي نقدمها لك اليوم «قصة أعجب شيك على بياض» .

الوثيقة الخضراء . . . .

صاحبنا اليوم يدعى «وليم نوكس دارسي» .

اسم كبير في عالم البترول . أو كان اسماً كبيراً في تلك الأيام الأولى لقصة النفط في الخليج . لا أحد يعرف الآن إلى ما انتهى .

في عام ١٩٠٠ كان «وليم دارسي» في الستين من عمره، طويل عريض كالجدار، ورقبة ثور فوقها رأس كالبطيخة الكبيرة الملساء . ولكنه رقيق . وطيب وصاحب مكرمة . . نراه يجلس في احترام وتوقير أمام رجل اكتست سترته الرسمية بعشرات النياشين والأوسمة . . مظفر الدين شاه إيران . ويدور بينهما هذا الحديث المثير:

ـ إننا يا عزيزي دارسي في حاجة إلى أشياء كثيرة لبلادنا. إنك مستشاري منذ أكثر من ثلاثة أعوام ولعلك أدركت حالة الناس ولمست رغبتنا في تحسين تلك الأحوال.

ـ أجل يا صاحب الجلالة. في حاجة إلى أشياء كثيرة. ولاشك في أن ما بذلته جلالتكم من مجهود في هذا السبيل في الفترة القصيرة منذ توليت الحكم عام ١٨٩٦، يذكر لك بالخير.

ـ وإذا طال بي العمر يا عزيزي دارسي فسأصنع الكثير من أجل شعبي. ما رأيك في منافع الخط الحديدي حول طهران؟

ـ رائع يا صاحب الجلالة.

ـ بلادي في حاجة إلى خدمات كثيرة. طرق ممهدة وبعض الخطوط الحديدية أيضاً. ولكننا كما ترى فقراء أعجب ماذا جاء بك إلى إيران يا عزيزي وقد كان في استطاعتك أن تذهب إلى بلاد أكثر ثراء؟

ـ تعلم يا صاحب الجلالة بالطبع أنني نيوزيلندي من رعايا بريطانيا.

ـ ومع هذا يا عزيزي فابنتك اللطيفة الآنسة «ماري» تصر على أنك من أصل فرنسي.

ـ إنها تزعم هذا يا صحاب الجلالة لتبرر التحدث باللغة الفرنسية مع جلالتكم.

ـ إن لك يا عزيزي دارسي أرق وألطف ابنة. وإني أنزلها من نفسي منزلة ابنتي تماماً.

ـ شكرا يا صاحب الجلالة.

ـ إذن فقد جئت من نيوزيلندا إلى بلادي لتجرب حظك في النفط الذي يتسرب من شقوق الأرض إلى السطح؟

ـ كان هذا هو الهدف أول الأمر.

ـ ثم؟

ـ القصة طويلة يا صلاحب الجلالة. فأنا رجل أحب التجوال. عشت فترة في استراليا أعمل مدرساً للغة الإنجليزية ثم شاءت المصادفات السعيدة أن أكتشف منجم ذهب.

ـ ماذا؟ منجم ذهب؟!

ـ مصادفة والله يا صاحب الجلالة. صرت ثرياً بين يوم وليلة. وكان لي زميل في المدرسة. نيوزيلندي مثلي يدعى «هولمز» من الشغوفين بأمور التعدين والبحث عن النفط، فنصحني بالذهاب إلى إيران في محاولة للبحث عن البترول. قال إنه لا يشك في أن منطقة الخليج تحوي مخازن هائلة من النفط تحت الأرض. وقال إنه سيجرب حظه في يوم من الأيام حين يتوفر له المال.

ـ إذن فقد جئت لتنفق أموالك من منجم الذهب في محاولة استخراج ما في بطن الأرض من نفط؟ هراء.. لا تصدق هذه الخرافات يا دارسي.. إن وقتك أثمن من أن تضيعه في عبث كهذا..

ـ ولكني واثق يا صاحب الجلالة من وجود النفط..

ـ لا تغرنك التسربات السطحية.. ما قيمتها؟ مجهود كثير وفي النهاية بضع قوارير من النفط تستخدم في إضاءة المصابيح. اسمع يا دارسي كثيرون من مواطنيك الإنجليز يلحون علي في أن أعطيهم موافقتي على البحث عن النفط في بلادي. ولقد أبيت عليهم ذلك.. هل تريد أنت مثل هذه الموافقة؟

ـ إذا لم يكن لدى جلالتكم ما يمنع من ذلك؟

ـ وماذا يمنع؟ مستشاري أفضل من الأغراب. إنني بالطبع أفضل أن أهديك بيتاً فخماً أو أهب الآنسة كريمتك قدراً من المال لزواجها.. ولكن مادمت تفضل على هذا كله ورقة صغيرة عليها توقيعي فلا بأس. أمامك المكتب فاكتب النص الذي تريده.

لا أحد يدري ماذا كان يدور في ذهن «وليم نوكس دارسي» وهو يكتب على الورق الأخضر الذي يحمل شارة مظفر الدين شاه إيران، أعجب وأخطر امتياز نفطي في العالم كله. . شيك على بياض. . كتب دارسي ووقع الشاه. .

«نحن مظفر الدين ملك الملوك وامبراطور إيران وسلطان البرين والبحرين، بموجب هذا الصك الذي يحمل توقيعنا وخاتمنا وتوقيع وزيرنا الأول وخاتمه، نعطي لحامله السيد وليم نوكس دارسي، وكذا الورثة أو لأي إنسان آخر يرى وليم نوكس دارسي نقل حقوق هذا الصك إليه، نعطيه الحق المطلق في استغلال كل في ما أراضي إيران من منابع نفطية دون أن يدفع أي رسم أو ضريبة. وذلك لمدة مائة عام من اليوم. السابع عشر من مارس عام ١٩٠٠».

ووقع الشاه وختم. ووقع الوزير الأول وختم. ووضع وليم دارسي الوثيقة الخضراء في جيب سترته.

ثم مرت سبع سنوات.

خريف عام ١٩٠٧. ونحن على الباخرة «أدولف» التي توشك على أن تغادر ميناء بورسعيد في طريقها إلى انجلترا ثم السويد.

الركاب قليلون. لا يزيد عددهم عن أصابع اليدين. لا تربط بينهم أية علائق أو صلات. باستثناء العجوز بن السابعة والستين وسكرتيرته الشابة التي تلازمه تعنى به وتحكم الغطاء الصوفي حول ركبتيه إذا جلس على السطح في مقعده الهزاز. الرجل قليل الكلام ساهم دائماً. وقد سبق لنا أن قابلناه في ظروف أخرى. قابلناه يوم أعطاه شاه إيران مظفر الدين أعجب وثيقة في تاريخ امتيازات النفط. . وليم نوكس دارسي. .

على مبعدة يجلس قس بروتستانتي قليل الكلمة. . تجاورا كثيراً على مائدة الطعام في الباخرة. ورأى دارسي نظرة القس المعجبة إلى سكرتيرته فقال لها هامساً:

ــ القس معجب بك يا عزيزتي «هلواز».

وضحك وهو يستتلي:

ــ ولو طالت الرحلة لخلع رداءه الكنسي وتزوجك..

وتضحك السكرتيرة الحسناء في تحفظ ولا تشجع القس بنظرة أو بكلمة. ومرت أيام ثلاثة منذ غادرت السفينة بورسعيد. وتصادف أن تجاور، دارسي والقس، على مقعدين على السطح في يوم مشمس.. ولم يكن بد من أن يتبادل الرجلان الصامتان الحديث.

سأله دارسي:

ــ هل أنت ذاهب إلى انجلترا؟

قال القس:

ــ أجل يا سيدي.

ــ من أين قدمت؟

ــ من الهند.

ــ بقيت بها طويلاً؟

ــ بضع سنين. أردت أن أنشيء إرسالية للتبشير ولكن خاب ظني.

ــ لماذا؟

ــ لم أجمع ما يكفي من مال. الأهالي فقراء. ومواطنونا الإنجليز كما تعرف بخلاء.. إنهم يسيئون استغلال الأهالي ويبتزون أموالهم ولا يريدون مع هذا أن ينفقوا بنساً واحداً على تحسين أحوالهم. ولا على إنشاء إرسالية تبشير واحدة. ليس في قلوبهم وعقولهم غير حب المال. إنهم عبيد أموالهم التي يبتزونها من الأهالي.

ــ أنت على حق. وإنك لتفكر بأسلوبي يا سيدي القس المحترم. من أخطر

الأمور أن يصبح المرء عبداً للمال. أنا مثلاً.. في محفظة أوراقي في جيب سترتي هذه، وثيقة على ورق أخضر، تجعلني مالكاً لكل نفط إيران. هدية من شاه إيران نفسه.

دون اهتمام قال القس:

ــ حقاً؟!

ــ إنها في جيبي منذ سبع سنوات. منذ أخذتها من الشاه صديقي. سبع سنوات من الرعب.

دون دهشة قال القس:

ــ معذرة. لست أفهم. رعب من ماذا؟

ــ لقد بحثت عن النفط في كل أراضي إيران فلم أعثر على شيء. أنفقت أموالاً طائلة. فأنا ثري. ثري جداً يا سيدي القس المحترم. أملك منجم ذهب. ووثيقة نفط نادرة.

ــ ولكني علمت أنهم عثروا أخيراً على النفط حول عبادان.

ــ أجل. ولكني لا أريده. أتعرف! لقد عرضت علي الحكومة البريطانية بواسطة عملاء كثيرين، أن تشتري الوثيقة الخضراء بأربعة مليارات من الجنيهات. بعض الشركات الأمريكية عرضت أكثر من هذا. ولكني مللت. لا أريد. لا أريد.

ــ لماذا ترفض هذه الثروة الخرافية؟ لست أفهم.

ــ ضقت بالجشع الآدمي يا سيدي القس المحترم. لن تصدق ما تعرضت له من محاولات إجرامية دامية هدفها سرقة الوثيقة. حسناً. لم يحصلوا عليها. ولن يحصلوا عليها. بل أكثر من هذا، سأطلب من عمالي في عبادان ردم البئر التي يعملون فيها الآن.

ـ سيدفي. إنك تحرم نفسك من ثروة خرافية. أذكر أيضاً مصالح بلادك.

ـ اللعنة على بلادي. بلادي هي التي أغرت رجال مخابراتها لسرقة الوثيقة. بلادي هي التي أمرتهم أن يخطفوا ابنتي العزيزة «ماري» ويعذبوها حتى الموت كي تذكر لهم مكان الوثيقة. ولم تكن الوثيقة معها.

ـ مسكينة. إني آسف يا سيدي.

ـ لم أضع الوثيقة في أية خزينة. ولا عند المحامين. كانت طول الوقت ولا تزال حتى الآن في محفظتي في جيب السترة.

ـ أعتقد يا سيدي أنك تخطىء بعدم استغلال الوثيقة أو بيعها.

ـ لا. إنها شريرة هذه الوثيقة. إنها الشيطان بعينه. لقد قتلت ابنتي بسببها. لا خير في النفط يا عزيزي. انظر إلى ما يجري في أمريكا. في أول الأمر استخدموه في إضاءة المصابيح وصناعة المعاجين لعلاج الروماتيز. لم يقع بين الشركات التي كانت تستخرجه أي صراع. والآن بعد أن فتح الباب على مصراعيه لاستخدامات أخرى كثيرة ومثيرة وخاصة في إدارة المحركات فانظر ماذا يجري من صراع دموي بين العملاء السريين والجواسيس لشركات النفط! انظر مثلاً إلى شركات روكفلر وشركات ديترونج. صراع إلى الموت.

ـ تعني يا سيدي أنهم يطاردونك من أجل الحصول على الوثيقة الخضراء؟

ـ بالطبع. بشراسة دامية.

ـ ومن هؤلاء يا سيدي؟

ـ عملاء شركات البترول. بل ورجال المخابرات الإنجليزية أيضاً. في إيران حاولوا بعد مقتل ابنتي، أن يختطفوني. وذات ليلة هاجمني رجل بخنجره ولولا أنني أرتدي دائماً قميصاً من الصلب لنفذ الخنجر إلى قلبي. هاجموا داري في غيابي أكثر من عشرين مرة. فتشوا كل بوصة فيها. كل قطعة أثاث.. لا شيء

يثني هؤلاء الجواسيس عن هدفهم يا سيدي القس المحترم. تصور. لقد ضقت بالإقامة في إيران وقررت أن أقضي بقية أيامي في مصر. لي فيها صديق قديم. قنصل بريطانيا. استأجر لي بيتاً على شاطىء البحر في الاسكندرية. ورأيت في داره صبية بريطانية في الثالثة عشرة من عمرها. ذكرتني بابنتي، ولما قال لي القنصل إنها يتيمة الأب والأم بعد موت أبيها الضابط الإنجليزي في حرب البوير طلبت منه أن أقوم بتنشئتها. جاءت إلى بيتي كأنها ابنتي، أغدقت عليها كل حنان وعطف. أتعرف ماذا اكتشفت؟ اكتشفت أن صديقي القنصل دسها علي لتسرق مني الورقة الخضراء. فاجأتها ذات يوم تفتش في أوراقي في حرص الجواسيس. لم يبق في الدنيا خير يا صديقي. وأخيراً قررت أن أسافر إلى السويد. على أمل ألا يتبعني هناك جواسيس بلادي أو العملاء السريين لشركات البترول.

ــ ومع هذا فهذه الوثيقة كما تقول يا سيدي تساوي أربعة مليارات!

ــ وربما أكثر.. بل من المؤكد أن الشركات الأمريكية تدفع فيها أكثر من هذا.. أتدري ماذا سوف أفعل الآن؟ سأخرج الورقة من محفظتي وألقي بها في البحر فتذهب بشرها إلى الأبد.

ــ هل لي أن أقترح عليك يا سيدي ما هو أفضل من ذلك؟

ــ تفضل.

ــ لماذا لا تبيعها وتضع المال في مشروع مفيد ولاخلاف على فائدته؟

ــ ماذا مثلاً؟

ــ الإرساليات التبشيرية في حاجة إلى هذا المال الوفير..

ــ هل أفهم من هذا أنك تريد هذه الورقة لتؤسس بمالها ما تحلم به من إرساليات تبشيرية؟

ـ أليس هذا أفضل من إلقائها في الماء.

ـ أنت على حق يا سيدي القس المحترم. حسناً. الورقة في محفظتي. سأعطيها لك فتخرج من حياتي إلى الأبد بكل شرورها. هاهي. خذها وانشيء بثمنها ما تحلم به من إرساليات تبشيرية.

وحين عاد القس إلى غرفته بالباخرة. طرق عليه الباب طارق.

ـ أدخل.

فتح القس باب غرفته وأغلقه بسرعة بعد أن دخل الطارق.. أو الطارقة على الأصح.. سكرتيرة وليم نوكس دارسي الحسناء. قال لها القس في قلق:

ـ لماذا جئت يا «فاني» لقد اتفقنا على ألا يتصل الواحد منا بالتالي إلا بعد أن نصل إلى لندن. المفروض أنك سكرتيرة الرجل. لا تدعيه يشك حتى نصل إلى لندن.

وقالت فاني الحسناء:

ـ إني أرتعد من فرط السعادة. لا أصدق إننا وصلنا في النهاية إلى الوثيقة الخطيرة. ساعة لمحته يناولك إياها كنت على وشك أن أفقد الوعي من شدة الإثارة.

ـ لقد خدعته.. يا إلهي.. من كان يتصور أنه يضعها في محفظته كل هذه السنين!!

ـ سيطير مدير المخابرات فرحاً حين نبرق له من مارسيليا بحصولنا على الوثيقة.. سننال مكافأة ضخمة يا سيدني وبعدها نتزوج على الفور.

ـ ومن قال لك أنني سأعطيها للمخابرات؟

ـ ماذا؟ لقد كلفوك بهذا.

ـ أي مجنون هذا الذي يفرط في أربعة مليارات. سأبيعها لشركات البترول الأمريكية.

ـ سيدني. لن يدعوك تهنأ بالمال إذا حاولت أن تخدعهم. سيقتلونك.

ـ يقتلوني أنا؟ هل نسيت يا فاني من أنا؟ «سيدني رايلي» الرجل الأول في المخابرات. أفضل رجال المخابرات في العالم كله.

ـ ولهذا كلفوك بالمهمة. ولكنهم لن يرحموك إذا خدعتهم.

ـ إني أعرف كيف أحمي نفسي منهم يا فاني. سنتزوج ونغدو أثرى أثرياء العالم كله.

وسافر سيدني رايلي أخطر رجل مخابرات في بريطانيا، إلى نيويورك وقصد إلى إدارة شركة ستاندرد أويل في برودواي ليبيع للشركة الأمريكية الوثيقة الخضراء الخطيرة. ودارت مفاوضات طويلة. وقبل أن تتم الصفقة وبينما سيدني رايلي في طريقه إلى الفندق إنهال عليه سيل من الرصاص. ما أن وقع حتى أسرع نحوه بعض رجال الشرطة وفتشوا الجثة تفتيشاً دقيقاً. ثم انطلقوا في سيارة مسرعة. لم يكونوا غير رجال من المخابرات البريطانية. قتلوا الخائن وفازوا بالوثيقة. رغم سقوطهم الواحد بعد الآخر في أيدي الشرطة الأمريكية، فإن الوثيقة الخطيرة كانت قد عبرت الأطلنطي لتستقر في خزانة شركة «أبوك» التي صارت بعد ذلك المالكة الوحيدة لكل نفط إيران. إلى أن عاد الحق إلى أصحابه.. أصحاب البلاد.

ولا أحد يعرف أو حتى يهتم بمصير وليم نوكس دارسي.. الرجل الذي حصل من مظفر الدين شاه إيران على الوثيقة الخضراء الخطيرة!



تصميم وطباعة



- الكويت -

تصميم وطباعة



ـ الكويت ـ